مجلة

المؤرخ العربي



رئيس التحرير
الدكتور حسين أمين
الأمين العام
لاتحاد المؤرخين العرب

١٩٧٧

العدد ٤

طبع بمطبعة الجامعة ـ بغداد ـ هاتف ٨٨٨٨٥١٣



رقم الايداع فى المكتبة الوطنية ببغـداد ٢١٢ لسنة ١٩٧٧

١٠٠٠/١

المحتـــويات

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمة :

بكل اعتزاز نقــدم للقارىء العربي مجلته « المؤرخ العربي » والتى صــار لهــا صــدى كبيرا في الاوســاط الاكاديميــة بفعــل الخطــة التى انتهجتها في مسيرتها الموضوعية وعنايتها الكبيرة في اتباع الطريقــة العلميــة أساســاً للبحث ونهجا في الكتابة التاريخيــة .

والامانة تعتذر للقراء الكرام عن تأخر هــذا العــدد وذلك بسبب احتجاز العــدد الثالث في بيروت بسبب الحوادث المؤسفة والذى لا نعلم عنه أى شيء برغم كل المحــاولات والجهود المبذولة لاخراجه الى حيز الوجود ، لذا فنحن بادرنا الى تهيئة هــذا المجلد الجــديد من مجلتكم ليعوض عن ذلك العــدد الذى نرجو ان نفلح في تقديمه اليكم في القريب العاجــل باذن الله .

ان الامانة العــامة لاتحــاد المؤرخين العرب ، تتقــدم بخالص شــكرها وعظيم تقــديرها الى كل الذين اسهموا في تحرير هــذا العــدد كمــا تتقــدم الى جميع الحكومات العربيــة التى ســاهمت في دعم الاتحاد واسناده ليكون عاملا مهما من عوامل البنــاء والتطور في المجالين القومي والعلمي .

ونســأله تعــالى ان يوفقنا لمــا فيه خير العروبة وأزدهار تاريخها المجيد .

الدكتور حسين امين

الامين العــام لاتحــاد المؤرخين العــرب



نشأة الحركة التعليمية في العراق واثرها

في نهضــة الآداب والعــلوم

الدكتور حسين امين
الامـين العـام
لاتحـاد المؤرخين العرب

العراق مهد الحضارة الانسـانية في تاريخـه البعيـد ، وقـامت في ربوعه اقدم المنشـآت الحضـارية ، وحفل تاريخـه بأروع الصفحـات ، وساهم مسـاهمه كبيرة في بناء المدنية التى نعيشـها اليوم ، والاثار الخالدة التى خلفها الانسـان العراقى القديم تنطق بما وصلت اليه الحضارة العريقة من الرقي والتقدم ، فالسومريون والاكديون والبابليون والأشوريون عناوين ضخمة ومواضيع مهمة في سجل الحضارة الانسـانية .

وكان للعراق نصيب وافر وكبير في تاريخ الامـة العربية الاسلامية ، فقد كـان نقطة انطلاق العرب الفاتحين الى المشرق ، كمـا اصبحت الكوفة عاصمة الخليفة الامام على بن ابى طالب الخليفة الرابع من الخلفاء الراشدين ، وكان للعراق اثر كبير في نقل تراث العروبة الى المشرق الاسلامى ، كما كانت للبصرة والكوفه التاثيرات الحضارية الكبيرة خاصة في الدراسات اللغوية وقـد ظهـرت تلك الدراسـات لاول مـرة في كلتـا المدينتين العظيمتين الخـالدتين ، وما القواعد التى تعلمناها ودرسناها في مدارسنا وكلياتنـا الا قبس من جهود آثار اجدادنا الكوفيين والبصريين ، كما كـان العراق مركزا من مراكز المعارضة السياسية الشديدة ، وفي ربوعه ظهرت الفرق والجماعات السياسية والمذهبية ، فالشـيعة والخوارج والمعتزلـة والقرامطـة والزنج واخوان الصفا وغيرها من الفرق ، انطلق عنانها في عراقنا الخـالد وكان لتلك الفرق ومبادئها النتائج الخطيرة في تاريخنا السياسى والاجتماعى .

والعراق اصيل في عراقته الحضارية ، وقد اثبتت اثاره الشاخصة والتى ظهرت نتيجة التنقيبات الاثرية ان العراقيين لعبوا دورا مهما وخطيرا في نشر التعليم وازدهار العلوم ، وان العراقيين القدماء منذ فجر السلالات شيدوا المدارس ، وقد دلت التنقيبات على اثبات ذلك في مدينتى نفروسبار وغيرهما من المدن العراقية القديمة عدا المدارس الخاصة بالمعابد ، وكان الطلبة يتعلمون الخط اى الكتابة المسمارية ، وكان على الطالب العراقى القديم ان يتعلم اللغتين البابلية السامية وشؤون القانون ، وكان الطلاب يتعلمون تلك المعارف بأختصاصات معينة في معاهد خاصة ومؤسسات للبحث العالى كانت تعرف بالبابلية (بيت — مومى) مما يقابل معنى الاكاديمية ، كما كانت هناك بيوت الكتب اى المكتبات الكثيرة والتى أمدتنا بمعلومات قيمة عن اتجاهات العلم والتعليم في العراق القديم(١) فقد احاطتنا تلك المكتبات بما توصل اليه العراقيون القدماء من المعرفة الكبيرة للطب والفلك والعلوم الرياضية كافة والتاريخ والجغرافية والادب والفنون ، وقد نجحوا في تشييد حضارة مزدهرة معروفة وشهيرة في تاريخ الانسانية .

وفي القرن السادس الميلادى ظهرت المبادىء الاسلامية التى دعا اليها الرسول محمد (ص) ومنذ انبثاق الدعوة الاسلامية كان التعليم قرينا لها وكانت اولى الايات القرآنية تشير الى العلم وبعض ادواته ، قال تعالى : « اقرأ بأسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » ومن الجدير بالذكر ان القرآن الكريم فيه ايات عديدة تدعو المسلمين الى طلب العلم وتحثهم على التعليم ، قال تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات(٢) » كما كانت تلك الايات القرآنية الكريمة ترفع من قدر العلم وتعلى شأن

---

(١) راجع كتاب الاستاذ طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة .

(٢) القرآن الكريم : سورة المجادلة : آية ١١ .

العلماء وتمجد العقل والمعرفة وتخفض من الجهل واهله وكثيرا ما تقرنه بالعمى وتشبهه بالضلالة والظلمات الحالكة ، كما اعتبر القرآن الكريم ، التعليم من وظائف النبي (ص) ، قال تعالى : « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم اياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم(٣)»

وما من شك ان التعليم من مستلزمات تطور وازدهار المجتمع الانساني وهو في ابسط مظاهره ليس سوى تكييف الفرد مع ضروريات الحياة ولوازمها في بيئته ، واذا كان الاسلام هو النظام الموجه للحياة عند المسلمين بكل مظاهره فقد كان فهمه ودراسته امرا لابد منه لافراد الجماعة الاسلامية ، فالتعليم اذن كان من مستلزمات الدعوة الجديدة لتحقيق التربية الصحيحة التى تهدف اليها الدعوة الاسلامية ، ومن الواضح ان الرسول (ص) كان يستهدف بناء امه جديدة وانشاء حكومة تضاهي الحكومات القائمه في عصره فلابد من وجود طبقه متعلمة متنورة تتحمل عبء الدعوة ولها قوة الحجه والمقدرة على الاقناع بالطرق العلمية ، وتذكر المراجع التاريخية انه لم يكن بين العرب عدد كبير من الذين يتقنون القراءة والكتابة ، ويذكر القلقشندي : ان عدد الكاتبين من بين العرب عند بعث النبى (ص) لم يكن يزيد على بضعة عشر نفرا (٤) ، ولهذا كان من اهداف النبى (ص) العمل على نشر التعليم بين المسلمين وتشجيعهم على ارتياده .

وواكب المسجد الدعوة الاسلامية ولازمها ، كما كانت المعاهد الاولى للتعليم في صدر الاسلام ، كما اصبح المسجد المكان الطبيعى والملائم لتلقى العلوم ، روى عن مكحول انه قال : حدثنى عشرة من اصحاب رسول الله (ص) قالوا : كنا ندرس في مسجد قباء ، اذ خرج علينا رسول

(٣) القرآن الكريم : سورة البقرة : آية ١٢٩ .

(٤) القلقشندي : صبح الاعشى جـ ٣ ص ١٥ .

الله (ص) فقال: تعلموا ما شئتم انْتعلموا فليس يأجركم الله حتى تعلموا(٥)٠
وفي حديث آخر للرسول (ص) : انه مر بمجلسين في مسجده فقال : كلاهما خير واحدهما افضل من صاحبه ، فأما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون اليه فأن شاء اعطاهم وان شاء منعهم ، واما هؤلاء فيتعلمون الفقه والعلم،ويعلمون الجاهل منهم افضل ، وانما بعث معلما ، قال : ثم جلس فيهم(٦) ٠

وانتشرت المساجد في جميع انحاء العالم الاسلامى وقامت بدورها ورسالتها الدينية والتهذيبية والتعليمية ، وبرز في العراق مسجد البصرة ومسجد الكوفة ثم جامع المنصور في بغداد وغيرها من المساجد التي شيدها المسلمون في مختلف العصور الاسلامية ٠

ولاشك فأن المسجد في صدر الاسلام كان هو المنتدى الوحيد في اى مدينة اسلامية فيه يلتقى العرب المسلمون الفاتحون بغيرهم من ابناء الشعوب المختلفة وهذا الالتقاء ادى الى ان يتعرف الفرس مثلا في العراق على الافكار الدينية الجديدة ويتلقفها باللغة العربية الفصحى كما يتعرف على تراثهم الفكرى وبخاصة التراث الادبى ، ونتيجة الاختلاط بين العرب والشعوب الاخرى بعد الفتوحات الاسلامية ، برزت مشاكل حضارية مختلفة اجتماعية واقتصادية وثقافية ، فتعرضت اللغة العربية السليمة للوثة العجمة ، كما ظهر بين العرب من لايحسن العربية ، كما تعرضت عقيدة البعض منهم لشىء من الشك ، فظهرت بعض الافكار والمبادىء تحمل لونا جديدا من التعليل والتسبيب ، فأدى هذا الى ظهور الدراسات اللغوية كالنحو مثلا ، وتشير الاخبار التاريخية ان الامام على ابن ابى طالب (ع) هو واضع علم النحو وان ابا الاسود الدؤلى اخذ ذلك العلم من الامام على (ع) ، ونحن نرجح ان الامام على (ع) املى ذلك العلم

(٥) الغزالي : قائمة العلوم ص ١٩ ٠
(٦) الكتاني الادريسي : التراتيب الادارية ج ٢ ص ١٩ ٠

على ابى الاسود في مسجد الكوفة ايام اقامته في تلك المدينة العريقة

وفي مسجد البصرة برزت فكرة المعتزلة اثر الجدل الحاصل بين الشيخ حسن البصرى وبعض من كان ملازما حلقته امثال واصل بن عطاء وعمر بن عبيد وانصارهما واللذين كونوا حلقة جديدة في مسجد البصرة كانت تنادى بأفكار واراء يعافها الحسن البصرى وانصاره ، ولاشك ان حركة المعتزلة الفكرية ، احدثت اثرا كبيرا في التفكير الاسلامى بخاصة وفي الفكر الانسانى بعامة لما اتت به من افكار واراء تستند الى العقل وتفسر الحوادث والظواهر والافعال الانسانية بالروح العلمية وبالاسلوب المنطقى المعتمد على قوة الحجة والاقناع ، وكان ذلك عاملا مهما في نشر الافكار الحرة وعملت على ازدهار الحركة العلمية في مطلع النصف الاول من القرن الثالث الهجرى .

وفي مسجد البصرة كان الشعراء والادباء يجتمعون ، وذكر الجاحظ انه ادرك بالبصرة رواة المسجديين المربديين ، واتخذ الخليل ابن احمد الفراهيدى المتوفى سنة ١٧٤ هـ المسجد مقرا له ، ويعتبر الخليل اول من رسم علم اللغة واول من صنف فيه ، ويذكر ابن خلكان سبب موته ، انه دخل المسجد فصدمته سارية وكان يقطع بحرا من العروض(٧) . كما يعتبر الخليل اول من وضع علم العروض وفن المعاجم في العربية ، وقد عاش معظم حياته في البصرة متزهدا متعففا ومن اشهر طلابه سيبويه المتوفى سنة ١٨٠ هـ والذى يعتبر امام البصريين في النحو .

واشتهر مسجد الكوفة بأنه كان مدرسة لاقراء القرآن ففي هذا المسجد كان شيوخ الاقراء يجلسون فيلقنون طلاب العلم القراءات التى رووها بأسانيدهم . ومن اشهر قراء الكوفة عبدالله بن حبيب بن ربيعة الضرير ، وكان اول من جلس لاقراء القرآن الكريم في مسجد الكوفة ،

---

(٧) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٢ ص ١٩ .

ولد في حياة النبي ولابيه صحبة واليه انتهت القراءة تجويداً وضبطا(٨) ، (اخذ القراءة عن علي بن ابي طالب وعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود (رضي الله عنهم) ، وبرز في مسجد الكوفة ايضا قارىء كبير هو حمزة بن حبيب ابن عمارة الكوفي التميمي احد قراء القرآن الكريم السبعة ، واليه صارت الامامة في القراءة بعد عاصم والاعمش وكان اماما حجة ثقة ثبتاً ، وتوفي حمزة بن حبيب سنة ١٥٦ هـ(٩)) .

كما كان مسجد الكوفة مركزا من مراكز دراسة الفقه وازدهاره، ففي هذا المسجد ظهرت بوادر مبادىء الفقه المبني على التجرد واستنباط مفهومه من الكتاب والسنة ، كما ظهرت في مسجد الكوفة ايضا مدرسة لتفسير القرآن الكريم واشتهر من رجالها سعيد بن جبير المقتول سنة ٩٤ هـ ، وكان سعيد بن جبير عالما بالتفسير ، وعلي بن حمزة الكسائي الذي انتهت اليه رياسة الاقراء بعد حمزة بن حبيب وكان يجمع طلابه ويجلس على كرسي ثم يتلو عليهم القرآن الكريم ويسمعون ويضبطون عنه(١٠) ، ويحيى بن زيد الفراء الذي عني بدراسة القرآن وتفسيره ، ويعتبر الفراء من نحاة الكوفة وشيوخها في العربية ، قال ثعلب : لولا الفراء لما كانت اللغة لانه حصلها وضبطها ، ولولا الفراء لسقطت العربية لانها كانت تتنازع(١١) . وذلك لان العربية تأثرت باللغات الاخرى وبذلك كادت أن تفقد خصائصها الاصيلة ، لذا ابدى امثال الفراء الى وضع قواعد الضبط في اللغة للحفاظ على تلك الخصائص كما نجحوا نجاحا بعيدا في جعل اللغة العربية سهلة المنال لمن يريد تعلمها وضبطها ، ومطاوعة لارادة الكتاب

---

(٨) ابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء ج ٢ ص ٤١٣ .

(٩) المرجع السابق ج ١ ص ٢٦٣ .

(١٠) المرجع السابق ج ١ ص ٢٦٣ .

(١١) الانباري : نزهة الادباء : تحقيق الدكتور السامرائي ص ٦٥ .

للتعبير عن ارائهم وافكارهم ، اعنى بهذا انهم نجحوا فى جعل اللغة العربية متطورة وقادرة على مواكبة التطور الحضارى والمعايشة بين لغات الانسانية عـامة .

وهكذا اصبحت المساجد الاسلامية في العراق معاهد مهمة تشد اليها الرحال للدرس والتدريس ، وكان التدريس في جامع المنصور مثلا من المراكز المهمة فقد ذكر ياقوت : ان الكسائي كان يجلس في جامع المنصور ليقرأ اللغة وتتلمذ عليه الفراء وابن السعدان(١٢) ، كما كان يطمح العلماء في ان ينالوا منصبا تدريسيا فيه لمكانته العلمية ، ذكر الخطيب البغدادى : انه لما حج شرب من ماء زمزم وسأل ان يحقق له ثلاث حاجات احداها ان يحقق له املاء الحديث بجامع المنصور(١٣) وفي المساجد العراقية صنفت الكثير من الكتب في مختلف مواضيع الادب والعلم ، ومن يتصفح الكتب المخطوطة المنتشرة فى انحاء العالم يجد اشارات واضحة بأن قسما كبيرا منها صنف في المساجد العراقية ، وكتب تاريخ التراجم تزخر بأخبار العلماء والفقهاء والادباء الذين اتخذوا من المساجد العراقية امكنة فيها يتزودون بالعلوم والمعارف وفيها يقيمون ويعيشون ، وفيها يدرسون ويتدارسون ويؤلفون ويصنفون ويخلدون اثارهم العلمية والادبية ، ومن اجل ان يحقق المسجد مطامع مريديه وتيسير عملهم العلمى فقد الحقت في كل مسجد مكتبة عامرة تضم عددا وفيرا من الكتب فى مختلف العلوم والفنون ، وقد تسابق الناس الى تزويد تلك المساجد بالكتب وان بعض المسلمين كان يوقف كتبه على المساجد ، طلبا للاجر او الحفاظ عليها من ان تبددها الايدى ، وهكذا صارت بعض المساجد اشبه بالاكاديميات

(١٢) ياقوت : معجم الادباء ج ٤ ص ٢٤٣ .

(١٣) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ج ١ ص ١٨ .

الثقافية ، وكان لهذا الاثر الكبير في نجاح الدرس والتدريس والبحث والتصنيف .

والى جانب المسجد كمعهد للتعليم كانت توجد اماكن اخرى لتعليم الاطفال ، وهى الكتاتيب ومفردها (كتاب) وفي الكتاب يتعلم الطفل القراءة والكتابة ومبادىء الدين الاسلامى وبعض المعلومات من الحساب والنحو وشيئا من اشعار العرب ، وتوجه العناية في الكتاب بشكل خاص الى تحفيظ الصبيان القرآن الكريم .

وكانت تعقد في قصور الخلفاء والامراء حلقات العلم وفيها يتناظر العلماء في اللغة والادب والشعر والفقه والحكمة والمنطق وعلم الكلام ، وكانت عناية خلفاء العباسيين واضحة واشهر من عقدت حلقات المناظرة فى قصره من خلفائهم هارون الرشيد الذى كان قصره كعبة العلماء والادباء وكان يحضر مجلسه ابو نواس وابو العتاهية ودعبل ومسلم بن الوليد والعباس بن الاحنف وابراهيم الموصلى والاصمعى والكسائى والواقدى وغيرهم(١٤) ، فقد كان نفسه اديبا عالما ، قرب العلماء وشجعهم على البحث والمناظرة وقد اعتنق المأمون مذهب المعتزلة الذين اعتمدوا على الجدل وقوة الحجة ، ولما ضعفت الخلافة العباسية في بغداد وانفصلت الاطراف وقامت بها دول مستقلة تتنافس سلاطين هذه الدول وامراؤها في اجتذاب اشهر العلماء والادباء الى مراكز حكمهم وقصورهم ، واصبحت القصور في العواصم المختلفة مراكز ثقافية خصبة (١٥) .

وظهرت في العراق دور العلم ، وهى كما نرى انها دور خاصة بالدرس والبحث ، ولعل من اشهرها بيت الحكمة ببغداد ودار العلم في الموصل

---

(14) Nicholson : A Literary History of the Arabs p. 261.

(15) Khuda Bukhsh : Contribution to the history of Islamic Civilization. p. 184.

وبيت الحكمة اشبه ما تكون بأكاديمية مختصة بالدرس والبحث وترجمة نادر الكتب العلمية والادبية ، كما كانت تعقد فيها مجالس العلم للمناظرة من اجل التوصل الى حقائق العلم ، ومن مشاهير من اشتغل في بيت الحكمة ابو سهل الفضل بن نوبخت وكان قد عهد اليه بترجمة كتب الحكمة من الفارسية الى العربية(١٦) ، كذلك كان ابو جعفر محمد بن موسي الخوارزمى ملازما خزانة بيت الحكمة ، وقد اشتهر الخوارزمى بالعلوم الرياضية ، وصاحب الزيج المشهور بالسند هند وكتاب العمل بالاسطرلاب ، كما اشتهر بنو موسى بن شاكر وهم اخوة ثلاثة : محمد واحمد والحسن ، وكان هؤلاء من رواد بيت الحكمة فى العلوم الرياضية والفلك والفلسفة ، وقد اشتهر احمد بن موسي بن شاكر بكتابه الحيل واشتهر محمد بن موسى بكتابه (الجزء) كما اشتهر الحسن ن موسى بكتابة (الشكل المدور المستطيل)(١٧) .

وهناك اشارات في كتب التاريخ توضح ان عددا كبيرا من الادباء والعلماء من فى شتى الاختصاصات اجتمعوا في بيت الحكمة ببغداد ، وكانت نتاجاتهم كثيرة وعالية ساعدة على تطوير عملية البحث العلمى وتنشيطها ، ومن ثم ازدهار الاداب والعلوم ، ومما يجدر الاشارة اليه ان بيت الحكمة ببغداد كان يضم العلماء المسلمين والمسيحيين والمجوس ، وحتى من الشعوبيين المغالين في بغض العرب ، فكان علان الشعوبى واصله من بلاد فارس وهو ضليع بمعرفة الانساب ، وكان ينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة ، وصنف كتاب الميدان في المثالب الذى هتك فيه العرب واظهر مثالبها ، ابتداء ببني هاشم قبيلة بعد قبيلة على الترتيب الى

---

(١٦) ابن النديم : الفهرست ٣٩٦ .

(١٧) الفهرست ، ص ٣٩٣ .

آخر قبائل اليمن على ترتيب كتاب ابن الكلبى(١٨) ، وهـذا ان دل انما يدل على انسـانية العلم والتعليم في بغـداد حـاضرة الخـلافة العباسية ومركز الاشعاع الفكرى الانسـانى في القرون الوسـطى .

وفي الموصل شيد ابو القاسم جعفر بن حمدان دار علم كان لها شأن كبير في نشر العلم وازدهاره ، وابو القاسم من فقهاء الشـافعية اشـتهر في الاصول والحكمة والهندسـة وقول الشعر ، وكان مجلسـة في الموصـل عامرا بالادباء والشعراء والعلماء ، وداره التى انشأها كان ملتقى الادبـاء والعلماء الذين يتباحثون ويتناظرون في شؤون العلم والادب ، وكان جعفر ابن حمدان صـديقا للمبرد وثعلب(١٩) .

واسس ابو نصر سـابور بن اردشير وزير بهاءالدولة البويهى ، دار علم في الجانب الغربى من بغـداد ، وذكر ابن الاثير انها شيدت سنة ٣٨٣ هـ ووقف فيهـا كتبا كثيرة على المسـلمين المنتفعين بهـا(٢٠) ، وكانت هـذه الدار مركز بحث ودراسـة يفد اليها الادباء والعلماء والفلاسفة والحكمـاء ، ومن اشهر من قصدها الشـاعر الفيلسوف العربى ابو العلاء المعرى ، ولابى العلاء قصيدة مشهورة من بحر الطويل ، اشار فيها الى دار العلم تلك قوله :

وغنت لنا في دار سابور قينة من   الورق مطراب الاصائل مهياب

وكان سـابور من اكابر الوزراء واماثل الرؤسـاء جمعت فيه الكتابة والدراسـة ، وكان بابه محط الشـعراء ومجلسه ملتقى الادباء والعلماء.

وكانت لشيخ الامامية الكبير محمد بن محمد بن النعمـان المعروف بأبن المعلم والمشهور بالشـيخ المفيد ، دار بدرب رياح يحضرها اهـل العلم

---

(١٨) ياقوت : معجم الادبـاء ج ٥ ص ٦٦ .

(١٩) المرجع السـابق : ج ٧ ، ص ١٤١ .

(٢٠) ابن الاثـير : الكامل ج ٧ ص ١٦٢ .

والمعرفة يتناظرون في علوم الفقه والكلام والجدل ، ومن اشهر تلامذته الشريف المرتضى والشريف الرضى ، وبعد وفاة الشيخ المفيد سنة ٤١٣ اصبحت دار الشريف المرتضى موئل الادباء والعلماء وكان الشريف المرتضى يدرس في علوم كثيرة ويجرى على تلامذته رزقا فكان للشيخ ابى جعفر الطوسى ايام قراءته عليه كل شهر اثنى عشر دينارا وللقاضى ابن البراج كل شهر ثمانية دنانير وهكذا .. وتوفي الشريف المرتضى لخمس بقين من شهر ربيع الاول سنة ست وثلاثين واربعمائة للهجرة ، فأنتقل مجلس العلم الى دار ابى جعفر الطوسى ، وكانت داره بالكرخ مقصد الادباء والعلماء ، وكان الشيخ يناقش المواضيع العلمية ويناظر في الامور الكلامية ويوضح مبادىء الدين ، وقد امتاز بالنبوغ والذكاء وقوة الحجة وزاد عدد تلامذته على الثلاثمائة فى الشيعة والسنة ، ولشهرته ومكانته الرفيعة جعل له الخليفة العباسى القائم بأمر الله كرسى الكلام والافادة تقديرا لعلميته واعترافا بسمو مكانته .

هكذا كانت المظاهر الثقافية بارزة في العراق بعامة وبغداد بخاصة وتجلت بوضوح النواحى العلمية التى برزتها وهذبتها وصقلتها حلقات المساجد ومجالس العلم وانتشرت الكتب العديدة فى شتى مواضيع العلم والمعرفة ، وكان سوق الوراقين ببغداد من مراكز نشر الثقافة وملتقى العديد من الادباء والعلماء .

وفي سنة ٤٥٧ هـ شرع نظام الملك الوزير السلجوقي ببناء المدرسة المعروفة بالنظامية وتكامل بناؤها في العاشر من ذي القعدة سنة ٤٥٩ هـ ، وتعتبر المدرسة النظامية اول مدرسة بوشر في بنائها ببغداد ، وقد اسست لتدريس الفقه الشافعى ، وشرط الواقف ، ان يكون المدرس بها والواعظ ومتولى

---

(٢٢) ياقوت : معجم الادباء ج ٥ ص ٤١٥ .
(٢٣) الاربلي : خلاصة الذهب المسبوك ص ٢١٢ .

الكتب من الشافعية اصلا وفرعا(٢٢) ، وانتشرت المساجد في بغداد مثل مدرسة مشهد ابن حنيفة والمدرسة التاجية والبشيرية والتتشية وغيرها من المدارس والتي كانت في معظما تختص بتدريس مذهب واحد .

وفي سنة ٦٣٠ تكامل بناء المدرسة المستنصرية التي امر بأنشائها الخليفة المستنصر العباسي ، ولهذه المدرسة اهمية خاصة ، اذ المعروف ان المدارس السابقة للمستنصرية كانت تشيد كل واحدة منها لدراسة مذهب واحد بعينه ولكن هذه المدرسة هي اول مدرسة عرفها العالم الاسلامي كله بنيت لتدريس المذاهب الاربعة ، وقد عاصرت هذه المدرسة المدارس الاخرى التي انشئت في بغداد والبصرة والموصل وواسط .

كانت المدارس العراقية امكنة صالحة للعلم والتعليم وقد عنيت تلك المدارس في تدريس العلوم والاداب وتربية المواطنين تربية صالحة واعدادهم الاعداد الذي يليق والمجتمع الاسلامي . وقد عنيت المدارس العراقية بالاختصاص فقد كان لكل موضوع مدرسه المختص وكان هذا واضحا كل الوضوح في المدرسة النظامية والمستنصرية ، فعندما توفي ابو زكريا التبريزي استاذ الادب في النظامية ، اصبح علي بن محمد الفصيحي صاحب ذلك الكرسي(٢٣) لاشتهاره بالادب ، هذا ونصت شروط المدرسة المستنصرية ان يكون لكل طائفة من المذاهب الاربعة مدرس واربعة معيدين ، وان يكون بالمدرسة طبيب حاذق يشغل عشرة انفس يعلمهم الطب(٢٤) .

وكان مجال المناقشة مفتوحا امام الطلاب ، وكانت للمناقشة بين الاستاذ وطلابه اداب خاصة ، تكفل للاستاذ وقاره وهيبته ومكانته كما تحقق للطالب طريق الفهم والتعليم ، ذلك ان طالب العلم لاينال العلم ولاينتفع به الا بتعظيم العلم واهله وتعظيم الاستاذ وتوقيره(٢٥) .

وكان الاستاذ هو الذي يضع برنامج التدريس وهو الذي يختار المادة

---

(٢٤) الزرنوجي : تعليم المتعلم طريق التعلم ص ١٨ .

العلمية التى يلقيها على طلابه ، وكانت الدراسة حرة اى ان الطالب هو الذى يختار الاساتذة الذين يرغب فى مصاحبتهم وحضور دروسهم •

واتبعت المدارس العراقية في سلم درجات التدريس مرتبة المعيد ، ووظيفته ان يساعد المدرس او الشيخ ويوضح مايصعب على الطلبة من امور في مادة الدرس •

ان المدارس العراقية قامت بأداء رسالتها التعليمية ، وقدمت خدمات جليلة في نهضة العلوم الدينية ، التفسير والحديث والفقه والفرائض ، والعلوم الادبية كاللغة والنحو والصرف والعروض والاداب ، والعلوم الرياضية والعلوم العقلية كالمنطق وعلم الكلام والاصول والعلوم الطبيعية كالطب والصيدلة وعلم الحيوان ، واصبحت لتلك المدارس شخصية بارزة في عالم الثقافة وفي تربية النشيء واعدادهم لحياة افضل •

كما ان تلك المدارس كانت مركزا للتطور الفكرى فظهرت المؤلفات والتصانيف في شتى مواضيع الفكر والمعرفة ، مما ادى الى تطوير الاداب والعلوم وازدهارها ، وكانت تلك المدارس بحق مصادر الاشعاع الفكرى ومنبع الثقافة الانسانية في العصور الوسطى الاسلامية ، حيث انتشر طلابها ومدرسوها في انحاء العالم شرقا وغربا ونقلوا تراث بغداد والمدن العراقية الاخرى كما اصبحت تآليف اساتذة المدارس العراقية المعين الذى يغترف منه المتعلمون في جميع انحاء العالم ، كما اصبحت مدارس العراق مثلا يحتذى في نظام البناء وطريقة التدريس صورة الجهاز العلمى • كما كانت مكتبات تلك المدارس مراكز لالتقاء العلماء والادباء وامكنة للبحث والتأليف ، كل ذلك بلاشك ساعد على تطوير العلوم والاداب وعمل على ازدهارها خدمة للعلم والثقافة الانسانية •

وهكذا سارت جنبا الى جنب المساجد والكتاتيب ومجالس العلم الخاصة ودور العلم والمدارس التى انشأها الخلفاء والامراء والخاصة ، وصارت

الكتاتيب مثلا تمد المدارس بالطلبة كما اخذ طلبة النظامية او المستنصرية ارتياد مجالس العلم والمساجد للمشاركة في البحث والمناقشة التى تدور في تلك الامكنة ، ونلاحظ ان المدارس لم تقتصر مواضيعها على العلوم الدينية الصرفة بل صارت العلوم العقلية والطبيعية والرياضية تدرس فيها ، كما شمل المدارس نظام يحدد مواعيد الدروس وحياة الطلبة في المدرسة وتوحيد لباسهم ومنحهم الرواتب العينية والنقدية ، وهذا بلاشك عمل على ربط الطلبة وتوثيق صلاتهم بالمدرسة الاسلامية .

واصبحت المدارس الاسلامية والشهيرة منها بخاصة كالنظامية والمستنصرية امكنة يفد اليها الطلبة من انحاء العالم الاسلامى وهذا بلاشك ادى الى نشر التقاليد والانظمة والثقافة السائدة في المدارس العراقية بعامة والبغدادية بخاصة في بلدان العالم الاسلامى ، كما صارت تلك المدارس تمد جميع المدن الاسلامية بطبقة مثقفة بثقافة متطورة كانت عاملا مهما في تطوير الحياة الثقافية وازدهارها ، فتجددت الافكار وتنوعت الاراء في طريقة البحث والتأليف كما تنوعت المواضيع واصبح الناس يغرفون من مكتبات المساجد والمدارس ودور العلم ما يرغبون من مواضيع ادبية وعلمية .

ان نكبة بغداد في هجوم المغول عليها وانتشار الفوضى في الاقطار الاسلامية ادى الى ضياع الكثير من التراث العلمى الاسلامى كما ادى الى تقلص المدارس العلمية وكان هذا من مظاهر ركود حركة التطور الثقافي بعد عام ٦٥٦هـ ١٢٥٨م أى بعد سقوط مدينة بغداد وتحكم المغول في العراق .

التنافس بين بريطانيا وفرنسا في البحر المتوسط
بعد شق قناة السويس

د • محمد محمود السروجي

استاذ التاريخ الحديث والمعاصر
بكلية الاداب ـ جامعة الاسكندرية

أثارت حملة نابليون بونابرت على مصر في أواخر القرن الثامن عشر ، واوائل القرن التاسع عشر اهتمام بريطانيا بما لهذه البلاد من اهمية خاصة بالنسبة للمصالح البريطانية في شرق البحر المتوسط ، لاسيما وان نابليون اثناء اقامته بمصر ، حاول اثارة القوى المحلية بالمشرق العربى ضد بريطانيا •

ولهذا فقد صممت بريطانيا بعد اخراج الفرنسيين من مصر على عدم السماح بوقوع مصر في يد اية دولة اجنبية قوية او قيام حكم محلى قوى يستطيع الحاق الضرر بالمصالح البريطانية في تلك المنطقة • ولقد نجحت في هذا ايما نجاح فمنعت كل الدول من الاقتراب من مصر ، كما قضت على قوة محمد علي عندما تمكن من اقامة نظام حكم قوى مستقر في مصر لا يتفق والمصالح الانجليزية •

ونظرا لان بريطانيا كانت تدرك بان لفرنسا ذكريات قديمة لايمكن ان تنساها في البحر المتوسط ، ترجع الى ايام الحروب الصليبية ، ثم حصولها على معاهدة الامتيازات الشهيرة من الدولة العثمانية في عام ١٥٣٥ ، فقد راقبت تحركات فرنسا في هذا البحر بكل يقظة وحذر ، فلم يهنأ لها بال حينما انزلت فرنسا بقواتها في الشام في عام ١٨٦٠ اثر المذابح التى قامت في تلك البلاد بحجة حماية ارواح المسيحيين حتى سحبت فرنسا قواتها منها •

كما أنها عارضت ضم جزيرة كريت لمصر عقب ثورتها في عام ١٨٦٦

خشية ان يمتد نفوذ فرنسا اليها ، نظرا للتقارب الواضح بين مصر وفرنسا في ذلك الوقت(١) •

ولما كانت بريطانيا حريصة على الا يتفوق نفوذ دولة على نفوذها في الدولة العثمانية(٢)، فقد انتهجت سياسة تقوم على مصادقة تلك الدولة وعدم تقسيم ممتلكاتها بين الدول الاوربية الطامعة •

فسياسة المحافظة على ممتلكات الدولة العثمانية طوال الثلاثة الارباع الاولى للقرن التاسع عشر تمثل حجر الزاوية في سياسة بريطانيا الخارجية ازاء تلك الدولة • فمنع الروس من السيطرة على المضايق والوصول الى مياه البحر المتوسط الدفيئة تمثل الاستراتيجية البريطانية قبل شق قناة السويس(٣) •

بل ان آسيا الصغرى ــ وليست مصر ــ كانت تعتبر في نظر ساسة بريطانيا هي خط الدفاع الاول عن الطريق المؤدية الى الهند • ولذا فهم يرون ان احتلالهم لمصر اذا ما قسمت ممتلكات الدولة العثمانية ــ لايعادل احتلال الاستانة وسيطرة الروس على المضايق ، بل لاقيمة له(٤) •

وعندما نشبت حرب القرم في منتصف القرن الماضي ، ادرك الانجليز ــ رغم كونها حربا برية ــ اهمية القوة البحرية وقتذاك • اذ لولاها لما استطاعت بريطانيا نجدة الدولة العثمانية ، ولا المحافظة على ممتلكاتها •

واذا كان تفوق البحرية البريطانية على البحرية الفرنسية قد بدا واضحا خلال الحملة الفرنسية على مصر ، فأنه قد تعرض للاهتزاز بعد ذلك ، فمنذ تسوية فينا عام ١٨١٥ اصيبت البحرية البريطانية بشيء من الاهمال ،

---

(١) السروجي : مصر والمسألة الشرقية ص ٣١ ، ١١٨ •

(2) Marlowe, Cromer in Egypt p. 8.

(٣) رتنوفان : تاريخ العلاقات الدولية ص ٣٣٢ •

(4) Seaton - Daison ; Disraeli, Gladston and the Eastern

نتيجة لشعور بريطانيا بنشوة النصر على فرنسا من جهة ، ولاطمئنانها على مركزها البحري من جهة اخرى ، ولاعتقادها بتضعضع قوة منافستها فرنسا من ناحية ثالثة •

استمر هذا الاهمال مايزيد عن الاربعين عاما ، الى ان تنبهت بريطانيا الى خطورة هذا الوضع في عام ١٨٥٩ عندما وجدت فرنسا في عهد نابليون الثالث تنشىء اسطولا جديدا من السفن الحربية المصنوعة من الحديد •

ولذا فقد عملت بريطانيا فيما بين عام ١٨٥٩ وعام افتتاح القناة ١٨٦٩ على اعادة انشاء بحريتها من جديد لمواجهة التهديد الخطير من قبل فرنسا •

كان هذا هو موقف الدولتين البحريتين بريطانيا وفرنسا قبل شق قناة السويس ، وهو موقف اتسم بالمنافسة بينهما ، نظرا لمحاولة كل منهما الاحتفاظ بقوة بحرية كبيرة في البحر المتوسط ، وستزداد تلك المنافسة بعد انشاء القناة ، لازدياد اهمية الدور الذى يلعبه هذا البحر في مجالي السياسة والاقتصاد •

وقد صاحب انشاء القناة في النصف الثاني للقرن التاسع عشر تطور هائل في بناء السفن الحربية من حيث استخدام الحديد والصلب بدلاً من الخشب ، ومن حيث تزويدها بمدافع اكثر قوة ، وابعد مدى ، ومن حيث الخطط والتكتيكات الحربية •

هذا بالاضافة الى ظهور انواع جديدة من السفن الحربية ، مثل قوارب الطوربيد • بحيث يمكننا القول بأنه قد حدثت ثورة في فن بناء السفن ، جعلت من الاساطيل الحربية قوة خطيرة في الدفاع والهجوم •

ومن العوامل التى ساعدت على زيادة الاهتمام بالشئون البحرية انتماء كثيرين من رجال البحرية والجيش والسياسة الى المؤسسات الصناعية المتعلقة بصناعة السفن ، كصناعات الحديد والصلب ، واسهامهم في ادارة تلك المؤسسات • ويبدو هذا واضحا بصفة خاصة في بريطانيا • اذ نجد

في السنوات الاخيرة للقرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين عددا من رجاة البحرية يسهمون في شركة فيكرز **Vickers** وعددا آخر من رجال السياسة مثل سولسبرى ، وبرايس ، ودفنشر ، ولانزدون يسهمون في شركة ارمسترنج اكبر شركات صنع الاسلحة •

وليس تطوير السلاح البحرى الانجليزى بما يتلائم مع طبيعة العصر ، وتقدم الاختراعات الحديثة ، من المسائل الدفاعية فحسب ، بل هو ــ على حد تعبير فيشر اكبر رجال البحرية الانجليزية في اواخر القرن التاسع واوائل القرن العشرين ــ مسألة حياة او موت بالنسبة لبريطانيا ، فهى كدولة تعتمد في حياتها وقوتها على التجارة ، ويمكن ان تموت جوعا ، اذا ما استطاعت دولة اوربية ان تنتزع منها السيادة البحرية • ومن ثم نشأ الاعتقاد في بريطانيا بأنه بالاسطول تستطيع بريطانيا ان تبقى او ان تسقط •

By the navy we must stand or fall.

ومن هنا جاء الاهتمام بالبحرية في بريطانيا ، فالبحرية في نظر البريطانيين القوة المدافعة الاولى عن الامبراطورية ، ويأتى الجيش في المرتبة الثانية ، ولكن لاغنى لاحدهما عن الاخر •

وهم يقولون بأن البحرية كالدرع الواقى واما الجيش فكالرمح الضارب •

The navy is the shield to guard, the army is the spear to strike,

والاهتمام بالبحرية لا يتطلب بناء السفن الجديدة المتطورة ، وتدريب رجال البحرية التدريب اللائق فحسب ، وانما يتطلب ايضا اعداد القواعد البحرية ، واعتناق مبدأ حرية البحار ، وهذان الامران لا تستطيع بريطانيا البت فيهما دون الدخول في منافسات مع الدول الاخرى •

استمرت حركة بناء وتجديد الاسطول البريطانى تجرى بهمة ونشاط الى مجىء وزارة جلاد ستون الاولى الى الحكم • فنظرا لاعتناقها سياسة ضغط النفقات العامة ، وخاصة في البحرية ، ان انكمشت تلك الحركة بشكل لم يقبله الرأى العام الانجليزى •

ويرجع السبب ـ على الارجح ـ في عدم اهتمام الوزارة الانجليزية كثيرا بقوة الاسطول انه على الرغم من تفوق اسطول فرنسا على اسطول بروسيا من ناحية القوة ونجاحه في محاصرة الشواطىء الالمانية في الحرب البروسية الفرنسية ، الا ان تفوق الجيش البروسى على الجيش الفرنسى اكسب بروسيا الحرب ••

على ان السبب الرئيسى لذلك هو سياسة العزلة وعدم التوسع التى انتهجتها تلك الوزارة •

وترتب على ذلك انه في سنة ١٨٦٩ ، سنة افتتاح القناة ، لم يكن نفوذ بريطانيا في البحر المتوسط متفوقا تماما على نفوذ فرنسا ، فأسطول فرنسا في هذا البحر احدث ، وربما كان اقوى من الاسطول الانجليزى ، ويتمتع بقاعدة طولون(٥) البحرية التى لايوجد لها نظير لدى بريطانيا في هذا البحر • فمالطة وجبل طارق لم تكن بحرية بمعنى الكلمة ، وان كانت بريطانيا قد ادركت خطورة موقع جزيرة مالطة بعد فتح قناة السويس ، فقامت بتوسيع مينائها لاستيعاب السفن المارة بالبحر المتوسط(٦) •

كذلك كان لدى فرنسا من الموانى الكثيرة العدد في الجزائر ما يجعل اسمها محترما في شاطىء البحر المتوسط الجنوبى ، واصبح لاسمها دوى كبير في العالم بعد افتتاح قناة السويس • فالقناة مشروع قومى فرنسى وستكون نقطة ارتكاز للنفوذ الفرنسى في شرق هذا البحر •

---

(5) Marder ; British .... p. 145.

(6) Laferla. British Malta vol. 1, p. 240.

ولكن كان يحد من نفوذ فرنسا نمو قوة المانيا الحربية على الضفة الشرقية لنهر الراين وازدياد قلق فرنسا واضطرابها من اندحار قوات النمسا في موقعة سادوفا في سنة ١٨٦٦ امام قوات بروسيا ، ووقوف الروسيا موقف العطف على الآمال الالمانية • كل ذلك لم يجعل فرنسا في مركز يسمح لها بتحدى قوة بريطانيا في البحر المتوسط او اثارة شكوكها في ذلك الوقت • فبريطانيا حتى سنة ١٨٧٨ كانت مطمئنة على قوتها البحرية في هذا البحر ، خصوصا وان منافسة فرنسا لها قد ضعفت بعد كارثة سيدان سنة ١٨٧٠ • هذا فضلا عن اشغال فرنسا في اعادة بناء جيشها ، وقد استمر هذا العمل حتى سنة ١٨٨٠ •

توطد نفوذ بريطانيا في البحر المتوسط(٧) بعامة ، وفي شرقيه بخاصة بعد نجاح دزريلى في شراء اسهم الخديو اسماعيل في قناة السويس في سنة ١٨٧٥ وحرمان فرنسا منها • ولقد ادركت الدول الاوروبية عظم الصفقة ، فاعتبرها ليوبولد ملك بلجيكا كاعظم حادث في السياسة الحديثة ، كما انها قد اثلجت صدر المستشار الالماني بسمرك لانها اضافت اذلالا جديدا لفرنسا نتج عن اذلال سيدان • وادرك دزريلى نفسه اهمية هذا العمل الذى قام لتدعيم المصالح البريطانية في مصر فكتب يقول للملكة فيكتوريا « ان الفرنسيين غلبوا على امرهم ، ولقد قدم دى لسبس عرضا للخديو ، ولو نجح لاصبحت القناة ملكا لفرنسا ، ولاغلقتها امام انجلترا»•

بل ان هذه الصفقة قد نالت اعجاب المعارضين للحكومة الانجليزية ، من امثال هارنجتن وهو من زعماء حزب الاحرار ، وعبر عن اعجابه هذا بقوله بأن حقوق سيادة الخديو على القناة قد انتقلت الى يد بريطانيا •

---

(7) Hallberg; The Suez Canal, Its history and diplomatic impoıtance p. 249.

اثبتت هذه الصفقة ـ بما لايدع مجالا للشك ـ ان بريطانيا قد هجرت نهائيا سياسة العزلة والسلبية التى انتهجها جلادستون في وزارته الاولى السابقة على وزارة دزريلى ، واصبحت تؤمن بضرورة اتباع سياسة خارجية قوية ، ستؤدى في السنوات التى اعقبت سنة ١٨٧٨ الى احتلال مصر ، والتصميم على البقاء فيها ، وتقسيم افريقية ، والاشراف على مناطق كبيرة في آسيا .

لقد عرفت فرنسا بعظم الخسارة لضياع تلك الاسهم ، ولانتقالها الى يد منافستها بريطانيا ، وادركت المغزى الحقيقى من وراء استحواذ بريطانيا على هذه الأسهم ، وهو لايخرج عن احد امرين : التمهيد لاحتلال مصر ، او على الاقل التدخل في شئونها المالية لا سيما وان الامر الأول ينال تأييد وموافقة المستشار الالمانى بسمرك .

اما بالنسبة لاثر هذه الصفقة على مصر ، فمما لاشك فيه انها كانت وبالا عليها ، فرغم ان القناة مصرية ، وتسير في ارض مصرية ، وانها قامت على تسخير العمال والفلاحين المصريين ، وهدار حقوقهم ، وحرمان الزراعة المصرية منهم مدة طويلة ، كل هذا في مقابل لاشىء ، بل لقد اصبحت القناة منذ سنة ١٨٧٥ كارثة عليها ، وعلى مستقبلها قرابة خمسة وسبعين عاما .

لقد جعلت القناة لمصر مركزا استراتيجيا خاصا(٨) في الشرق الادنى ، فجبل طارق ومالطة وقبرص ومصر هى القواعد البحرية الحصينة للاسطول البريطانى في البحر المتوسط من اجل السيادة والسيطرة على هذا البحر ، وتعتبر مصر اهم حلقة فى هذه السلسلة من القواعد ، ومصدر خطر شديد على الامبراطورية البريطانية اذا ما تعرضت لغزو خارجى .

---

(8) Silva, A. Arthur, The expansion of Egypt pp. 101-2.

كما ان هذا المركز الاستراتيجي لمصر اثار اهتمام الدول الامبرياليـة به الى حـد ان ضحت هذه الدول بمصالح مصر ونموها واستقلالها فى سبيل الاشراف عليه والتحكم فيه • وهذا الاهتمام من جانب بريطانيا والدول الاخرى بمركز مصر يشبه الى حـد ما اهتمام بريطانيا بالعراق لوقوعـه على رأس الخليج العربى وعلى الطريق المؤدية الى الهنـد وكانت توليه بريطانيا حتى سنة ١٨٨٠ اهمية اعظم من اهمية قناة السويس ، لان ديزريلى حتى ذلك التاريخ كان يرى ان اسـيا الصغرى هى التى تشرف على الطريق الى الهند لا مصر ، ولا قناة السويس ، ومن هنا جاءت اهميه العراق بالنسبة لبريطانيا •

وترتب على عـدم ادراك ديزريلى لعظم اهمية القناة في المواصلات العالمية حتى سـنه ١٨٨٠ ، انه لم يوجـه اهتماما كبيرا لعروض المستشـار الالمانى بسمرك خلال الازمة الروسية التركية بأخذ مصر ، نظير سـيطرة الروس على شرقى البلقـان •

كما ان ديزريلى وزملاؤه الوزراء لم يصغوا لنوبار باشا حين ذهـب الى لنـدن يطلب بسط حماية بريطانية على مصر ، واهملوه الى حد قوله لمنستر سفير المانيا في لندن « بان الاسـد البريطانى مستغرق في نومـه ، وان اظفاره ستسرق منه دون ان يستيقظ » •

ورغم ان حكومة المحافظين في بريطانيا كانت تدرك اهميـة مصـر لبريطانيا ، وبأنها سـتحتلها في يوم ما قرب ام بعـد ، الا انها خشـيت في ذلك الوقت ان تفقد صداقة فرنسـا اذا ما اقدمت على احتلالها ، لاسيما وانها كانت في عزلة سياسية تحتم عليها المحافظة على هذه الصداقة •

وبمجيء سولسبرى الى وزارة الخارجية الانجليزية خلفا لدربى في وزارة المحافظين ان بدأ تغير جوهرى في السياسة الخارجية الانجليزية بأزاء الدولة العثمانية ، فقد غادر نهائيا السياسة التقليدية الرامية الى المحـافظة على كيـان تلك الدولة ، واتجه الى الاخـذ بوجهة نظر بسمرك • ولكنـه

استعاض عن احتلال مصر وقناة السويس بأحتلال جزيرة قبرص التى تشرف على آسيا الصغرى ومدخل القناة معا(٩) •

ولا يهمنا هنا الدخول في تفاصيل المسألة الشرقيه ، واضطراب العلاقات بين تركيا وروسيا الى حد اعلان الحرب ، الا بقدر ما تثيره من تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية ، وهل سيتم هذا دون حرب ام بحرب ، وهل ستدخل بريطانيا الحرب ضد روسيا دفاعا عن مصالحها في منطقة الشرق الادنى ••

على اى حال حاولت بريطانيا في التسوية التى تمت في برلين سنة ١٨٧٨ الا تمس الموقف كثيرا في البحر المتوسط ، ووقفت بريطانيا وفرنسا امام تقدم الروسيا الى هذا البحر ، ولكن كان هذا على حساب ازدياد ضعف الدولة العثمانية •

وخارج قاعات المجلس اثناء انعقاد مؤتمر برلين تمت مقابلات بين سولسبرى وزير خارجية بريطانيا ، ووادنجتون وزير خارجية فرنسا ، والمستشار الالمانى بسمرك • وكان وادنجتون قد غضب حين علم بنبأ الاتفاقية التى فرضتها بريطانيا على السلطان العثمانى وانتزاعها جزيرة قبرص، وسيطرتها بالتالى على شرق البحر المتوسط وقناة السويس • وقد استبد بالوزير الفرنسى الغضب الى حد اعتزامه مغادرة برلين وعدم الاشتراك في المؤتمر •

كان بسمرك وسولسبرى على استعداد لاسترضاء وزير الخارجية الفرنسية ، وعلى استعداد ايضا للمساومة طالما كان في ذلك تحقيق وجهة النظر الالمانية في تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية والتى كانت تجد تأييدا من وزير الخارجية الانجليزى وقتذاك • فأبديا عدم اعتراضهما على مايفعله

---

(9) Stamp, Dudley, A commercial geography, pp, 245-6.

الفرنسيون بتونس في مقابل قبول الوضع الجديد في شرق البحر المتوسط. وكان هـذا كافيا من وجهة نظر الوزير الفرنسى لاعادة التوازن الذى اختل بسيطرة البريطانيين على قبرص • وهذا يدلنا على مدى اهتمام فرنسا بمركزها في هذا البحر(١٠) • ولذا في ربيع سنة ١٨٨١ فرض الفرنسيون حمايتهم بالقوة على تونس ، واصبحوا من هذا الموقع الاستراتيجى الجديد يشطرون البحر المتوسط الى شطرين • ولادراك بريطانيا لهذه الحقيقة بعد فوات الاوان حاولت ان تقلل من خطر الوجود الفرنسى في تونس على المصالح البريطانية في هذا البحر الى حد ما ، وذلك عن طريق اخذ وعد من الفرنسيين بالا ينشئوا قاعدة حربية بحرية في هـذا المكان • ومع ذلك فقد شعرت بأن هذا الوعد لن يكون له قيمة كبيرة ، ومن ثم فقد صممت على ألا تقع مصر ألا في يدها وحدها تعويضا لها عن صفقة تونس •

حقيقة حين تأزمت الامور في مصر فى سنة ١٨٨٢ طلبت بريطانيا من فرنسا وايطاليا الاشتراك معها في احتلال قناة السويس ، وفي اخماد الثورة ولكن جلادستون رئيس الوزارة البريطانية كان واثقا تماما من تقاعس الدولتين ، فالبرلمان الفرنسى لن يسمح لحكومته بأن تدخل في مغامرة عسكرية ولم يمر اكثر من عام على احتلالها تونس • أما من ناحية ايطاليا فأن حكومتها ما كانت تستطيع التحرك دون ان تتلقى اشارة من برلين ، ولم تكن برلين راغبة في التدخل ، فعروض جلادستون اذن كانت عروض مجاملة •

وحين استدعى تحرج الامور في مصر اجتماع مؤتمر الاستانة لمناقشة الموقف ، رأت بريطانيا الا يصبح المؤتمر عائقا دون تحقيق ماتسعى اليه ألا وهو احتلال مصر ، فاشتركت في جلساته ومناقشاته ولكنها قررت عدم

---

(10) Renouvin, P., La politique d' expansion imperialiste, p. 11.

التقيد بما يسفر عنها من قرارات لا تتفق مع المصالح الانجليزية . فاهتمامها كان مركزا على مصر فى المقام الاول . فراقبت تحركات المصريين واعتبرت تحصين بلادهم عملا عدائيا موجها للسفن الحربية الانجليزية الراسية في الميناء ، وضربت الاسكندرية واحتلتها . وقد حاولت بريطانيا ان تصور هذا العمل على انه خدمة للمصالح الاوربية ، فحينما وجد سفير بريطانيا في روما اغسطس باجت شيئا من الضيق والقلق يجتاح ايطاليا اعلن « بأنه يجب على دول اوربا ان تشكر هذه الظروف ، وان تحمد الحكومة الانجليزية على اتخاذ خطوات من شأنها رفعة مركز اوربا في الشرق الادنى » .

كان حل المسألة المصرية كما فهمته بريطانيا هو في احتلال قناة السويس، واتخاذها قاعدة لتحركاتها العسكرية في زحفها نحو العاصمة . ولم تعر بريطانيا احتجاجات شركة القناة ادنى اهتمام ، بل وانذرت الحكومة الفرنسية حينما وجدت بعض العراقيل من جانب دى لسبس .

وبنجاح الغزو البريطانى لمصر استطاعت بريطانيا ان تعيد التوازن الدولى في البحر المتوسط وكذلك الاشراف على قناة السويس . وحتى عام ١٨٨٤ كان النفوذ البريطانى متفوقا في البحر المتوسط ، ولكن كان يثير قلق بريطانيا نمو الاسطول الفرنسى بسرعة كبيرة . هذا فضلا عن احتمال انضمام دولة بحرية اخرى مثل المانيا الى جانب فرنسا . ولو تم ذلك لاصبح موقف بريطانيا جد خطير ، لان قوة الدولتين البحرية تفوق قوة بريطانيا في هذا البحر .

لم تنظر بريطانيا بعين الارتياح الى نمو قوة دول اوربا البحرية مثل الروسيا وايطاليا والمانيا ، وخصوصا الدولة الاخيرة التى اتخذت من تقوية بحريتها سياسة مقررة بعد ان عزمت على الدخول في مضمار الاستعمار . فهذه الدول مجتمعة تستطيع ان تهدد مصالح بريطانيا في البحر المتوسط بعامة ، وفي مصر بخاصة . وهذا هو سر تسليم بريطانيا بمطالب المانيا

وفرنسا الاستعمارية ، وتسوية المسألة المالية في مصر بطريقة ترضى فرنسا ، بل الاستجابة لمطلب فرنسا بتحديد مركز قناة السويس في معاهدة دولية •

ونظرا لاستمرار توتر العلاقات بين بريطانيا وفرنسا بشأن مصر من ناحية ، وبين بريطانيا والمانيا بشأن المسائل الاستعمارية من ناحية اخرى ان زاد الخطر على بريطانيا ، وطالب الرأى العام البريطانى حكومته بضرورة زيادة الاعتمادات البحرية اللازمة لايجاد اسطول بحرى كبير • خصوصا وان تقارير رجال البحرية الانجليزية اوضحت بأن الاسطول البريطانى في البحر المتوسط غير مستعد وغير كاف لمواجهة اى خطر مفاجىء من جانب فرنسا • وزاد الموقف خطورة مطالبة الرأى العام الفرنسى حكومته بضرورة عقد تحالف مع روسيا •

وحتى سنة ١٨٨٨ ظل اسطول فرنسا في البحر المتوسط متفوقا على الاسطول الانجليزى ، واصبحت طولون اعظم ترسانة ، واقوى قاعدة للعمليات البحرية في هذا البحر • كما كان الاسطول الفرنسى على اهبة الاستعداد دائما للحرب •

ولم تكن قوة الاسطول الفرنسى تفزع بريطانيا وحدها ، بل كانت تخيف ايطاليا ايضا ، اذ كان الايطاليون يعتقدون بأن اسطولهم لن يستطيع الصمود امام الاسطول الفرنسى اكثر من ثمانية واربعين ساعة •

ولقد صاحب اهتمام الانجليز بتقوية بحريتهم زيادة اهتمامهم بالبحر المتوسط ، فمصالح بريطانيا ليست استراتيجية فحسب ، وانما اقتصادية وسياسيا كذلك ، فعبر قناة السويس تمر ١٦٪ من واردات بريطانيا و٢١٪ من صادراتها ، وفقدان هذه التجارة او تعطيلها خسارة كبيرة • ثم هناك مسألة على جانب عظيم من الاهمية، الا وهى سلامة المواصلات الامبراطورية البريطانية ، وممتلكات بريطانيا في البحر المتوسط ، في جبل طارق ومالطة ،

بالاضافة الى احتلالها لقبرص ومصر ، ومصالحها التى تدعيها في قناة السويس• وأصبح البحر المتوسط الطريق الرئيسية التجارية لبريطانيا ، وكلما مرت الايام تكشفت بريطانيا ازدياد اهميته ، فالحرب الصينية اليابانية (١٨٩٤ــ ١٨٩٥) وجهت الاهتمام الى الصين كأهم اسواق المستقبل ، وبالتالى توجه الاهتمام الى الطريق المؤدية اليها ، الا وهى طريق البحر المتوسط •

كذلك ادركت بريطانيا ان بالقوة البحرية في ذلك البحر تستطيع اقناع دول التحالف الثلاثي ، ولاسيما ايطاليا بالوقوف الى جانبها ، فبالقوة البحرية يمكن لبريطانيا ان تنال احترام الدول المطلة على البحر المتوسط ، بأستثناء فرنسا بطبيعة الحال • كما ان بريطانيا كانت ترى في قوة بحريتها في ذلك البحر خير ضمان لعدم قيام حرب اوربية في غير صالحها•

ومن الناحية الاستراتيجية ، فوجود الاسطول البريطانى يجب ان يكون حيث يوجد العدو لبريطانيا • وليس هناك عدو لها سوى فرنسا في الدرجة الاولى وروسيا في الدرجة الثانية • وحيث ان فرنسا تحتفظ بمعظم قواتها البحرية في البحر المتوسط ، فوجود اسطول بريطانى قوى فى مواجهتها امر ضرورى • كما ان نجاح بريطانيا في اقتحام البحر الاسود في حرب القرم يذكر روسيا دائما بقوة بريطانيا كدولة بحرية عظمى •

ثم هناك ماهو اسمى من المصالح الاقتصادية والسياسية ، الا وهى هيبة بريطانيا وسمعتها اللتين اكتسبتهما منذ مائتى عام ، لابد من المحافظة عليهما ، مهما كلفها ذلك من تضحيات • واعتبرت بريطانيا ان العمل على اضعاف قوتها البحرية او اخراجها من هذا البحر بمثابة « القاء عود ثقاب مشتعل في برميل بارود اوربا »(١١) •

وفي الجانب الاخر نرى نمو مركز فرنسا في البحر المتوسط يسير

---

(11) Marder, British naval policy (1880-1905) p. 145.

مطردا ، ففرنسا لها مصالح مهمة في هذا البحر بعد استيلائها على الجزائر ونمو نفوذها في سوريا وبعد فرض حمايتها على تونس ، وبعد انشائها لامبراطوريتها الاستعمارية الشرقية في مدغشقر والهند الصينية . بل ان روستان قنصل فرنسا في تونس كان يعتبر البحر المتوسط بحيرة فرنسية(١٢).

فمصالح فرنسا الامبراطورية الاستعمارية والتنازع مع بريطانيا بشأن الجلاء عن مصر ، وتأزم العلاقات بينها وبين ايطاليا ، كل هذه العوامل جعلت فرنسا تركز نشاطها حول تدعيم قوتها في البحر المتوسط ، وتركز معظم سفنها الحربية الكبرى في قاعدة طولون ، وخصوصا بعد ان اطمأنت الى تحديد مركز قناة السويس في معاهدة القسطنطينية عام ١٨٨٨ .

وفي مواجهة هذا الاجراء من جانب فرنسا قررت الادميرالية البريطانية ان ينضم اسطول القنال الانجليزى الى الاسطول الانجليزى في البحر المتوسط لتعزيزه وقت الخطر . ولكنهما مع ذلك لم تصل قوتهما حتى عام ١٨٩١ مساوية لقوة الاسطول الفرنسي في ميناء طولون .

ولما وجدت بريطانيا ألا قبل لها على مجاراة فرنسا في قوة بحريتها في هذا البحر ، تركت سياسة التفوق البحرى الى حين . ولم يكن ذلك لقصور مادى او فنى ، ولكن لعدم وجود قواعد بحرية كبيرة صالحة لرسو الاعداد الكبيرة من السفن مثل ما لدى فرنسا ، فجبل طارق ليس فيها المرفأ المناسب ، ولاتحتمل عتادا حربيا كبيرا ، ولا وقودا كافيا ،وهى فوق هذا وذاك مهددة في تأمينه الى حد كبير على صداقة اسبانيا لبريطانيا .

ولذا وجدت بريطانيا اخيرا ان من الخير لاسطولها الا يلتجىء لجبل طارق في حالة حرب مع فرنسا اذ يستطيع اسطول طولون المتفوق ان يكسر شوكته ، بل عليه ان يغادر البحر المتوسط طلبا للنجاة . ولكن تنفيذ

---

(12) Safwat, M., Tunis and the Crest Powers. P. 111.

هذا القرار محفوف بالمخاطر ، اذ انهروبه سيهبط بأسم بريطانيا ، ولايحفظ مالها من مركز كبير في العــالم .

ثم هناك مشــكلة بنزرت (بيزرته) وهو ميناء يشرف على جزئى البحر المتوسط : الشرقي والغربى ، ويتســع لاكثر من اسطول ، ويصلــح قاعدة هائلة للعمليات الحربية البحرية . ولكن فرنســا حتى سنة ١٨٩٠ لم يكن لها قاعدة بحرية واحدة في شــمال افريقية ، لانها قد التزمت حتى ذلك الوقت بالوعد الذى قطعته على نفسها لبريطانيا بعدم انشاء قاعدة بحريــة في هــذا الميناء الكبير ، لان انشــاء مثل تلك القاعدة سيقلب ميزان القوى البحرية في البحر المتوسط لصالح فرنسا ، وتهديد لايطاليا في نفس الوقت .

وخطورة اقامة تلك القاعدة في بنزرت كبيرة على المواصلات البريطانية والتجارة البريطانية عبر البحر المتوسط . وان كان البعض يرى في انشــاء تلك القاعدة تقسيم لقوى الاسطول الفرنسى بينهــا وبين طولون .

وفي منتصف عام ١٨٩٥ افتتحت قاعدة بنزرت ــ لاكقاعدة حربيــة كبيرة ــ ولكن كرد فعل من جانب فرنســا على افتتاح قناة كيل . وهنــا بدأت تتحقق مخاوف بريطانيا بأن وعد فرنســا لم يكن الا من قبيل التمويه. وازداد اضطراب بريطانيا عندما علمت بنبأ زيادة قوة الاسطول الروسى في البحر الاسود ، وما ينطوى عليــه هــذا العمل من تهــديد للاستانة ، وما سيلقيه هذا التهديد من اعباء جديــدة على الاســطول الانجليزى في البحر المتوسط . لاسيما وان احتمال اجتماع الاسطولين الفرنسى والروسى ضد الاسطول الانجليزى امر محتمل الوقوع ، بعد ان اصبح التحالف الفرنسى الروسى حقيقة غير خافية على بريطانيا .

ولذلك كتبت صحيفة التميز اللندنية في سنة ١٨٩٣ تصف الموقف في البحر المتوسط تقول :

British supremacy in the Mediterranean was already an affair of the past; her t ade route to Egypt and India through the Suez - Canal was entirely indepenent on the good will of the French whose Mediterranean fleet could wipe out or drive into port the English Mediterranean fleet. Toulon suggested the possibility even the probabil'ty of a Franco-Russian naval coalition againsh England, a combination whose overwhelming superiority and strategic location could only result in a decisive British defeat.

طالب الرأى العام البريطاني بالحاح شديد بزيادة الاعتمادات المخصصة للبحرية لمواجهة هذا الموقف ، وقد وافق اعضاء وزارة جلادستون على ذلك ، الا جلادستون نفسه الذى انسحب من الوزارة ومن الحياة السياسية كلية.

لقد شغلت مسألة مرور السفن التجارية الانجليزية في البحر المتوسط في حالة حدوث حرب مع فرنسا اذهان الساسة الانجليز ، فوجود الجزائر، واوران ، وبنزرت ، ومراكز قوارب الطوربيد في يد فرنسا يجعل هذا الامر في غاية الخطورة . وخيل لهؤلاء الساسة ان الفرنسيين قد يتمكنون من اغلاق القناة . واذا ماتم ذلك فليس امام الانجليز الا ترك هذه الطريق كلية .

وقد زادت هموم الانجليزى في سنة ١٨٩٥ على وجه الخصوص ، فقد عانت من ازمات عديدة في اماكن مختلفة من العالم ، بعضها يتعلق بالدولة العثمانية ، وهذا ما يعنينا في هذا البحث ، والاخر يختص بفنزويلا وبأفريقية الجنوبية .

ففيما يتعلق بالدولة العثمانية ، فقد استطاع الروس السيطرة سيطرة تامة على البحر الاسود . ومدوا نشاطهم الى الشرق الاقصى حيث عقدوا مع الصين معاهدة تنازلت لهم بمقتضاها عن ميناء بورت آرثر لاتخاذه كقاعدة بحرية تشرف على مدخل بكين . وكان ذلك يمثل خطرا هائلا على المصالح البريطانية .

اما في جنوب افريقيا فكانت المانيا تعطف على مطالب البورز وتؤيد استقلالهم ، وفكرت هى وفرنسا وروسيا في التدخل لصالح البورز ضد بريطانيا • واما ايطاليا التى كانت بريطانيا تعتمد على صداقتها ــ رغم عدم ثقتها في كفاية رجال البحرية الايطالية ــ فان فشلها في موقعة عدوة امام الاحباش جعل الاعتماد عليها امرا غير محسوب •

ولذا كان على بريطانيا ــ امام كل تلك الصعاب ، ويأتى على رأسها عزلتها السياسية التى تكاد تكون تامة ــ ألا تعتمد الا على نفسها ، لا المحالفات • وقد نفذت هذه الفكرة الجديدة في برنامج سنة ١٨٩٧/٦ البحرى الذى سيعطى لبريطانيا مستوى أقوى قوتين بحريتين •

Two Powers-standard

كانت اعتمادات البحرية الانجليزية حاسمه في تقرير مصير البحر المتوسط ، فلقد فصلت في مصير مصر بعد ان تحرجت الأمور بين بريطانيا وفرنسا الى ان بلغت ذروتها في فاشودة •

كان اللقاء بين كتشنر ومارشيان في فاشودة في ١٩ سبتمبر سنة ١٨٩٨ نهاية المناقشة الحامية بين بريطانيا وفرنسا طوال ثلاثين عاما تقريبا ، وحين رفضت بريطانيا المفاوضة في أول الأمر ، وتحرجت الامور بين الدولتين وضعت الحكومة الفرنسية اسطول طولون على اهبة الاستعداد • وكان الرأى العام الانجليزى متحمسا للحرب ، لأنه كان موقنا بعد التعزيزات البريطانية الأخيرة ، من احراز نصر على فرنسا يضاهى نصرهم في الطرف الأغر ، ففى البحر المتوسط ، الميدان الحربى الاول ، لدى بريطانيا ٢٣٩ر٤٥٠ طن من حمولة السفن الحربية ، بينما لم يكن لدى الفرنسيين سوى ١٧٠ر٠٨٥ •

بدأت بريطانيا تركز أسطولها في المناطق الحساسة ، فراقبت حركات الاسطول الفرنسي ، وأرسلت اسطول القنال الانجليزى الى قرب جبل طارق ،

وأسطول البحر المتوسط الى جزيرة كورفو للمحافظـة على مصر والقنـاة ، وأسطول الشرق الأقصي الى هنج كنج •

ومما زاد من حرج مركز فرنسـا ، ومن أولا لهـا ان حليفتهـا روسـيا رفضت تقـديم اية مسـاعدة ، ولم تكن ــ في الواقـع ــ تستطيع تقـديم اية مسـاعدة ، فاسطول البحر البلطى جامد في موانيـه المتجمدة ، وأسطول البحر المتوسط لم يكن على أهبة الاستعداد للحرب • هـذا في نفس الوقت الذى لم يكن لروسيا مصلحة في ان تزج بنفسها في حرب مع بريطانيا من أجل مطامع استعمارية فرنسية •

وقـد عزمت بريطانيـا عـلى ضـرب موانى فرنسـا ، وعـلى اخراج الاسطول الفرنسي الى عرض البحر ليصـلى نار حـرب حاميـة ، وأدرك الفرنسيين خطورة موقفهم ، فاتخذوا موقف الدفاع دون الهجوم ، خصوصا وأن الحـالة الداخلية في فرنسـا كانت توشـك على الانفجار نتيجة القضية دريفوس •

اما من ناحيـة الحكومة البريطانية ، فكان عـدد من اعضـائها مثـل جوشن وتشمبرلين ودفنشر يرون انتهاز هـذه الفرصـة للتخلص نهائيـا من فرنسـا كمنـافس عنيد ، ولكن هـذا الفريق لم يجـد تأييـدا كافيـا ، خصوصـا بعـد ان اعلنت فرنسـا بانهـا ستنسحب من فاشودة • وبذلك تنتهى الأزمـة •

وفي ٢١ مارس سنة ١٨٩٩ تصـل الدولتان الى اتفـاق يتعلق بالسودان ، وفيـه اعترفت فرنسـا باتفاقيـة السودان المشهورة بين مصر وبريطانيـا • وكان الفاصـل في ازمة فاشودة ، بل وفي أمر العـلاقات الفرنسية الانجليزية في البحر المتوسط هو القوة البحرية ، وحق للانجليز ان يقولوا :

Whatever may have been the pressing consideration which prompted the French to maintain so humiliating a diplomatic defeat, there was no doubt in the minde of the English people that the obvious superiority of the royal navy, in numbers, efficiency and readiness had been the sole factor in saving the country from a great war.

بعد انتهاء الأزمة البريطانية الفرنسية ، حاولت فرنسا التحول نحو دول التحالف الثلاثي ، فعلا اخذت تتقرب من المانيا ، ولكن مسألة الالزاس واللورين كانت عائقا دون اقامة تفاهم بين الدولتين لمدة طويلة • كذلك حاولت فرنسا تحسين علاقاتها بايطاليا ، وحثت ايطاليا على زيادة قواتها البحريه حتى تستطيع الدولتان السيطرة على البحر المتوسط ، ولكن ايطاليا لم تكن مستعده بالتضحية بعلاقاتها الوديه ببريطانيا من اجل فرنسا •

كانت ازمة فاشودة درسا قاسيا وعته فرنسا بعمق ، وعرفت مدى اثر القوة البحرية ، وادركت في نفس الوقت انها لا تستطيع ان تجارى بريطانيا في حركة بناء السفن ، وخاصة الكبيرة منها ، وبالتالى ايقنت بأن المنافسة مع بريطانيا يجب ان تهدأ ، وان تنتهى الى غير رجعة • وبانتهاء الخطر الفرنسي على بريطانيا ومصر ، استقرت الأمور في البحر المتوسط الى حين •

وحل محل التنافس الفرنسي بالنسبه لبريطانيا التنافس الألمانى ، فاذا حدث واستطاعت المانيا التفاهم مع فرنسا لنال بريطانيا الخسران المبين وخاصة اذا مالت الروسيا الى مثل ذلك التفاهم • ولذا اسرعت بريطانيا في منطقة الشرق الأقصي • كما عملت في نفس الوقت على اصلاح ذات البين مع فرنسا كى تطمئن على سلامة مرور تجارتها امام الشاطىء الافريقى •

ورأت بريطانيا ان خير حل يمكن الوصول اليه لتسوية مشاكلها مع فرنسا ان تتنازل لها عن حقوق لا تملكها في مراكش في مقابل تنازل فرنسا

لها عن حقوق تملكها في مصر بمقتضي الاحتلال • وكانت فرنسا مستعدة لقبول مبدأ التعويض • وبالفعل قامت المفاوضات في لندن بين لورد لانزدون وزير الخارجية البريطانية وبين كامبون سفير فرنسا في انجلترا وكانت فرنسا مترددة في اول الأمر لادراكها بأن بريطانيا ستتنازل لها عن حقوق لا تملكها في مقابل حقوق تمتلكها امتلاكا حقيقيا • ولكنها ادركت اخيرا بأن حقوق فرنسافيمصر مهما كانت أحقيتها فيها فقد تلاشت وعفى عليها الزمن، وأن من الأفضل لها ان تتطلع الى اكتساب حقوق جديدة في بلاد أخرى على البحر المتوسط نفسه •

وطالت المفاوضات بسبب رفض الفرنسيين التسليم ببقاء الانجليز في مصر لأجل غير محدود ، وبتمسك الانجليز بأن تتنازل فرنسا عن مطالبة بريطانيا بالجلاء عن مصر • وحسم الموقف بتوقيع الاتفاق الودى بين الدولتين في ربيع سنة ١٩٠٤ ، وفيها تركت فرنسا لبريطانيا حرية التصرف في مصر ، وتركت بريطانيا لفرنسا حرية التصرف في مراكش •

وبهذه الاتفاقية اطمأنت بريطانيا الى مركزها في مصر ، والى تفوقها البحرى في البحر المتوسط ، وتقرر أن تكون الاسكندرية اهم قاعدة في البحر المتوسط للأسطول البريطانى •

وهنا يجدر بى ــ قبل ان اختتم هذا البحث ــ بأن اذكر ان هذه الاتفاقية وأن كانت قد وضعت حدا فاصلا للمعارضة الأوربية للاحتلال البريطانى لمصر ، الا انها لم تغير من مركز مصر السياسي ، ففرنسا لا تستطيع ان تعطى ما ليس حقا لها ، ثم ان بريطانيا نفسها وافقت على عدم تغيير مركز مصر ، فهى لم تضم مصر اليها ، بل لقد اعترفت بأن كل مالها في مصر هو حماية فعلية مستورة مؤقتة • ولكن الاتفاقية لم تلق اليأس في قلوب المصريين ، فلم يعترف المصريون بالموقف الجديد ، وازدادوا ايمانا بحقوقهم واستمساكا بقضيتهم وقضية الاستقلال •

مراجـــع البحث :

ـ العربيـــة :

بطرس بطرس غالى (دكتور) : قناة السويس ومشـــكلاتها (١٨٥٤ ـ ١٩٥٧) القـــاهرة ـ الجمعيـــة المصرية للقانون الدولي ١٩٥٨ •

راشـــد البراوى (دكتور) : مجموعة الوثائق السياسية ـ المركز الدولي لمصر والســـودان وقنـــاة الســـويس • القاهرة ـ مكتبة النهضة ـ الجزء الاول ١٩٥٢ •

رينوفـــان ، بييـــــر : تاريخ العلاقات الدولية ١٨١٥ ـ ١٩١٤ • ترجمة د • جـــلال يحيى ـ القـــاهرة ـ دار المعارف ـ ١٩٦٨ •

عبد العزيز الشناوى (دكتور) : قنـــاة السويس والتيـــارات السياسية الدولية التى احاطت بانشائها • القاهرة ـ معهد البحوث والدراســـات التاريخيـــة والجغرافية • الجزء الاول ١٩٧١ •

عبد الله رشوان (دكتور) : المركز الدولي لقنـــاة السويس ونظائرهـــا • القاهرة ـ مطبعة حجازى ١٩٥٠ •

محمد محمود السروجى (دكتور) : مصر والمســـألة الشرقية في النصف الثـــانى من القـــرن التاســـع عشر ـ الاسكندرية ١٩٦٦ •

محمد مصطفى صفوت (دكتور) : الاحتـــلال الانجليزى لمصـــر وموقف الـــدول الكبرى ازاءه ، الاســـكندرية ١٩٥٢ •

محمد مصطفى صفوت (دكتور) : انجلترا وقنـاة السـويس ١٨٥٤ ــ ١٩٥٦ ، الاسكندرية ١٩٥٦ .

محمد مصطفى صفوت (دكتور) : مؤتمر برلين ١٨٧٨ وأثره في البـلاد العربيـة ، معهد الدراسـات العربيـة العالية ، القاهرة ١٩٥٦ . ٨

الأجنبيـــة :

- Arthur, Silva White The expansion of Egypt under the Anglo-Egyptian condominium. London 1899.
- Hollberg, C.W.. The Suez Canal. Its history and diplomatic importance. N.Y. 1931.
- Hoskings, H.L., British routes to India. London 1928.
- Laferla, A.V., British Malta. Vol. 1 Malta, 1936.
- Marder, A.J., British Naval Policy (1880-1905) U.S.A. 1940.
- Marlowe, J., Anglo-Egyptian relations (1880-1953) London 1954.
- Renovin. Pierre. La Politique depension imperialiste. Paris. 1939.
- Safwat, M.M., Tunis and great Powers (1878-1881). Alex 1943.
- Seaton-Watson, Disraeli, Gladston and the Eastern Question, Londno, 1935.
- Stamp, Dudly. A commercial geography. London, 1937.

الوجه النصراني للحضارة العربية

بقلم
الدكتور الاب رشيد حداد
الجامعة اللبنانية ـ بيروت

لكل حضارة وجهها الخاص ، وسماتها الفريدة ، كما لكل ملامحة الفارقة وحضارة الشعوب الحية في تطور دائم كوجه الانسان الحي ، لا ينفك يتبدل رويدا رويدا ما دام حيا ، لا وجه له ثابت الا متى اطبق عليه الموت ، فتتحجر حينئذ الملامح كما تتحجر في صخر التمثال أو في خطوط الصورة • فصورة الانسان مثلا لا تبرز الا خطوطه المتجلية في برهة معينة ، وهي ، بذلك ، كأنها تعزله عن الزمن ، وبالتالي عن الحياة المتطورة • هكذا الانسان الذى ينكب على درس وتحليل حضارة معينة فان اخطر مجازفة يركبها هي ان يعزلها عن سنة التطور والحياة ، وبالنتيجة فانه لا يمسك بيده الا حضارة ميتة قد تحجرت • فالحياة في دراسة حضارة الشعوب الحية تتبخر تحت الكلمة ولا يشعر بها الا من اندمج حياتيا بتلك الحضارة • فوصف الحضارات لا يتناول حتما الا قشورها ، ولا يلم بروحها الا من عاشها من الداخل(١) •

وحضارتنا العربية اخذت في تاريخها المديد ، وجوها عدة برزت من خلالها على العالم وقد رمقها كل ناظر من وجهة خاصة وشغف بمظهر واحد وتخيلها كما بانت لعينيه وغاب عن باله ان هذا الوجه لا يقدم له الا عنصرا فردا من عناصر الحضارة العربية المختلفة ، وأن الألمام

(١) هرسكوفتش : اسس الانتروبولوجيا الثقافية (بالفرنسية) ، باريس ١٩٦٧ •

بالعناصر الأخرى يقتضي ان يزيح ولو برهة عن وجهة نظره هذه • كرائد المتحف يتطلع الى جوهرة كريمة داخل خزانة زجاجية يدور حولها ليكحل عينيه بكل قسماتها ، فلا تفوته منها نظرة • اما اذا بقي مكانه لن يرى الا جزءا منها يسيرا ، رغم كونه وجها صحيحا لها • فهلم بنا تتنقل من الامكنة التى اعتدنا الوقوف فيها الى أمكنة أخرى ، فعسى ان الدوران حول جوهرة حضارتنا العربية يسمح لنا بالتطلع اليها من كل جهاتها لندرك مدى أبعادها ونعي سعة غناها •

الحضارة مواد وبناء هي اولا معطيات حضارية ترثها الشعوب عما سلفها فتبني بها صرحها الحضاري • فتاريخ كل حضارة يشمل اجمالا نشأة الحضارة ثم اكتمالها فانحطاطها • هذا الشعب الناهض يأخذ ، بالمرحلة الاولى التركة الحضارية لشعب تقدمه ثم يطبعها بطابعه الخاص ويثميها بما يبتكر وفقا لنفسيته الخاصة • وبعد ان يكملها يعيش فيها ويحييها • وكما الناس هكذا الحضارات تدخل طور الشيخوخة والانحلال ، حتى يتاح لها من ينفخ فيها روحا جديدة فيها من الجديد ما ينسجم مع تجددات الانسان الحي المتطور ، وفيها من القديم ما يجسم روح تلك الحضارة التي ابدعتها نفسية الشعب الاصيلة • هذه هي المراحل الاساسية التي تمر بها الحضارة • ففي نشأتها تأخذ عما سبقها وترتبط به • لا ضير على حضارة اذا ارتبطت بالتراث البشرى العام ، فالانسان يستفيد بما انتجته العصور الغابرة • تعالوا نستقصي ما أخذ العرب عن الشعوب السالفة ونرى كيف تمت عملية الصهر والابتكار • ولكي تبقى هذه الصورة قريبة من الواقع تتطلع الى الحضارة العربية

كما تبدو لاعيننا في القرن الرابع الهجرى أي العاشر الميلادى(٢)٠

للشعب العربي ميزة استيعاب نادرة ومحبة استطلاع فريدة ٠ فهو لم يترك فنا الا زاوله ولم يلتق بآدب الا وتطرق اليه ٠ فقد أخذ عن الشعوب السالفة أرفع ما أبدعت وما كان يتلاءم وروحه العربية وحاجاته الأجتماعية ٠ وبعد ان صهرها في بوتقة نفسه العربية اخرجها الى العالم حضارة أصيلة تعبر اجلى تعبير عما يخالج روحه من النزعات الشرقية السامية(٣) ٠

حكى لنا المؤلفون العرب كأبن أبي اصيبعة(٤) والقفطي(٥) وأبن النديم(٦) والبيهقي(٧) وغيرهم(٨) قصة اطلاع العرب على الأدب الهندى والفارسي وشيئا من اقتباساتهم للادب اليوناني والسرياني ٠ كما ان ابن جبل(٩) يذكر بعض المؤلفات التي ترجمت عن اللاتينية الى العربية في الاندلس في القرن الرابع الهجرى الذى عاش فيه المؤلف ٠ اننا لن تتوقف عند ما حمله الينا

---

(٢) آدم متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري نقله الى العربية محمد عبد الهادي او ريدة) بجزئين ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٥٧
رفائيل بابو اسحق : احوال نصارى بغداد في عهد الخلافة العباسية ، بغداد ١٩٦٠
حبيب الزيات : الروم الملكيون في الاسلام ، حريصا لبنان ، ١٩٥٣ ٠

(٣) راجع ما كتبه في هذا الصدد موريس لومبار : الاسلام في اول مجده (بالفرنسية) ، باريس ١٩٧١ ، ص ١٢ ــ ١٣ ــ صلاح الدين خودا بخش :
حضارة الاسلام (ترجمة وتعليق الدكتور علي حسني الخربوطلي) ٠
بيروت ١٩٧١ ، ص ١٧٥ ــ ١٨١ ٠
حضارة الاسلام (ترجمة وتعليق الدكتور علي حسني الخربوطلي)

(٤) عيون الانباء في طبقات الاطباء (طبعة موللر الالماني تحت لقب امرىء القيس بن طحان) القاهر ١٨٨٢ ٠

(٥) اخبار العلماء باخبار الحكماء (طبعة الخانجي) القاهرة ١٢٢٦ ٠

(٦) الفهرست ، القاهرة ١٣٤٨ هـ ٠

(٧) تاريخ حكماء الاسلام ، دمشق ١٩٤٦ ٠

(٨) عبد الرحمن بدوى : التراث اليوناني في الحضارة العربية ، القاهرة ١٩٤٦ ٠

(٩) طبقات الاطباء والحكماء (نشره فؤاد السيد) القاهرة ١٩٥٥ ٠

هؤلاء المؤلفون العرب اذ لايجهله احد • بل نريد ، في هذه العجالة ، ان ننوه ببعض الكتب النصرانية المعربة عن اليونانية والسريانية والقبطية التي عثرنا عليها في ابحاثنا ، مما لم يذكره من تقدمنا أو لم يعبأ به لخروجه عن نطاق اشغاله • ثم نورد اسماء الكتاب النصارى الذين ساهموا بأقلامهم بأقامة الصرح الحضاري العربي وهو وليد الجامع والكنيسة معا •

في التراث اليوناني أنصب أهتمام النصارى على تعريب الفكر اللاهوتي للآباء(١٠) ما عدا انشغالهم بترجمة الكتب الفلسفية والطبية •

اقدم كاتب تعرض له المترجمون هو اكليمنضوس ، تلميذ بطرس أول الحواريين وبابا رومية • له رسالتان نقلتا الى العربية(١١) ، وينسب له ايضا كتاب الاسرار وهو محفوظ في مخطوط في طورسينا يرتقي الى القرن التاسع أو العاشر الميلادى وقد نشرته السيدة جبسون(١٢) • ويعرف لاغناطيوس الانطاكي (+ ١١٧ ؟) عدة رسائل(١٣) شاعت بنصها العربي قبل القرن العاشر ، اذ ان ساويروس أبن المقفع القبطي مطران الاشمونين في مصر يذكرها ويستشهد بها(١٤) •

---

(١٠) يعتبر النصارى « آباء » للكنيسة الموءلفين الذين ظهروا في العصور الاولى المسيحية وكانت كتاباتهم مقبولة عند كل الفرق النصرانية •

(١١) مصباح الظلمة في ايضاح الخدمة ، لشمس الرئاسة ابي البركات ابن كبر القبطي (نشره سمير خليل قسيم) القاهرة ١٩٧١ •

(١٢) الدراسات السينائية ، ج ٥ ، لندن ١٨٩٦ ، ص ١٤ ــ ٣٠ •

(١٣) راجع مقال باسيل : « مصدر عربي قديم لرسائل اغناطيوس الانطاكي) بالفرنسية) في مجلة « كلمة الشرق » (ملتسو) : ٤ (١٩٦٨) ، ص ١٠٧ ــ ١٩١ و ٥(١٩٦٩) ، ص ٢٦٩ ــ ٢٨٧ •

(١٤) تاريخ المجامع ، نشره مع ترجمة فرنسية بطرس في سلسلة الاباء الشرقيين ، باريس ، ج ٣ (٥ ــ ١٩) ، ص ١٢١ ــ ٢٣٢ • وردت مقاطع من رسالة اغناطيوس الانطاكي في ص ١٨٤ وما يتبع •

عرفف العرب ايضا بوليكربوس اسقف ازمير (+ ١١٥ ؟) من خلال رسالته حول المسيح • اما ايريناوس اسقف مدينة ليون في فرنسا ، وهو من النصف الثاني من القرن الثاني ، فان مؤلفاته قد ترجمت الى السريانية ومنها الى العربية والجزء الاكبر منها محفوظ في اربعة مخطوطات فاتيكانية ترتقي الى القرن الثالث عشر(١٥) • ولاكليمنضوس الاسكندرى (+ قبل ٢١٥) تفسير للاناجيل نقل الى العربية وما زالت بعض اثاره محفوظة في مخطوطات الفاتيكان(١٦) • ومن مؤلفات هيبوليطس انروماني (+ حوالي ٢٣٦) نقل الى العربية شرح التوراة ، وتفسير انجيل القديس متى وتفسير سفر الرؤيا(١٧) • اما غريغوريوس العجائبي (+ ٢٧٥ ؟) فلنا منه منقولا الى العربية كتاب الايمان ودحض الهرطقات وبعض الخطب والرسائل العقائدية • للاسكندرانيين : ديونسيوس (+ ٢٦٤) والشهيد بطرس (+ ٣١١) واسكندر خليفته على كرسي الاسكندرية (+ ٣٢٨) مؤلفات عدة معربة ، منها ما هو منشور والجزء الاكبر ما يزال طي المخطوطات(١٨) • واما اتناسيوس الاسكندرى (+ ٣٧٣) ويعد من أكابر اللاهوتيين في مصر فقد لاقت مؤلفاته المعربة منذ القرن التاسع الميلادى رواجا كبيرا عند النصارى ، خصوصا رسالته ضد الاريوسيين وتفسيره لكتاب الزبور

---

(١٥) راجع المخطوط الفاتيكاني العربي رقم ١٨٧ ، صحيفة ٦٥ وما تتبع — رقم ١٧ صحيفة ١٩٤ •

(١٦) انظر مخطوط رقم ٤١٠ و ٤٥٢ •

(١٧) ابن كبر : مصباح الظلمة ، ص ٢٨٨

I d BRATKE, "Ein arabisches Bruchstuck aus Hippolyt's schrift uber den Antichrist", dans zeitschrift fur die wissenschaftliche Theologie, 36, 1(1892), PP. 282-289; G.GRAF, Geschichte der Christlichen Arabischen Literatur, Citta del Vaticano, 1944, t. I, P. 306-308.

(١٨) راجع المصادر التي نوه عنها غراف في كتابه المذكور آنفا ، ص ٣٠٩ — ٣١٠

ورسائله ، والقسم الاكبر من خطبه الدينيه وقد اربت على الستين خطبة(١٩) • تلميذه تيوفيلوس الاسكندرى (+ ٤١٢) عرب له الاقدمون بعض الاقوال الروحية وقسما كبيرا من خطبه اللاهوتية • وثمة بعض تفاسير للاناجيل منها قسم لاوسابيوس القيصرى (+ ٣٤٠) وديديموس الاعمي (+ ٣٩٨) وتيطس اسقف البصرة المتوفي قبل سنة ٣٧٨ • معربو هذه الكتب مجهولون ، ولا يستبعد ان يكون بعض هؤلاء ممن تصدوا لكتب فلاسفة اليونان ، كما يثبت لنا ذلك تعريب الكاتب النصراني المشهور اسحق بن حنين (+ ٨٧٣) لكتاب طبيعة الانسان وقد نسبه لغريغوريوس نيصص وورد ذكره عند ابن النديم(٢٠) ، وهو في الحقيقة لناسيوس الحمصي • مؤلفات باسيليوس الكبير رئيس اساقفة قيصرية الكابادوك (+ ٣٧٩) اللاهوتية والنسكية ظهرت في اللغة العربية منذ القرن التاسع الميلادى وقام بتعريب الجزء الكبير من خطبه الروحية الشيخ عبد الله ابن الفضل النصراني في القرن الحادى عشر(٢١) •

وهنالك رسالة روجية يغلب عليها الطابع الفلسفي ظهرت في القرن الرابع الميلادى باللغة اليونانية ثم نقلت الى العربية ، ويرجح ان التعريب كان عن السرياني وشاعت بعنوان « مسائل وأجوبة باسيليوس وغريغوريوس » ، فقد كثر نساخها في العراق وسوريا وخصوصا في مصر(٢٢) • ولغريغوريوس هذا ، ويعرف بغريغوريوس اللاهوتي

(١٩) ذكر له ابن كبر (مصباح الظلمة ، ص ٢٩٢) خمسة كتب معربة •

(٢٠) الفهرست ، القاهرة ، ١٣٤٨ هـ ، ص ٣٥٧ • ذكره ايضا ابن كبر في مصباح الظلمة ص ٢٩٠ •

(٢١) راجع لويس شيخو : المخطوطات العربية لكتبه النصرانية ، بيروت ١٩٢٤ ، ص ٥٢ ــ ٥٤ و ٢٣٥ ــ ابن كبر : مصباح الظلمة ص ٢٩١ ــ ٢٩٢ •

(٢٢) نشرها جرجس يعقوب : رسائل دينية قديمة ، القاهرة ١٩٢٦ ، ص ٩٤ــ٥٥

الانطاكي في أواخر القرن العاشر الميلادى • وأما عبد الله ابن الفضل فقد عرب لغريغوريوس نيصص (+ ٣٩٤) شرحه لستة أيام الخليقة • ومواعظ كيرللس الاورشليمي (+ ٣٨٦) نقلت الى العربية قبل القرن الثاني عشر الميلادى(٢٣) ويوحنا الملقب بالذهبي الفم وهو كاتب وخطيب ذائع الصيت ، وقد سلخ قسما كبيرا من حياته في انطاكية قبل ان ينتقل الى القسطنطينية فانه نال قسما وافرا من عناية المترجمين العرب الذين نقلوا له عدة خطب وعظية ومقالات لاهوتية ورسائل كتابية • وأنك لا تجد مجموعة مخطوطات عربية في دير أو مكتبة مسيحية خالية من مؤلفات هذا اللاهوتي(٢٤) • ولكيريللس الاسكندرى (+ ٤٤٤) كتاب الكنوز ، ومجادلة مع نسطوريوس والحرومات ومقتطفات عدة من كتب لاهوتية وكتابية نقلت كلها الى اللغة العربية ولاقت أوسع انتشار بين المسيحيين(٢٥) •

لقد طالت اللائحة وتوجب علينا الاختصار • فلنذكر عابرين المؤلفين الآخرين الذين نقلت كتبهم من اليونانية الى العربية(٢٦) وهم بركلس بطريرك القسطنطينية (+ ٤٤٦) وتيودوتوس اسقف انقرة (+ قبل ٤٤٦) وتيودوربطوس القورشي (+ حوالي ٤٥٨) وأنسطاسيوس الانطاكي (+ ٥٦٩) وأوستراتيوس الكاهن القسطنطيني (آخر القرن السادس) ،

---

(٢٣) راجع غراف : تاريخ الادب المسيحي العربي (بالالمانية) ص ٣٣٠ ــ ٣٣٧

(٢٤) قسطنطين الباشا : « القديس يوحنا فم الذهب في الادب العربي » (بالفرنسية) في كتاب دراسات وابحاث حول القديس ياحنا فم الذهب ، رومية سنة ١٩٠٧ ــ ١٩٠٨ ، ص ١٧٣ ن ١٨٧ •

(٢٥) غراف : الكتاب المذكور ، ص ٣٥٨ ــ ٣٦٥ •

(٢٦) راجع ما ورد عن هوءلاء الموءلفين في كتاب غراف المذكور ، ص ٣٦٥ ــ ٣٧٧ •

والكاتب المعروف بديونسيوس الاريوباجي وصفرونيوس المقدسي الذى حضر فتح بيت المقدس والمتوفي سنة ٦٣٨ ومكسيموس المعترف (+ ٦٦٢) وأنسطاسيوس رئيس دير طورسينا (+ حوالي ٧٠٠) وأندراوس الدمشقي اسقف كربت (+ ٧٤٠) وجرمانوس بطريرك القسطنطينية (+ ٧٣٣) وخصوصا يحيى أو يوحنا الدمشقي (+ ٧٤٠) • وهذا الكاتب نديم الخلفاء الامويين قبل ترهبه(٢٧) عاش في بيئة عربية بيد انه حصل على ثقافة يونانية وفيها الف كتبه التى نقلت الى العربية في القرن العاشر والحادى عشر • من مؤلفاته المعربة كتاب في الفلسفة والمنطق وفي علم الكلام(٢٨) •

زد على هذا التراث العلمي الضخم مجموعات مهمة من المؤلفات الصوفية أو النسكية المغفلة ككتاب بستان الرهبان وكتاب مفتاح باب فردوس الله واخر بعنوان فردوس الرهبان وأيضا كتاب البستان في اخبار الرهبان والمؤلفات المنسوبة لمكاريوس المصرى ويوحنا التباقيسي (أى الاسيوطي) وكذلك اسطفانوس التبائيسي وموسى الحبشي (+ حوالي ٣٩٥) وأفاغريوس البنطي (+ ٣٩٩) والانبا نيلس (+ حوالي ٤٣٠) ومعاصره مرقس الناسك وأشعيا المتوحد (+ ٤٨٨) ودانيال الاسقيطي (القرن السادس) وسمعان العامودى الجديد (+ ٥٩٢) والانبا دوروثاوس (+ حوالي ٥٤٠) ، وقد عربت ميامره منذ القرن التاسع ، ومعاصره برصنوفيوس ، ومن القرن السابع ثالاسيوس ويوحنا الكرباتي وغيرهم • ولا ننسى يوحنا السلمي (+ حوالي ٦٤٩) رئيس دير طورسينا صاحب الكتاب المشهور « سلم الفضائل » وأنطيوخميس الراهب الذى من دير مار سابا مؤلف كتاب

(٢٧) ابو الفرج الاصفهاني : كتاب الاغاني ، القاهرة ١٩٢٨ ــ ١٠٥٠ ، ج ١٦ ، ص ٧٠

(٢٨) راجع المخطوط الفاتيكاني العربي رقم ١٢٢٣ ، صحيفة ٧ ــ ٦٣ •

الحـاوى(٢٩) •

وقـد ظهرت عـدة مقاطع من مؤلفات أبوليناريوس اللاذقي (+ ٣٩٢) وتلميذيـه فيتاليس وتيموتاوس اسقف بيروت في مجموعـة لاهوتيـة تعرف بكتـاب اعتراف الابـاء • وأمـا يحيى النحوى ، وهو من النصف الاول من القرن السـادس فقـد عني النصـارى بتعريب الكثير من مؤلفـاته الفلسفية والدينيـة حتى ارتفعت منزلته كثيرا عند العرب وحيكت حوله عـدة روايات حكى لنا البعض منها القفطى(٣٠) وسرد لنا شيئا من مؤلفـاته مثـل رده على نسطوريوس ، انما اغفل ذكر رسـالة له في النسك(٣١) • ومن هـذه الحقبـة نذكر ايضـا البطريرك الانطاكي ساويروس (+ ٥٣٨) ، الذى اهتم اليعاقبـة والاقباط بتعريب مؤلفاته العقائدية وخطبه الدينية ورسـائله وكتبه الطقسية ، فانه كان من أكبر المناصرين للكنيسـة اليعقوبية(٣٢) •

تلك هي اهم المؤلفات النصرانيـة التى نقلها العرب من اليونانية الى لغتهم العربيـة • وهي ، اذا قوبلت بالمؤلفات اليونانيـة المعربـة في الطب والفلسفة كانت أوفر منها عددا ولا تقل عنها شـأنا ، انما ردحا طويلا من الزمن مطموسة في مخطوطات الديارات النصرانيـة • فالتعريب عن اليوناني كان ذلك التيـار الذى حمل الى العرب سيلا من الكتب اليونانية ، المسيحية منها وغير المسيحية • والملكيون هم الـذين اشتغلوا في هـذا المضمار وكـانت لهم اليـد الطولى بالتعريب عن اليونانيـة ، فكنيستهـم هي امتـداد البطريركيـة الانطاكيـة

---

(٢٩) غرف : الكتـاب المذكور ص ٣٨٠ ــ ٤١٤ •

(٣٠) القفطي : اخبـار العلماء باخبـار الحكماء ، ص ٢٣٢ ــ ٢٣٤ •

(٣١) راجـع لائحـة مخطوطات دير السريـان المحفوظة في المتحف القبطي التي اعدها يسى عبد المسيح ولم تنشر بعد رسـالة يحتى النحـوي مخـفوظة في : المخطوط رقم ٦٠ من الدير المذكور •

(٣٢) غـراف : الكتـاب المـذكور ، ص٤١٨ ــ ٤٢٠ •

والاسكندرية من العالم البيزنطي الى العالم العربي • اما النسـاطرة واليعاقبة فلهم الفضـل الأكبر بخلق تيـار مماثـل نقـل الكثير من الكتب السريانيـة الى العربيـة(٣٣) •

أول الكتبـة السريان الـذين عربت مؤلفاتهم هو أفرام السـرياني(٣٤) (+ ٣٧٣) ، فلنا منـه في مخطوطات القرن التاسـع الميـلادى عـدة كتب • وما ان انقضى القرن العـاشر حتى كان القسـم الأكبر من انتاجه الادبي بين أيـدى النصـارى العرب تحتـل المقـام الاول في الصوامع والديارات ، الى جانب مؤلفات يوحنا سأبا المعروف عند العرب بالشيخ الروحاني وقـد نسك في بيت دلياطا ، ومؤلفات مار اسحق السرياني وكتب يعقوب السروجي • هؤلاء الأربعـة هم الكتبـة السريان الكبار الذين انتشرت كتبهم أوسـع انتشـار بين أيدى النصـارى عموما والرهبان خصوصـا • وتجـدر الاشـارة الى كتـاب آخرين نقلت مؤلفاتهم السريانيـة الى العربيـة نظير يوحنا الرهاوى وأبراهيم النفترى وقرياقوس النصيبيني وشهدون الاسقف، وزيد ابن شمعون طيبوتـه(٣٥) وفيلوكسـانس المنبجي (+ ٥٢٣) وبولـس متروبوليت نصيبين (+ ٥٧١) ، طبيب الفرس الساسانيين ويعرف ايضـا ببولس البصرى مطران نصيبين ، ويعقوب البرادعي (+ ٥٧٨) وماروتنا التكريتي (+ ٦٤٩) ويعقوب الرهاوى (+ ٧٠٨) وداود ابن فولس وهو من القرن الثامن •

اما الادب القبطي فقد نال نصيبه من التعريب اذ انتشرت في مصر مؤلفات انطـونيوس أبي الرهبـان (+ ٣٥٦) وباخوميوس (+ ٣٤٦) وشـنودا

---

(٣٣) خليل الجـر : قاطيغوريات ارسـطوطاليس في ترجماتها السريانيـة العربيـة (بالفرنسـية) بيروت ١٩٤٨ ، ص ٢٩ — ٣٢ •

(٣٤) راجـع العـدد الخـاص بهذا الكاتب الذي اصـدرته مجـلة « كلمة الشرق » وهو الجزء الاول والثـاني من السـنة الرابعـة ، سـنة ١٩٧٣ •

(٣٥) ذكره ابن ابي اصيبعة (جزء اول ، ص ١٠٩) ودعـاه طيبوته •

(+ ٤٥١) وتيموتاوس الاسكندرى (٤٧٧ +) وبيزنتيوس القفطي (+ حوالي ٦٣٢) وقسطنطين الاسيوطي ويوحنا البرلسي ، وهما من اوائل القرن السابع ، والبطريرك بنيامين الذى استقبل عمرو بن العاص في الاسكندرية وحظي منه بإكرام بارغ،وقرياقوس البهنسي وعيرهم كثيرين(٣٦)•

اننا نضرب صفحا عن مؤلفات سير الاولياء والنساك التي ظهرت في اليونانية والسريانية والقبطية ومنها انتقلت الى اللغة العربية ، فانها اكثر من ان تحصى • كما اننا نمر مر الكرام على كل تلك الرتب الطقسية المختلفة التي يتقرب بها المصلون النصارى من الله وقد عربت كلها من اللغات القديمة التى كتبت فيها • وعلم القوانين أو الفقه نشا عند النصارى العرب مما سنه الاقدمون في مجامعهم المسكونية أو المحلية وقرره القديسون والحكام قبل الفتح العربي ، ومما زيد عليه بعد الفتح حسبما اقتضت الحاجة الى اقراره ونشره بين المؤمنين •

تدلنا هذه اللمحة على اهم الاسماء التي انتقلت الى العربية وساعدت على خلق ذهنية مسيحية عربية لها أبعادها الثقافية وأصولها الحضارية • كل هذا التراث القديم انتقل الى أيدى العرب فاعملوا فيه الفكر واستلهموه وراحوا يكتبون بهدية اصفحات رائعة خلدت ذكرهم هكذا نشأت ، الى جانب المكتبة المعربة ، مكتبة ثانية خلفها الكتبة النصارى العرب وهي تمثل ابهى تمثيل الادب المسيحي العربي الأصيل •

ان النصارى العرب جزء لا يتجزأ من الامة العربية • فقبل ظهور الاسلام كانوا منتشرين في اصقاع مختلفة من الجزيرة العربية وبادية

(٣٦) غراف : تاريخ الادب المسيحي العربي (بالالمانية) ج ١ ، ص ٤٥٦ ـ ٤٧٨

فطاحل(٣٩) ، وبرز فيهم اساقفة كبار حضروا المجامع المسكونية منذ القرن الرابع الميلادى (٤٠) وكانت الحياة المسيحية زاخرة بالتقوى والصلاة بدليل قيام جماعات رهبانية كان لها اطيب الاثر عند العرب فى الجاهلة الشام(٣٧) وقد دان بدين النصرانية عدة قبائل عربية جزيلة العدد ورفيعة المقام لبني كلب وتنوخ وسليح من قضاعه وقبيلة جذام وتغلب وبكر وتميم والحارث بن كعب وكنده وغيرها(٣٨) ، وقام منهم شعراء وصدر الاسلام ولم تقتصر الحياة الرهبانيه على الرجال فحسب(٤٠)

(37) J. RYCKMANS, "Le christianisme en Arabie du Sud preislamique", dans "Accademia Nazionale dei Lincei" CCCXI (1964) Quaderno 62, pp. 413-454; S. VAILHE, "La province ecclesiastique d'Arabie", dans "Echos d'Orient" II (1899), pp. 166-177; R. BELL, "The origin of Islam in its Christian environment", London, 1926, pp. 1-63; F. NAU, "Les Arabes Chretiens de Mesopotamie et de Syrie du VIIIe s, "Paris 1933, H. CHARLES," Le cheistianisme des Arabes Nomades ....", Parise 1936; R. DEVREESSE, "Le Christianisme dans la province d'Arabie", dans "Vivre et Penser", 2e serie, 1942, pp. 110-146; Tor ANDRAE, "Les Origines de l'Islam et le Christianisme", traduit de l'allemand par J. ROCHE, Paris 1955, surtout aux pp. 1-38, etc....

(٣٨) راجع ما كتبه الجاحظ في « الرد على النصارى » (طبعة فنكل) القاهرة ١٩٢٥ ، ص ١٥ .

(٣٩) لويس شيخو : النصرانية وآدابها قبل الاسلام بجزئين ، بيروت ١٩١٩ — ١٩٢٣

(٤٠) هنرى لامنس : الديارات القديمة في حوران (بالفرنسية) بمجلة « الشرق المسيحي » ج ٨ (١٩٠٣) ، ص ٤٧٨ — ٤٨١ ، — ارنست هنغمان : الديارات في سوريا الشمالية قبل الاسلام (بالالمانية) بمجلة الدراسات السامية ، ج ١ (١٩٢٢) ص ١٥ — ٣٢ .

بل قامت ايضا ديارات نسائية أشهرها دير هند الصغرى(٤١) اى هند بنت النعمان الاصغر ودير هند الكبرى(٤٢) أى هند بنت الحارث بن عمر بن حجر، وقد بني هذا الدير الأخير في زمان كسرى انوشروان وأفريم الاسقف .

ولما خرج العرب من جزيرتهم لفتح سوريا كان الكثير من أخوانهم النصارى يجوبون بادية الشام أو كانوا أخذوا يتحضرون في حوران وعلى مشارف دمشق . وما ان شاعت اللغة العربية في الشام والعراق ومصر . وتقلصت اللغات السابقة ، حتى دخل في جو الحضارة العربية شعوب كثيرة غلبت عليها النصرانية وكانت تنعم بحضارة عريقة وفكر متطور كالادب السرياني والادب اليوناني ، وكان من الطبيعي ان يبدل هذا القوم لغته القديمة بلغة العرب في التخاطب والكتابة . على هذا النحو برز عند النصارى جمهرة ضخمة من المؤلفين نكتفي بذكر الكبار منهم الذين عاشوا قبل القرن الحادى عشر .

أول الملكيين ، في أواخر القرن الثامن وأوائل التاسع ، تيودوروس أبو قره اسقف حران (+ ٨٢٥) . له كتابان في اليونانية والعربية(٤٣) والسريانية . مذهبه الفلسفي شبيه بمذهب معلمه يحيى الدمشقي . تبعه

(٤١) ابو الفرج الاصفهاني : كتاب الاغاني ، ج ٢ ، ص ٣٣ ــ ابن فضل الله العمرى : مسالك الابصار في الممالك والامصار (طبعة احمد زكي باشا) القاهرة ١٩٢٤ ، ص ٣٧٧ .
البكرى : معجم ما استعجم (طبعة وستنفلد) غوتنجن ١٨٧٦ ، ص ٣٦٢-٣٦٣

(٤٢) البكرى : معجم ما استعجم ، ص ٦٤. ياقوت الحموي : معجم البلدان (طبعة وستنفلد) ج ٢ ، ص ٧٠٩ .

(٤٣) نشرها قسطنطين الباشا بعنوان : ميامر تاودرس ابي قرة اسقف حران ، بيروت ١٩٠٤ .

في أوائل القرن العاشر قسطا بن لوقا البعلبكي الذى ناظر ، مع حنين بن اسحق ، ابا الحسن على ابن يحيى المنجم (+ ٨٨٨)(٤٤) وفي مصر عاش سعيد ابن البطريق وهو افتيخيوس الاسكندرى ، كان بطريركا على الملكيين في الاسكندرية (+ ٩٤٠) له كتاب التاريخ دعاه « نظم الجوهر »(٤٥) • ومن المعاصرين له محبوب ابن قسطنطين المنبجي صاحب كتاب « العنوان » وهو كتاب تاريخ تقف حوادثه عند سنة ٩٤١ ميلادية(٤٦) • اما انطونيوس(٤٧) رئيس دير مار سمعان العمودى قرب انطاكية (النصف الثاني من القرن العاشر) ، فقد اشتهر كمترجم اذ عرب عن اليونانية ميامر غوريغوريوس اللاهوتي وعظات يوحنا فم الذهب والفصول الفلسفية وشرح الامانة المستقيمه ليحيى الدمشقي وكتبا أخرى له مع بعض تعاليم روحانية للآباء • نعرف من معاصريه ابراهيم ابن يوحنا الانطاكي(٤٨) وقد نقل عن اليونانية ٥٢ كتابا للقديس افرام السرياني كما انه عني بتعريب ثلاثين ميمرا لغريغوريوس النزينزى ، والقس نظيف ابن يمن الكاهن والفيلسوف والطبيب البغدادى ، وقد اشتهر بتعريب كتب فلسفيه من اليونانية ، وله مقالة في ماهية اعتقاد النصارى(٤٩) • من انطاكيه خرج يحيى بن سعيد صاحب كتاب الذيل لتاريخ سعيد بن البطريق الذى كانت تربطه به قرابة على ما اخبر ابن ابي اصيبعة(٥٠) • وتمتد حوادث الذيل من سنه ٩٣٨ الى سنة

---

(٤٤) راجع محاضرتنا في مؤتمر المستشرقين الدولي المنعقد في باريس (١٦ — ٢١ تموز ١٩٧٣) وهي قيد النشر في مجله A. AB. CA

(٤٥) نشره لويس شيخو بجزئيه في بيروت سنة ١٩٠٦ و ١٩٠٩ •

(٤٦) نشره لويس شيخو في بيروت سنة ١٩٠٢ واسكندر فاسيليف في باريس في سلسلة الاباء الشرقيين •

(٤٧) غراف : تاريخ الادب المسيحي العربي ، ج ٢ ، ص ٤١ — ٤٥ •

(٤٨) ابو البركات ابن كبر : كتاب مصباح الظلمة ، ص ٢١٤ •

(٤٩) راجع مخطوط ١٧٣ ، صحيفة ٩٢ — ٩٩ من المخطوطات العربية المحفوظة في المكتبة الوطنية بباريس •

(٥٠) عيون الانباء في طبقات الاطباء ، ج ٢ ، ص ٨٧ •

١٠٢٨(٥١) • وليحيى ايضا ثلاثة كتب لاهوتية(٥٢) •

وتيوفيلوس ابن توفيل الدمشقي اسقف الملكيين في القاهرة (النصف الاول من القرن الحادي عشر) اعاد تعريب الاناجيل عن الأصل اليوناني ، كما حكى أبو الفرج هبة الله ابن العسال في مقدمة كتابه عن الاناجيل • اما الشيخ أبو الفتح عبد الله ابن الفضل الانطاكي(٥٣) المتوفي بعد سنة ١٠٥٢ بقليل فكانت له اليد الطولى في اعلاء شأن الأدب النصراني بما عرب والف على السواء • فمن معرباته سفر الزبور وخطب يوحنا فم الذهب وبعض مؤلفات باسيلس القيصري وغريغوريوس نيصص ومكسيموس المعترف وأندراوس اسقف كريت ويحيى الدمشقي واسحق السرياني • اما نتاجه الخاص فنذكر منه كتاب المنفعة وهو ضخم يجمع بين دفتيه زبدة العلوم الكلامية والفلسفية والعلمية •• وكتاب بهجة المؤمن يقدم به المؤلف الادلة الفلسفية لمعتقدات النصرانية وكتاب الروضة وهو يضم اقوالا اقتطفها ابن الفضل من الكتب المقدسة ومن خمسة وثلاثين فيلسوفا يونانيا تقريبا ومن اكابر آباء الكنيسة حول واحد وسبعين موضوعا اخلاقيا لتهذيب النفس • هذا ما عدا كتبا أخرى وصلت الينا واغفلنا عن ذكرها او ضاعت ولم تصل •

لا نعرف احدا من الموارنة في هذه الحقبة سوى المؤرخ قيس الماروني وله كتاب تاريخ العالم تنتهي حوادثه في خلافة المقتفي (+ ٩٠٤ — ٩٠٨) وهذا الكتاب الذي ضاع ، واستفاد منه المسعودي(٥٤) •

اما المؤلفون النساطرة فعددهم وفير ومقامهم رفيع • أولهم تلك الأسرة الراسخة في علم الطب والفلسفة آل بختيشوع من جنديسابور وقد

(٥١) نشر كتاب الذيل في باريس سنة ١٩٢٤ مع ترجمة فرنسية بعناية اغناطيوس كراتشوكوفسكي وفاسيليف •

(٥٢) راجع بولس سباط : الفهرس ، رقم ٢٥٢٧ — ٢٥٢٩ •

(٥٣) غراف : الكتاب المذكور ، ج ٢ ، ص ٥٢ — ٦٤ •

(٥٤) كتاب التنبيه والاشراف (طبعة دي غويه) ليدن ١٨٩٤ ، ص ١٥٤ •

تناقل العلم من جيل الى جيل على مدى ثلاث قرون تقريبا في عهد العباسيين . مؤسسها جوارجيس ابن جبرايل وابنه بختيشوع وحفيده جبرايل وابن حفيده بختيشوع وحفيد حفيده يوحنا . من أبناء هذه الاسرة جبرائيل بن عبيد الله . وابنه ابو سعيد عبيد الله هؤلاء كلهم خدموا الطب والفلسفة والمنطق والديانة النصرانية بما عربوا والفوا . نقل الينا اخبارهم ابن ابي اصيبعة(٥٥) وابو الفرج ابن العبرى(٥٦) والقفطي(٥٧) من القدماء . وشيخو(٥٨) وسليمان صائغ(٥٩) ويوسف غنيمه(٦٠) من المتاخرين . وماكس ميرهوف(٦١) وبرغشتراسر(٦٢) وبروكلمان(٦٣) ودائرة المعارف الاسلامية ...

من المترجمين النصارى نكتفي بذكر اسماء : ابي الحسن عيسى بن حكم المسيحي الدمشقي(٦٤) والراهب هارون بن عزور(٦٥) وأبي زكريا يحيى ابن

---

(٥٥) عيون الانباء ، ج ١ ، ص ١٢٣ – ١٤٨ .

(٥٦) تاريخ مختصر الدول (طبعة انطون صالحاني) بيروت ١٨٩٠ ، ص٢١٣–٢١٥ و ٢٢٥ – ٢٢٨ و ٢٤٩ – ٢٥٠ .

(٥٧) تاريخ الحكماء (طبعة جوليوس ليبرت) ليبزك ١٩٠٣ ، ص ١٠٢ – ١٠٤ و ١٤٦ – ١٥١ .

(٥٨) مجاني الادب في حدائق العرب ، بيروت ١٩٠٠ ، ج ٤ ، ص ٢٩ – ٣٠٠ .

(٥٩) راجع مقال عن اسرة بختيشوخ في مجلة « النجم » ، ٤ (١٩٣٢) ص٣٦٦ وما يتبع .

(٦٠) راجع مجلة المشرق ٨ (١٩٠٥) ص ١٠٩٧ – ١١٠٧ .

(٦١) راجع مجلة ايزيس ٨ (١٩٢٥) ص ٧١٧ وما تتبع .

(٦٢) حنين بن اسحق ، حول ترجمات كتب جالينوس السريانية والعربية (بالالمانية) ليزك ١٩٢٥ .

(٦٣) تاريخ الادب العربي (بالالمانية) انظر الفهارس .

(٦٤) بروكلمان : تاريخ الادب العربي ، الذيل ج١ ، ص ٤١٦ .

(٦٥) ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ، ج ١ ، ص ٧٢ .

البطريق المترجم(٦٦) ويوسف بن ابراهيم الحاسب ابن دايه(٦٧) وقد بزهم جميعا في علم الطب يوحنا ابن ماسوية (+ ٨٥٧) . كان طبيبا مقدما عند المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل واخباره مشهورة(٦٨) . وجاثليق النساطرة تيموتاوس الكبير(٦٩) (+ ٨٢٣) . ما عدا ترجمته لكتاب ارسطو في الشعر له محاورة معروفة مع الخليفة المهدى حول العقائد النصرانية وموقف النصارى تجاه الاسلام ، حول هذا الجاثليق نرى صديقه ابا نوح ابن الصلت الانبارى (٧٠) وكاتبه ابا الفضل على ابن ربان النصراني(٧١) وخليفته على كرسي الجاثليقية يشوع بن نون(٧٢) وكلهم من الكتبة المبدعين . واما حبيب ابن بهريز فكان اولا اسقفا على حران ثم انتقل الى كرسي الموصل وعاش في زمن المأمون ولهذا الخليفة عرب كتبا في المنطق والفلسفه وللاسقف حبيب ابن بهريز عدة نظريات قريبه من الاسلام(٧٣) وفتيون ابن ايوب الترجمان الشامي نقل الى العربية بعض الاسفار المقدسة

---

(٦٦) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٣٩ — ابن ابي اصيبعه : عيون الانباء ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .

(٦٧) انظر المراجع في بركلمان : الكتاب المذكور ، ج ١ ، ص ٢٣٢ والذيل الاول ص ٤١٦ .

(٦٩) رافائيل بيداويد : رسائل البطريرك النسطوري تيموتاوس الاول (بالفرنسية) الفاتيكان ١٩٥٦ — هانس بوتمان : الكنيسة النسطورية في بطريركية الجاثليق تيموتاوس الاول (اطروحة بالفرنسية غير منشورة قدمها المؤلف في جامعة ليون سنة ١٩٧٠) .

(٧٠) ابن النديم : الفهرست ، ص ٢٤٤ — بولس سباط : الفهرس ، الذيل ، القاهرة ١٩٤٠ ، رقم ٢٥٣٠ — ٢٥٣٢ .

(٧١) بولس سباط : الفهرس ج ١ ، القاهرة ١٩٣٨ ، رقم ٤١٨ .

(٧٢) ادوارد ساخاو : كتب الفقه السريانية ج ٢ ، برلين ، ص ٢١ — ٢٤ (من المقدمة) و ١٢١ — ١٧٧ .

(٧٣) ابن ابي اصيبعه : الكتاب المذكور ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .

وعاش في بغداد في نصف القرن التاسع الميلادى • كانت تربطه صداقة حميمة بعبد الله ابن كلاب ، كما اخبر ابن النديم(٧٤) ، وكبير علماء قومه هو دون شك حنين ابن اسحق(٧٥) الذى ادى الى الحضارة العربية خدمات جليلة بما عرب هو وابنه اسحق(٧٦) وتلميذه حبيش بن الحسن الاعم الدمشقي(٧٧) واصطفان ابن باسيل(٧٨) وعيسى بن يحيى بن ابراهيم(٧٩) وعيسى ابن على(٨٠) وثمة جمهرة من الاطباء النصارى من القرن التاسع والعاشر أخذناهم عن كتب القفطي وابن النديم وابن ابي اصيبعة نكتفي بذكر اسمائهم وهم : سلموية ابن بنان ، وسابور ابن سهل من جنديسابور وتيودوروس اسقف الكرخ وعيسى ابن ماسه من مرو ويحيى ابن سرابيون وخالد بن يزيد بن رومان النصراني والقس يوسف الساهر وأبو الحسين ابن كشكرايا ولوقا ابن سرابيون وعيسى ابن يوسف ابن العطار النصراني الموصلي وغيرهم •••

واذا كان الجاثليق يوحنا بن عيسى ابن الاعرج(٨١) (+ ٩٠٥) لم يترك اثرا في كتب المؤلفين المسلمين ، رغم كونه كاتبا كنسيا مشهورا في عالم الفقه ، فان ابا بشر متى بن يونس ينعم بشهرة نادرة • حكى عنه القفطي فقال :

---

(٧٤) الفهرست ، ج ١ ، ص ٢٤ و ١٨٠ و ٢٤٤ •

(٧٥) انظر المراجع عن هذا المؤلف في غراف : تاريخ الادب المسيحي العربي (بالالمانية) ج ٢ ، ص ١٢٢ و ١٢٩ •

(٧٦) راجع ايضا المؤلف المذكور ، ص ١٢٩ ـ ١٣٠ •

(٧٧) القفطي : اخبار العلماء باخبار الحكماء ، ص ١٢٢ •

(٧٨) بركلمان : تاريخ الادب العربي ، الذيل الاول ، ص ٣٧٠ •

(٧٩) برغشتراسر : حنين ابن اسحق ومدرسته (بالالمانية) ، ليدن ، ١٩١٣ ، ص١٤ •

(٨٠) ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ، ج ١ ، ص ٢٤٧ •

(٨١) راجع تاريخ ميخائيل السرتاني الكبير (طبعة شابو ٤ ، باريس ١٩٠٥ ، ج ٣ ، ص ١٢١ و ٤٦٣ وما يتبع •

« عالم بالمنطق ... وعلى كتبه وشروحه اعتماد اهل هذا الشأن في عصره »(٨٢) . وقد شهد عنه ابن النديم فقال : « اليه انتهت رئاسة المنطقيين في عصره(٨٣) . هو من اكابر شراح الفلسفة الارسطية وقد تعلم في مدرسة مار ماری في دير قنى حيث كانت تدرس علوم المنطق والنحو والشعر والهندسة والفلك والطب والفلسفة وعلوم الدين باللغة العربية الى جنب اللغتين السريانية واليونانية »(٨٥) . وقد قام بين النساطرة في القرن العاشر والحادي عشر عدة اساقفة الفوا او عربوا كتبا هامة خلدت اسماءهم وهم جرجس متروبولبت الموصل(٨٦) واسرائيل اسقف كشكر(٨٧) وأيليا الاول الجاثليق (+ ١٠٤٩)(٨٨) وخطوط ايليا مطران نصيبين (+ ١٠٤٦) (٨٩) صديق ابي القاسم الحسين ابن على المغربي وله معه مجالس مشهورة . ولمطران نصيبين مؤلفات كثيرة في العقائد الدينية

(٨٢) اخبار العلماء باخبار الحكماء ، ص ٢١٢ .

(٨٣) الفهرست ، ص ٣٦٨ .

(٨٤) ترى عدة مراجع حوله في كتاب غراف الآنف المذكور ، ص ١٥٣ – ١٥٤ .

(٨٥) راجع الشابشتي : كتاب الديارات ، مع الذيل للناشر كوركيس عواد ، طبعة ثانية ، بغداد ١٩٦٦ ، ص ٣٩٥ .

(٨٦) راجع المخطوط الفاتيكاني العربي ، رقم ١١٠ .

(٨٧) انظر كتاب المجدل لماری ابن سليمان (طبعة جيسمندی) رومية ١٨٩٦ ، ١٨٩٩ ، ج ١ ، ص ٨١ وما يتبع و٩٨ – ج ٢ ص ٧٣ وما يتبع و ٩١ .

(٨٨) يولاف سمعان السمعاني : المكتبة الشرقية (بالاتينية) ج ٣ ، قسم ١ رومية ١٧٢٥ ، ص ٢٦٢ – ٢٦٥ .

(٨٩) غراف/ تاريخ الادب المسيحي العربي ، ج ٢ ، ص ١٧٧ – ١٨٩ . يزاد على المراجع كتاب عما نوئيل كريم دللي : لاهوت ايليا برشنايا ، دراسة وترجمة مجالسه (بالفرنسية) رومية ١٩٥٧ .

والتاريخ والاخلاقيات والفقه واللغة السريانية والعربية • لا نغفل عن ذكر الراهب قورياقوس ابن زكريا الحراني وجبرائيل ابن نوح وعيسى ابن علي النصراني صاحب قاموس سرياني ــ عربي وأبي الحكيم يوسف ابن البحيرى من ميافارقين وبشر ابن السرى الدمشقي مفسر الكتب المقدسة(٩٠) • اما أبو الفرج عبد الله ابن الطيب(٩١) فكان من الرجال البارزين في عصره وبين قومه ، فهو الفيلسوف والطبيب والقس الذى شغل منصب كاتب الجاثليق أيام يوحنا بن نازوك (+ ١٠٢٢) وتوفي سنة ١٠٤٣ • اليك ما كتب عنه القفطي :

« فيلسوف فاضل مطلع على كتب الاوائل وأقاويلهم ، مجتهد في البحث والتفتيش ••• قد احيى من هذه العلوم (اى فلسفة ارسطوطاليس وطب جالينوس) ما دثر وأبان منها ما خفي ••• وشيخنا أبو الفرج عبد الله ابن الطيب بقي عشرين سنة في تفسير ما بعد الطبيعة ومرض من الفكر فيه مرضة كاد يلفظ نفسه فيها ••• »(٩٢) فهذا الذى قدم شروحاً قيمة لكتب ارسطوطاليس وفرفوريوس الصورى وجالينوس وابقراط اهتم ايضا بتفسير الكتب المقدسة النصرانية بأجمعها ، كما ان له عدة كتب عقائدية وأخلاقية وفقهية ، قسم منه نشره علماء أوروبيون(٩٣) وقسم ما زال طي المخطوطات •

هؤلاء هم المؤلفون النساطرة وقد كانوا من نخبة القوم علميا

---

(٩٠) راجع ما ورد حول هؤلاء المؤلفين في كتاب غراف المذكور ، ص ١٥٤ـ١٥٩

(٩١) الكتاب المذكور ، ص ١٦٠ ـ ١٧٦ •

(٩٢) اخبار العلماء باخبار الحكماء ، ص ١٥٠ ـ ١٥١ •

(٩٣) اهتم بنشر مؤلفات ابن الطيب العالم الهولندي سندرز الفرنسي جيران ترويو ، خاصة في مجلة « كلمة الشرق » •

واجتماعيا (٩٤) • اما اليعاقبة فقد برز منهم مفكرون كبار يتقدمهم ابو رايطة حبيب ابن خدمة التكريتي ، المعاصر لابي قره اسقف حران وتيموتاوس الكبير الجاثليق • له عدة رسائل دينية نشرها العالم جورج عراف مع ترجمة المانية(٩٥) وقد اهتم بتربية نسيبه نونوس رئيس شمامسة نصيبين الذى الف تفسيرا لانجيل مار يوحنا ، ما عدا كتاباته باللغة السريانية (٩٦) ، اشهر منه كان عبد المسيح ابن ناعمة الحمصي معرب المغالطات السفسطائية والسماع الطبيعي لارسطو والكتاب المنحول « ايثولوجيا »(٩٧) • وبعد ان نذكر ذكرا عابرا موسى ابن الحجر صاحب التفاسير الكتابية والخطب الدينية ومعاصره يوحنا الداراني(٩٨) وله مقالة عن الشياطين وكتاب في الكهنوت ، نصل الى قمة الفكر النصراني اعني يحيى بن عدى التكريتي نزيل بغداد(٩٩) (+ ٩٧٤) • اعطى القفطي(١٠٠) لائحة كتبه الفلسفية وأهمل كتبه اللاهوتية النصرانية • وحوالي سنة ١٩٢٠ اهتم العالم الفرنسي اغوسطينوس بريه ، بدراسة هذا الكاتب اذ خصه بكتاب لنيل درجة الملفنة من السوربون •

---

(٩٤) لويس ماسينيون : السياسة الإسلامية المسيحية للكتاب المناطقة (بالفرنسية) في موءلفاته الصغرى ، ج ١ بيروت ١٩٦٣ ، ص ٢٥٠ ـ ٢٥٧ •

(٩٥) موءلفات حبيب ابن خدمة ابي راقطة اليعقوبي ، لوفان (بلجيكا) ١٩٥١ •

(٩٦) نشرة شراخيان بالارمنية في البندقية (ايطاليا) ١٩٢٠ •

(٩٧) بركلمان : الكتاب المذكور ، ج ١ ، ص ٢٢٢ ـ والذيل الاول ص ٣٦٤ وما يتبع و ٩٥٦ •

(٩٨) للسمعاني : المكتبة الشرقية (باللاتينية) رومة ١٧٢١ ، ـ ٢ ، ص ١١٨ ١٢٣ راجع ايضا مقالة يوسف فرلاني : نفسية يوحنا الدراني (بالايطالية) في مجلة « الدراسات الشرقية) رومية ١١ (١٩٢٦) ، ص ٢٥٥ ـ ٢٧٩ •

(٩٩) ترى في غراف : تاريخ الادب المسيحي العربي ، ج ٢ ، ص ٢٣٣ ـ ٢٤٩ عدة مراجع قديمة ومتاخرة حول هذا الكاتب •

(١٠٠) اخبار العلماء باخبار الحكماء ، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٨ •

وكانت مؤلفـات يحيى الفلسفية مفقودة آنذاك • فما كان من الباحث الا ان درس مذهب يحيى من خلال كتبـه اللاهوتيـة فقط • الا اننا عثرنا في هـذه السنوات الاخيرة على مخطوطـات في طهران وأصفهان تحتوى عـلى كتبـه الفلسفية وهي في غايـة الخطورة ، ولا عجب فشهادة القفطي بحقـه واضحة : « اليه انتهت رئاسـة اهل المنطق في زمانه » • ومن تلاميذه الفيلسوف فرج بن جرجس ابن افريم اليعقوبي وأبو الخير الحسن ابن سـوار وأشهرهم أبو على عيسى ابن اسحق ابن زرعـه(١٠١) (+ ١٠٠٨) « احـد المتقـدمين في علم المنطق والفلسفة »(١٠٢) وأحـد النقلة البـارعين • كتبـه المعربة في الفلسفة أو المؤلفة تحتل مقاما سـاميا بين المؤلفـات العربيـة • عنـه كتب معـاصره أبو حيـان التوحيدى ما يلي : « انه كان حسن الترجمـة صحيح النقل كثير الرجوع الى الكتب ، محمود النقل الى العربيـة ، جيد الوفاء بكـل ما حـل من الفلسفة »(١٠٣) • وتلميذه أبو نصر يحيى بن جرير التكريتي (+ حوالى ١٠٨٠) كان كثير الاطلاع في العلوم وذا فضـل في صناعـة الطب • له كتب في الطب وعلـم النجوم ذكرها ابن أبي اصيبعة(١٠٤) وكتـاب المرشـد وهو مختصر مفيد لاهم العقائد النصرانيـة •

من الاقباط نكتفي بذكر ابي بشر ساويروس ابن المقفع اسقف الاشمونين (بمركـز ملـوى) (+ بعـد ٩٨٧) • هو أول كـاتب قبطي الف باللغـة

---

(١٠١) كيرللوس حداد : عيسى ابن ذرعه ، فيلسـوف عـربي ولاهـوتي نصراني ، (بالفرنسـية) بيروت ١٩٧١ • ترى في هـذا الكتاب دراسة وافية عن المؤلف مع كل المراجـع المعروفة •

(١٠٢) القفطي : الكتـاب المـذكور ، ص ١٦٣ •

(١٠٣) كتاب الامتـاع والمؤانسـة ، القـاهرة ١٩٣٩ ، ج ١ ، ص ٣٣

(١٠٤) عيـون الانبـاء ، ج ١ ، ص ٢٤٣ •

العربيـــة ناشرا عقـــائد الايمـــان ومدافعـــا عن انتقـــادات الغرباء • ذكر له ابن كبر ٢٦ مؤلفا(١٠٥) •

نخلص الى الاستنتاج مما تقـدم ان وجه الحضـــارة العربيـــة الكامل لم ينجل بعـــد ، فاذا كان الوجـــه الاســـلامي ناصعا ، فالمـــلامح النصرانية تنبىء عن غنى حضـــاري لا يستهان به • فالنصـــارى ، وقـــد ترجموا اكبر قســـم من الكتبة اليونانيين والسريان والاقباط الذين تقدموهم ، اضـــافوا عليها من وحي أقلامهم ، حتى اضحت مؤلفاتهم من العنـــاصر الاساسية التي ســـاعدت على خلق الحضـــارة العربيـــة • فهذه لا تبدو لعين الباحث كصورة تعلق على الحـــائط فتزينه وترمق بنظرة واحـــدة ، انها لعمرى اشبه بتمثال رائع يجذب المتأمل والباحث حتى يستجلي ملامحه من كل جهاته • فوجهة النظر النصرانية تكمـــل تلك للاســـلام ، وكلاهما لا ينبذان حضـــاريا الشعوب الأخرى التى ســـاهمت بخلق الفكر العربي ، هـــذا الفكر الذى يرتفع حتى ينصب في خضم الحضـــارة الانســـانية الكاملة •



(١٠٥) مصباح الظلمة ، ص ٣٠٦ ــ ٣٠٧ •

سـيناء : كنوزها وآثارها التاريخية في العصـور الوسطى

للدكتـور

جوزيف نسيم يوسف

نظرة سريعة الى منطقة سـيناء وتاريخها :

اذا أردنا أن نكون فكرة سريعـة وواضحة عن تاريخ شبه جزيرة سيناء ، نجـد في كتب المسـالك والممالك ومؤلفـات الرحالة والجغرافيين العـرب معلومات قيمة ومادة من الطراز الأول • فهى تقـع في صحراء التيه بين القلزم وأيلة • وهى تعرف ايضـا باسـم جبل حوريب ، وتتميز بقممهـا وجبالهـا المرتفعة الشـاهقة • واذا ألقينا نظرة الى خريطـة سيناء ، نجـد أن الطريق الذي يربط فلسطين بمصر ، يخترق الجزء الشمالى منها • أما الجزء الجنوبي فقـد اشتهر بثرواته المعدنيـة ، وعلى وجـه الخصوص الـذهب والنحـاس والفيروز(١) •

وسيناء اقليم مجـدب جبلى ، لا سيما في الجنوب حيث توجـد الجبـال الشـاهقة الارتفاع ، ومن أهمها جبل القديسـة كاترينة وارتفاعه ٢٥٩٧ مترا ، وجبل موسى وارتفاعه ٢٢٤٢ مترا ، وقمم سربال وارتفاعهـا ٢٠٥٧ مترا وتعتبر هـذه المنطقـة الأخيرة من أشـد البقـاع وعورة •

وجبل القديسـة كاترينة هو أكثر الجبال ارتفاعا في شبه الجزيرة • ويقال انه هو الـذى حملت اليـه الملائكـة جثمان الشـهيدة القديسـة كاترينـة

(١) انظر ابن الفقيـه الهمذاني : مختصر كتاب البـلدان ـ ليـدن ١٣٠٢ هـ ـ ص ٦٩
ياقوت : معجم البـلدان ـ المجلد الثـالث ـ ليبزج ١٨٦٨م ـ مادة « طورسـينا »
ياقوت : معجم البـلدان ـ المجلد الثالث ـ ليبزج ١٨٦٨م ـ مـادة « طورسـيا »
ص ٥٥٨ •

السكندرية ، الذى نسب دير سيناء اليها ، فعرف باسم دير القديسة كاترينة • وقد دفن رفاتها في كنيسة الدير الكبرى(٢) •

وفي المنطقة العديد من المعابد التى ترجع الى التاريخ القديم ، مثل معابد وادى مغارة وسيرابيت Serapit • وجبالها عامرة بالكتابات القديمة ، ووديانها اليانعة تكاد تكون موجودة في كل مكان ، مثل وادى فيران ووادى الأربعين ووادى ليان •

منطقة سيناء تكتسب شهرتها الحقيقية فى العصر الوسيط :

والمعروف أن شبه جزيرة سيناء التى امتازت بالعزلة والوحشة في الماضى ، قد اكتسبت شهرتها الحقيقية في الحقبة الوسيطة من التاريخ • ويرجع ذلك الى النساك والمتعبدين المسيحيين الذين لجأوا اليها هربا من اضطهاد الحكام الرومان لهم في القرون الأولى من المسيحية ، في وقت اشتد فيه الصراع بين الأباطرة الرومان والديانة الجديدة التى وجدوا فيها منافسا خطيرا لهم وتهديدا مباشرا لسلطانهم ولوحدة الامبراطورية الرومانية التى كان يرمز لها بكلمة « السلام الرومانى » Pax Romana • وقد أقام أولئك النساك والمتعبدون في جبال شبه الجزيرة الجنوبية ، حيث كانت الوديان

---

(٢) عاشت القديسة كاترينه السكندرية في فجر المسيحية ، وكانت تدين بالوثنية ، ولكنها تركت عبادة الاوثان واعتنقت المسيحية واخذت تدعو لها ، فانزعج الوثنيون وضايقوها الى ان انتهى الامر باستشهادها • فلما اقيم الدير المذكور بأمر الامبراطور جستنيان في حوالى منتصف القرن السادس الميلادي ، نقلوا اليه رفاتها ، ومن ثم سمي باسمها ، وكان ذلك في القرن الثامن ، اي بعد وفاة هذه القديسة بمئات من السنين • وللمزيد من التفاصيل ، انظر جوزيف نسيم يوسف : « دراسات في المخطوطات العربية بدير القديسة كاترينه في سيناء » مقال بمجلة كلية الاداب بجامعة الاسكندرية ـ العدد ٢٢ ـ الاسكندرية ١٩٦٩ ـ ص ٩٥ و ح ١ •

الخصيبة وعيون المـاء ومجاريها • وسهل ذلك عليهم زراعة الحبوب والخضر وأشجار الفاكهة على وجـه الخصوص •

وكان أول ناسـك يلجـأ الى هـذه المنطقـة أشـارت اليـه المصـادر القديمـة ، قديس يدعى اونوفريوس Onophrius • وقـد التجـأ الى مغـارة في وادى ليـان الى الجنوب من جبل موسى • وكان ذلك في بدايـة القـرن الرابـع الميـلادى ، في وقت كـان فيـه التاريـخ القـديم يطوى صفحته بانهيار الامبراطورية الرومانيـة بمثلها ومفاهيمها وفلسفتها ، وفي وقت بدأ فيـه عصر جـديد في تاريخ البشرية بأوضـاع ومفاهيم جـديدة مغايرة ، ونعنى بذلك العصر الوسيط الذى اقتطع من عمر التـاريخ حوالى عشرة قرون من الزمان • وبعـد القـديس اونوفريوس تتابـع النسـاك في شبه الجزيرة يتعبدون ويتأملون في ذات الله العلية ، وقد خلفوا آثارا في كل مكان • واستتبع ذلك تكوين مراكز في كل منهـا برج يلجـأ اليـه النسـاك عندمـا تداهمهم المخـاطر • ومن هـذه الأبراج برج مهـدم في وادى الاربعين ، وبرج آخر في موضـع يعرف باسم « العليقة المتوقدة » Buisson Ardent (٣) الذى

---

(٣) اصـل هـذه التسمية ظهور الله عز وجل لموسى وسط نبـات من الشكوك المتوقد والنبـات لا يحترق • وتقع هذه العليقة المشتعلة على مقـربة من المكان الذى فيـه دير القديسـة كاترينـه • وقـد ورد ذكرهـا في القرآن الكريم في سورة طه ، الايـات ٩ ـ ١٢ ، « وهل اتـاك حـديث موسى اذ راي نـارا فقـال لاهلـه امكثـوا ، اني آنسـت ـ نـارا لعـلي آتيـكم منـها بقبس او اجد على النار هدى • فلمـا آتاهـا نودي يـا موسى اني انـا ربـك فاخلع نعليـك ، انـك بالواد المقدس طوى » • ووردت الاشـارة اليـها ايضـا في سـورة القصص ، الايتـان ٢٩ ـ ٣٠ ، « فلمـا قضى موسى الاجل وسـار باهله آنس من جانب الطور نـارا ، قـال لاهله امكثـوا اني آنسـت نارا لعـلي آتيكم منها بخبر او جـذوة من النـار لعلكم تصطلون • فلما اتـاها نودي من شـاطىء الواد

يقال ان هيلانه Helena أم امبراطور قسطنطين الكبير (٣٠٥ ــ ٣٣٧ م) قد بنته في القرن الرابع • وهذا البرج الأخير يقع على مقربة من دير القديسة كاترينة •

قصة دير سيناء وتاريخ بنائه ، وانتقال حوزة المنطقة الى السيادة العربية

هكذا كانت سيناء منذ بواكير العصور الوسطى ، غنية في تاريخ القديسين والشهداء ، في وقت اشتهرت فيه هذه العصور باسم « عصور الايمان » • وكان اولئك المتعبدون المتنسكون على جبال طورسينا يتعرضون لغارات المغيرين بين وقت واخر • فتوسلوا الى امبراطور دولة الروم وقتها ، وكان يدعى جستنيان الاول (٥٢٧ ــ ٥٦٥ م) ، ان يبنى لهم ديرا يؤدون فيه فروض العبادة ويحتمون بداخله ، وكانت سيناء وقتذاك داخلة في نطاق دولة الروم • فاجابهم الامبراطور الى طلبهم ، وأمر ببناء دير محصن على قمة الجبل الذي يوجد في سفحه المكان المعروف باسم « العليقة المشتعلة » • ولكن مندوب الامبراطور الذي أوفده للقيام بهذه المهمة ، أمر ببناء الدير عند سفح الجبل ، مراعيا في ذلك رداءة الجو وضيق المساحة وانعدام الماء بأعلا الجبل • ويقال ان جستنيان قتل مندوبه لمخالفته أوامره • وقد تم بناء الدير في هذا المكان باعتباره من الأماكن المقدسة ، فضلا عن وجود الماء فيه(٤) • وكان ذلك في أواسط القرن السادس الميلادى •

وفي نفس الوقت تذكر الرواية أن امبراطور الروم أرسل الى طورسينا

= الايمن في البقعة المباركة من الشجرة ان يا موسى اني انا الله رب العالمين »• وورد ذكرها ايضا في الاصحاح الثالث من سفر الخروج • وجاء في معجم البلدان لياقوت (مجلد ٣ ــ ص ٥٥٧) « ••• وبالقرب من مصر عند موكع يسمى مدين جبل يسمى الطور ولا يخلو من الصالحين ، وحجارته كيف كسرت خرج منها صوب شجرة العليق • » •

حوالى مائتين من أسر العبيد مع نسائهم وأولادهم من منطقة البحر الأسود ومن مصر للقيام بحماية الدير ورهبانه • ولايزال خلف أولئك القوم بسيناء حتى اليوم ، يقوم الرهبان باطعامهم من خيرات الوديان المبعثرة هنا وهناك ، بينما يتولون هم حمايتهم(٥) •

على أى حال ، ظلت سيناء وديرها في حوزة دولة الروم حتى بدايات القرن السابع الميلادى • وفي العقود الأولى من هذا القرن ظهر الاسلام في شبه الجزيرة العربية يدعو الناس بصفة عامة الى عبادة الله وحده ونبذ الأصنام ، والعرب بخاصة الى الاتحاد والتآلف والمحبة ونبذ الفرقة والخلاف • واستجابت القبائل العربية لهذه الدعوة الجديدة التى أصبحت ترى فيها رمز وحدتها وشعار مجدها وأمل مستقبلها • وعلى هذا الأساس قامت الدولة العربية فتية ناهضة ، وخرجت من جزعتها الصغيرة للفتح دفاعا عن كيانها ونشرا لدعوتها وتأمينا لها من مناوشات جيرانها ومضايقاتهم المستمرة على الحدود • وكان من الطبيعى أن يبدأ الصراع بينها وبين دولة الروم الذى انتهى في سنوات قليلة باستيلاء العرب على الولايات الشرقية التابعة لهذه الدولة ، وهى بلاد الشام وفلسطين ومصر • ولم ينته القرن السابع حتى غدت منطقة شبه جزيرة سيناء منطقة عربية ، وأصبح ديرها

---

(٤) انظر عن ذلك المراجع التالية :

Rabino, M.H.L." Monastere de :

Sainte Catherine du Most Sinai, Le Coire, 1938, 11ff.; Bassili, W.F., Sinai and St. Catherine, Cairo, 1957, 77; Forsyth, G.H., "Island of Faith in the Sinai Wilderness," National Geogravhic Magazine, January, 2964. 84 ff.

(٥) انظر الوثيقة رقم ٦٩٢ سيناء ــ عربي ، مكتوبة على ورق ، مقاس ٣٢×١٩سم ، موضوعها « حجة » •

ورهبانها يتمتعون بحماية السلطات العربية ورعايتها لهم(٦) •

اهتمام سلاطين مصر فى العصر الوسيط بمنطقة سيناء :

وكانت منطقة سيناء ، لاهميتها الجغرافيه والاستيرانيجية ، موضع عنايه سلاطين مصر وحكامها في العصر الوسيط • وبدأ هذا الاهتمام واضحا في عصر مؤسس الاسرة الايوبيه بمصر في أواخر القرن الثانى عشر الميلادى (أواخر القرن السادس الهجرى) • وكانت هناك وقتذاك حركة افاقة عربيه في منطقة الشرق الادنى ، تستهدف تكتيل القوى العربية في المنطقه لتطويق الصليبيين الدخلاء في الأراضى المقدسة والعمل على اجلائهم عنها • ولهذا أقام مؤسس الأسرة الايوبيه في سيناء عدة مراكز حصينة على طول المنطقة الفاصلة بين مصر والكيان الصليبى في البيت المقدس • وأهم هذه القلاع تلك التى تعرف باسم قلعة الجندى في قلب سيناء في طريق أيلة ، ولا تزال آثارها باقية حتى اليوم • وكذلك قلعة أيلة بجزيرة فرعون(٧) •

واستمر اهتمام حكام مصر بسيناء مع العمل على تحصينها وتعزيزها بالقلاع والاستحكامات ، طوال العصر الأيوبى وفي عهد المماليك ، في وقت كانت فيه شعوب الشرق الأدنى العربى تجاهد ضد الصليبيين الدخلاء

---

(٦) Ostrogorski, G., History of the Byzantine State, trans. by J. Hussey, Oxford, 1956, 98 ff.; Baynes, N.H. & Moss, H. St. L.B. (eds.), ByZonyium ... ford, 1953, 308 ff.; Sullivan, R.E., Heirs of the Roman Empire, New York, 1960, 26 ff.; Diehl, Ch., Histoire de l'Empire Byzantin, Paris, 1920, 52 ff.

(٧) ايلة هي حصن من حصون الكرك الهامة ، تقع على راس خليج العقبة فى اول الشام • وللمزيد من المعلومات عن قلاع سيناء ، انظر عبد الرحمن زكي : قلعة صلاح الدين وقلاع اسلامية معاصرة ـ القاهرة ١٩٦٠ ـ ص ١١٧ وما بعدها •

الذين طرقوا أبوابهم • وكانت سيناء خلال تلك الفترة من الزمن ، وعلى وجه التحديد خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد ، صخرة تحطمت فوقها كثير من هجمات أولئك الغزاة الوافدين من الغرب •

رهبان دير سيناء ونظمهم وحياتهم :

وما دمنا نتحدث عن شبه جزيرة سيناء وأهميتها في الحقبة الوسيطة من التاريخ ، باعتبارها المكان الذى كان الناس يلجأون اليه للتعبد والتقشف والصلاة بعيدا عن الحياة الدنيا وملذاتها ، في وقت كانت فيه الظروف مهيأة لذلك ـ يحسن أن نشير الى سكان تلك المنطقة النائية من العباد والنساك ، والى نظمهم وحياتهم ومعيشتهم وأحوالهم •

لقد اختلف عدد رهبان سيناء ، سواء المقيمون منهم بالدير ، أو الموزعون على الكنائس الصغيرة المبعثرة فوق قمم الجبال ، اختلافا كبيرا باختلاف الأزمنة • ففى بداية القرن الحادى عشر الميلادى (أوائل القرن الخامس الهجرى) كان عددهم حوالى ثلاثمائة • وفي بدايات القرن الرابع عشر (وأوائل القرن الثامن الهجرى) بلغ عددهم أكثر من أربعمائة • وفي أواخر القرن الرابع عشر (أواخر القرن الثامن الهجرى) وصل عددهم الى مائتين من الرهبان • وظل هذا هو العدد التقريبى للرهبان بالمنطقة حتى أواخر العصر الوسيط • ولكن عددهم تضاءل في العصر الحديث بسبب تأسيس العديد من الأديرة في المراكز المسيحية المعروفة ، مثل قبرص وكريت وأثينا ، مما كان له أكبر الأثر في اجتذاب عدد من رهبان سيناء • يضاف الى ذلك أن الحماس الذى صاحب حركة الرهبنة والديرية في بدايتها ـ كما هو معروف في التاريخ الأوروبى الوسيط ـ بدأ يخبو ويفتر ويتقلص مع الزمن •

وأما هيئة رجال الدين بدير سيناء فتتألف من المطران(٨) وخمسة قسوس وشماس واحد وعدد من الرهبان الجدد يتراوح بين أربعة وثمانية ، خلاف الخدم من غير المترهبين • ويقيم المطران بالدير ، وهو الذى يتولى ادارته ، يساعده في ذلك مجمعا يتكون من نائب وأمين صندوق وأمين مخازن • وفي حالة غياب المطران ، كأن تضطره الظروف الى التواجد بالقاهرة لأعمال تتعلق بطائفته ، يحل محله النائب • وللرهبان جميعا ، فيما عدا المبتدئين ، حق انتخاب الرئيس • ويجرى الانتخاب بدير سيناء نفسه • ومن اختصاص المطران والمجمع نقل الرهبان من وظيفة الى أخرى ومن دير الى آخر •

ويتبع رهبان سيناء القواعد التى وضعها لهم قديس يونانى يدعى بازيل(٩) St. Busil عاش في دولة الروم في القرن الرابع الميلادى • وكان

---

(٨) تطلق الوثائق العربية المحفوظة بدير سيناء على رئيس الدير لقب « اسقف » • انظر الوثيقة رقم ١٠ سيناء — عربي ، مقاس ٤٨٨ × ٢١ سم ، تاريخ ربيع ثاني ٥٥١ هـ (مايو — يونيو ١١٥٦م) ، سطر ٢١ — ٢٢ • راجع ايضا جوزيف نسيم يوسف : « دراسة في وثائق مقال بمجلة كلية الاداب بجامعة الاسكندرية — العدد ١٨ — الاسكندرية ١٩٦٥ ، ص ١٩٠ — ١٩٢ •

(٩) المعروف انه على يد القديس بازيل بدات الحياة الديرية تاخذ شكلها النظامي في شرق اوروبا •وكان بازيل قد ترك الحياة الدنيا وقام بزيارة الاماكن التى ظهرت وترعرعت فيها الحياة الرهبانية ، وبخاصة مصر وفلسطين وبلاد الشام • ثم عاد الى بلاده ولديه فكرة واضحة عن الرهبنة والديرة اكتسبها من رحلاته ، وقد افادته عندما قام بنشر نظامه الديري • انظر هذا ، Baynes & Moss, Byzantium, 141 ff. ويوجد بمكتبة دير سيناء العديد من المخطوطات عن بازيل وقوانينه باللغتين اليونانية القديمة والعربية • انظر ، مثلا ، مخطوطة رقم ٥٩٨ سيناء — عربي باسم « مختصر من القوانين ، قوانين باسيليوس ويوحنا الناسك والمجامع والرسل » ، ورقة ٤٦ ب — ١٥٣•

الرهبان في خلوتهم • والمعروف أن حساب الزمن عند أولئك الرهبان يبدأ من غروب الشمس(١١) •

زوار سيناء في العصر الوسيط :

هذا ، وقد توافد على منطقة سيناء وديرها طوال العصر الوسيط العديد من كبار الزوار من الشرق والغرب على السواء ، وبصفة خاصة اثناء العدوان الصليبي الذى تعرض له المشرق العربى خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد (القرنان السادس والسابع من الهجرة) ، ذلك العدوان الذى كان يستهدف الاستيلاء على الأراضى المقدسة لتكون نقطة ارتكاز يتوسع منها على حساب البلدان العربيه المجاورة ، تحقيقا لأطماعه واتجاهاته التوسيعية • وكان المحاربون الصليبيون يقومون عادة بزيارة هذه المنطقة المقدسة وديرها وهم في طريقهم الى الشرق تيمنا وتبركا • ولا تزال آثارهم من رموز وشعارات منقوشة على جدران الدير يمكن للزائر مشاهدتها حتى يومنا هذا • كذلك كان الحجاج المسيحيون من كل بقاع العالم يتوافدون على دير سيناء وهم في طريقهم الى كنيسة القيامه في بيت المقدس رغبة في الحصول على الغفران • وكانوا يقومون بحجهم الى الدير وهم آمنين مطمئنين في ظل سياسة التسامح الاسلامى التى سارت عليها السلطات الاسلاميه في المنطقة حيال الحجاج المسيحيين(١٢) •

---

(١١) انظر
Meistermann, B., Guide du Nil an Jourdian Par le **Sinai** [illegible], Paris, [illegible]9, 137.

(١٢) انظر عن ذلك جوزيف نسيم يوسف : « دراسة في وثائق العصرين الفاطمي والايوبي » ، ص ١٨٤ وما بعدها ، حسن حبشي : « التسامح الاسلامي تجاه دير سانت كاترين » ــ مقال بمجلة السياحة المصرية ــ العدد ١١٦ ــ القاهرة ١٩٦٦ ، ص ١٧ وما بعدها ، جمال الدين الشيال : مجموعة

هذا الرجل قد زار مصر وبلاد الشام وفلسطين ، واكتسب من رحلاته خبرة واسعة فيما يتعلق بالحياة الديرية • وكان الرهبان داخل دير سيناء يحيون حياة الزهد والتقشف ، ولا يأكلون اللحم الا نادرا • ومن عاداتهم أيضا ألا يتناولونه في غرفة الطعام حتى ولو كان اليوم عيدا ، فانهم يأكلون سمكا ، ثم يخرجون في المساء الى حديقة الدير ، وهناك فقط يأكلون اللحم ، وربما يكون ذلك تحايلا او امعانا في التقشف والتقرب الى الله •

والمعروف أيضا ان نظام الحياة اليومية لدى اولئك الرهبان يتلخص في أنهم يستيقظون جميعا في الثانية والنصف صباحا ، ويؤدون صلاة السحر في الرابعة • وفي الاعياد الكبيرة يقام قداس في الكاتدرائية الكبرى بالدير • اما في الاعياد الصغرى وايام الاحاد فيقام القداس في الكنائس الصغرى التي يشتمل عليها الدير • واما في اليوم المعروف عندهم بيوم الأموات ، وكذلك في أيام السبت الخاصة بالصيام الكبير ، يقوم قسيس باداء القداس في المقبرة الملحقة بالدير والتي تعرف أيضا باسم « بيت الجماجم » • ومن الطريف أن هناك أماكن شرف في تلك المقبرة لرؤساء الدير ، حيث توجد جماجمهم وعظامهم في ارفف مستقلة مرتبة بعناية فوق قطع من القماش الفاخر ، بينما تكدست جماجم وعظام بقية الرهبان فوق بعضها في غرفة واحدة(١٠) • ومن عادة الرهبان أيضا أنهم بعد انتهاء القداس يتناولون فنجانا من القهوة التركية ، ثم يتوجهون الى أعمالهم • وفي العاشرة والنصف يدعون جميعا الى الفطور معا • وفي الثالثة بعد الظهر يؤدون صلاة المغرب ، وبعدها يحين موعد تناول العشاء الذي يتناوله

---

(١٠) انظر عزيز سوريال عطية : الفهارس التحليلية لمخطوطات طورسينا العربية ـ ترجمة جوزيف نسيم يوسف ـ ج ١ ـ الاسكندرية ١٩٧٠ ـ لوحة رقم ٥ ص ٥٢ ولوحة رقم ٩ ص ١٢٧ •

ومن بين كبار زوار الدير من رجال الفكر والقلم والسياسة في العصر الوسيط شخص يدعى بيتر رودلف وفريسكو بالدى ، ونيقولا دى مارتونى

وبيرو طافور ، وفيلكس فابرى Felix Fabri • وقد سجل بعضهم مشاهداته وملاحظاته في كتب ومؤلفات لا تزال باقية الى اليوم • وهى تشهد بعظمة سيناء من ناحية ، وسعة صدر السلطات العربية وحسن معاملتها لاولئك الحجاج والزوار من ناحية أخرى(١٣) •

الاثار الاسلامية فى سيناء :

رأينا فيما سبق كيف أن شبه جزيرة طورسينا كانت تتمتع بأهمية كبيرة في تاريخ العالم الدينى منذ أقدم العصور ، وكيف أصبحت في العصر الوسيط ملجأ للزهاد والعباد والمتنسكين ، وقد وردت كلمة طورسينا في القرآن الكريم باسم « طور سينين » • جاء في صورة التين « والتين والزيتون وطور سينين • وهذا البلد الأمين »(١٤) • كما وردت الاشارة اليها في قوله تعالى في سورة المؤمنون « وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين »(١٥) • والطور في اللغة العربية يعنى الجبل الذى يكسوه الشجر ، ولا يقال للجبل الأجرد طور ، أما سينين فمعناها الشجر • وعلى هذا فطور سيناء معناها منطقة الجبال التى تكسوها الأشجار

الوثائق الفاطمية ـ ط • ثانية ـ الاسكندرية ١٩٦٥ ، ص ١١ وما بعدها • وسنتحدث عن هذه الناحية في شيء من التفصيل عند استعراض مجموعة الوثائق الخطية العربية المحفوظة بدير سيناء في آخر البحث •

(١٣) مما يذكر انه بدير سيناء دفاتر زيارات يرجع تاريخها الى هذا العهد السحيق ، وقد وقع كل زائر في الدفتر مع اثبات تاريخ الزيارة وملاحظاته • ولهذه الدفاتر اهمية كبيرة يمكن للدارس ان يستخلص منها معلومات قيمة •

(١٤) القرآن الكريم ـ سورة التين ـ الايات او ٢ و ٣ •

(١٥) القرآن الكريم ـ سورة المومنين ـ الاية ٢٠ •

والنباتات(١٦) •

في هـذه المنطقة الجبليـة التى تكسوها الأشجار والنباتات ، تتجلى وحـدة الداين في أبهى صورها وأروعها • فعند سفح أحـد جبالهـا ، عـلى مقربة من الموضـع الذى يقال له « العليقة المشتعلة » ، يتعانق الهلال والصليب في وحدة متينة راسخة ، حيث يوجـد دير القديسـة كاترينة ، والى جانبـه مسـجد يرجـع تاريخه الى بداية القرن الثانى عشر الميـلادى (أوائل القرن السـادس الهجرى) •

والمعروف أن هـذا المسجد أقيم حوالى سنة ٥٠٠ هـ ، وهى توافق سـنة ١١٠٦ م ، في عهد الخليفـة الآمر بأحكام الله الفـاطمى (٤٩٦ ـ ٥٢٤ هـ)• وقـد بنى هـذا المسجد ليصلى فيـه المسلمون الذين يسـكنون في ضواحى الدير ويقومون بحماية رهبانه • وبنـاؤه يرتفع ما يقرب من سبعة أمتـار عن الجـدار الشمالى الغربى من السور الدائر بالدير ، ويبعـد ما يقرب من ستة أمتـار عن واجهـة الكنيسـة الكبرى بالدير • ويبلـغ طوله حوالى عشـرة أمتـار ، وعرضـه سبعة أمتار ، وأرضيته من لوحات حجريـة متراصـة ، وتكسو جدرانه طبقة من الجير الأبيض • ومن كنوز المسجد وآثاره التاريخية القيمة ، أعمدته ، والمحراب ، والمنبر ، والمئذنة ، والكرسى وهو عـلى شـكل هرمى غير متكـامل من أعلا • هـذا ، بالاضـافة الى زخـارف المسجد من التوريقات النباتية ، والنقوش الكتابية التى يبدو فيها جمال الخط العربى من كوفي ونسخي وثلث •

---

(١٦) جـاء في ياقـوت : معجم البـلدان ـ مجـلد ٣ ـ ص ٥٦ « الطـور في كلام العرب الجبـل • وقـال بعض اهـل اللغـة لا يسمى طورا حتى يكون ذا شجر ، ولا يقـال للاجرد طور ••• » وجـاء في نفس المصـدر ـ ص ٥٥٨ ، ان سينين معناهـا شجر ومفردهـا سينية •

ويمتاز منبر الجامع بلوحته الخشبية التى تسجل بالخط الكوفي تاريخ انشائه سنة ٥٠٠ هـ ، أيام الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمى . ونص النقش الكتابى هو :

بسم الله الرحمن الرحيم ٠ لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت ، بيده الخير ، وهو على كل شىء قدير . نصر من الله وفتح قريب . لعبد الله ووليه ابى على المنصور الامام الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين ، صلوات الله عليه ، وعلى آبائه الطاهرين ، وأبنائه المنتظرين . أمر بانشاء هذا المنبر السيد الأجل الافضل أمير الجيوش ، سيف الاسلام ، ناصر الامام ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ،ابو القاسم شاهنشاه ، عضد الله به الدين ، وأمتع بطول بقائه أمير المسلمين ، وأدام قدرته ، وأعلا كلمته ، وذلك في شهر ربيع الأول سنة خمس مائة »(١٧) .

والى جانب هذا المسجد ، الذى لا يزال باقيا الى اليوم ، يوجد عدد من المساجد الصغيرة بمنطقة سيناء ، مثل المسجد المقام بجبل موسى ، وآخر بجبل وادى فيران ، وثالث عند حصن الساحل بأيلة . ويكاد يوجد مسجد صغير فوق قمة كل جبل من جبال سيناء ، والى جانب كل مسجد توجد كنيسة صغيرة ، معبرة عن وحدة الدين وروح التسامح الاسلامى .

---

(١٧) للمزيد من التفاصيل عن مجد سيناء ، انظر السيد عبد العزيز سالم : « الاثار الاسلامية في دير سانت كاترين بطورسينا » — مقال بمجلة العلوم بيروت — العدد الاول يناير ١٩٦٥ — ص ٣ وما بعدها .

واذا كنا قـد تحدثنا عن مسجد سيناء باعتباره من أهم الآثار الاسـلامية في شبه الجزيرة ، ان لم يكن أهمها على الاطـلاق ، فلا شـك أن أهم الآثـار المسيحية في المنطقـة هو دير القديسـة كاترينة ، الـذى أمر امبراطور الروم جستنيان الأول بتأسيسـه في أواسط القرن السـادس الميـلادى ، لحمـاية الرهبـان المنقطعين هنـاك من اغارات المغيرين • وقـد سبق الاشـارة الى تاريخ الـدير وقصته والى رهبانه وحياتهم وعاداتهم ومعيشتهم • ونضيف أن هـذا الدير يعتبر من روائـع سيناء ، وهو يقـع على ارتفاع ١٥٦٠ مترا من سطح البحر ، وتحيط به أكثر جبال المنطقة ارتفاعا وكأنها تحتضنه • وداخـل هـذا الدير وبين جدرانه يعيش الرهبان المسيحيون الذين يتبعون طائفة الروم الأرثوذكس ، منقطعين للصـلاة والعبـادة والتـأمل في ذات الله العليـة • يعيشون لربهم وهم يتمتعون بعطف وحماية السلطات العربيـة لهم منذ الفتح العربى وحتى اليوم ، مما يكشف عن تسـامح الاسـلام ورعايته الصـادقة للأديان السماوية(١٨) •

ويعتبر هـذا الدير من أقـدم أديرة العـالم ، ومن أكثرها شهرة ، حتى أصبح مكانا يؤمه الحجاج والسياح من كل مكـان على مر العصور • ويتخذ سياج الدير ، أى سـوره ، شـكل مستطيل غير منتظم الأضـلاع • وقـد أصيب هـذا السور بأضرار جسيمة بسبب الزلازل التى كانت المنطقة تتعرض لها بين وقت وآخر ، وبخاصـة الزلزال الـذى وقع سـنة ١٣١٢ م (بدايات القرن الثـامن الهجرى) • وكانت السلطات العربيـة في مصر تبعث من يقوم بأعمال الترميم والاصـلاح كلما تهدم قسم منـه •

ويضم الدير عـددا كبيرا من الأبنيـة والمنشئات • منهـا الكاتدرائيـة

(١٨) انظر جوزيف نسيم يوسف : دراسات في المخطوطات العربية ، ص ٩٥-٩٦

أو الكنيسة الكبرى التى تشغل وسط الدير ، ثم المقبرة الملحقة بها ، وعددا من الكنائس الصغرى ، الى جانب مخازن الغلال ، والمطاحن ، والمعاصر ، والمطابخ ، وغرف النزلاء ، وغرف الرهبان ، وبعض القاعات ، والمكتبة التى تحوى كنوزا لا تقدر بمال من الوثائق والمخطوطات بمختلف اللغات لم تر النور بعد .

ولا يزال هذا الدير شاخصا حتى اليوم يروى قصة قرون عديدة خلت . وهو يعتبر آية من آيات الفن والمعمار في العصر الوسيط ، من حيث ما احتواه من القباب والمبانى الرائعة ، والصور الجميلة ، والفسيفاء ذات الألوان الزاهية ، التى لا زالت تحتفظ بجمالها وألوانها حتى يومنا هذا . فضلا عما يحويه من الكئوس والأوانى والآثار المقدسة من ذهبية وفضية(١٩) . ومن أروع آثاره ذلك التابوت الفضى الذى بعثت به روسيا الى الدير لحفظ رفات القديسة كاترينة بداخله ، وعليه شكل يمثل القديسة وقد طعم بالذهب والأحجار الكريمة(٢٠) . ومع ما للدير من أهمية ، فانها لا تقاس بجانب مجموعة الصور الدينية التى توجد به ، والتى لا مثيل لها في العالم ، خاصة اذا عرفنا أن حركة محطمى الصور والتماثيل في دولة الروم في القرن الثامن الميلادى (القرن الثانى الهجرى) ، والتى لم تسلم منها كنيسة أو دير في العالم المسيحى وقتها ، لم تمتد الى دير القديسة كاترينة ، فحفظ تراثا يتميز بأهميته(٢١) .

ومما يستحق الذكر هنا ، أن دير سيناء يضم بعض العناصر الفنية ذات

(١٩) انظر جوزيف نسيم يوسف : نفس البحث السابق ، ص ٩٦ .
(٢٠) انظر عزيز سوريال عطية : الفهارس التحليلية لمخطوطات طورسينا العربية ج ١ ـ لوحة رقم ٤ ص ٣٣ .
(٢١) انظر جوزيف نسيم يوسف : دراسات في المخطوطات العربية ، ص ٩٦ .

التأثيرات الاسـلامية الواضحة • تتمثـل بصفة خاصـة في الأبواب الخشبية للكنيسـة الكبرى ، وفي التكوينات الهندسية والزخارف النباتيـة والنقوش العربيـة الجميلة التى تزدان بها الكنيسـة • وكل هـذا يكشف عن مـدى تأثر دير سيناء ومبانيه بالفن الاسـلامى عقب حركة الفتح(٢٢) •

واذا كنا قـد تحدثنا عن أهم الآثار الاسـلامية والمسيحية في سيناء التى تتمثل في كل من المسـجد والكنيسـة ، نقول ان اقامة الجـامع الى جـانب الكنيسـة يعكس وحـدة أزلية رائعة يتعانق فيها الهلال مع الصليب • فبينما المسلمون يؤدون فروض الصـلاة في المسجد أيام الجمع والأعيـاد ، يؤدون المسيحيون شعائر العبادة في كنيسـة الدير في أيام الآحـاد والمناسبات الدينية المقررة • وكان كل منهما يكن للآخر حبا ومودة واحتراما على مـدى الأجيال والقرون • هـذا ، بينمـا أسبغت السلطات العربيـة حمايتهـا على الـدير ورعايتها لرهبانه الـذين يقومون بايواء العرب المقيمين في ضواحيه ، ويتولى أولئك العرب بدورهم حماية الرهبان من الاغارات التى كانوا يتعرضون لهـا بين وقت وآخر(٢٣) •

---

(٢٢) حـول اهم التاثيرات الاسلامية في دير سـيناء ، انظر السـيد عبد العزيز سالم : الاثـار الاسـلامية في دير سـانت كاترين ، ص ٦ ـ ٨ •

(٢٣) تلقى الوثائق العربيـة التي ترجـع الى العصور الفاطمي والايوبي والمملوكي ، والمحفوظة بمكتبـة دير سـيناء ، اضـواء سـاطعة على هـذا التماسـك المتين بين المسلمين والمسـيحيين في المنطقة ، وعلى سـياسة التسامح التي عاش في ظلها رهبـان الدير • انظر جوزيف نسيم يوسف : دراسة في وثائق العصرين الفاطمي والايوبي ، ص ١٨٤ ومـا بعدهـا و ١٨٧ ومـا بعدها •

المخطوطات العربية فى سيناء واهميتها :

بعد أن أشرنا الى أهم الآثار الاسلامية والمسيحية التى توجد في شبه جزيرة سيناء ، والتى ترجع الى الفترة الوسيطة من التاريخ ، نلقى بعض الأضواء على المجموعة الخطية العربية المحفوظة بمكتبة الدير ، والتى تمتاز بقيمتها التى يصعب تقديرها •

تحتوى المكتبة على مجموعة نادرة من المخطوطات التى دونت فيما بين القرنين الثامن والتاسع عشر للميلاد • ويبلغ عددها حوالى ٤٥٠٠ مخطوطة مكتوبة باثنتى عشرة لغة هي : العربية ، واليونانية القديمة ، والسريانية ، والقبطية ، والجورجيانية ، والحبشية القديمة ، والتركية ، والفارسية ، والأرمينية ، واللاتينية ، والسلافونية ، والبولونية(٢٤) • وتحتل مجموعة المخطوطات العربية التى يبلغ عددها ٦٠٠ مخطوطة مكانة بارزة من بين هذه المخطوطات(٢٥) • اذ تتناول دراسات تمتاز بقيمتها البالغة في النواحى العلمية والتاريخية والفلسفية والفكرية والثقافية • وهى تضم كتبا عديدة فريدة في نوعها تزود الدارس المتخصص بقدر كبير من المعلومات في شتى أفرع الحضارة الانسانية ، كما تزوده بالعديد من الموضوعات

---

(٢٤) يدل تعدد لغات المجموعة الخطية المحفوظة بمكتبة سيناء على تعدد الاجناس التى عاشت في الدير في مختلف العصور • انظر احمد محمد عيسى : « مخطوطات ووثائق دير سانت كاترين بسيناء » ــ مقال بالمجلة التاريخية المصرية ــ المجلد الخامس (١٩٥٦) ــ القاهرة : ١٩٥٦ ، ص ١١٩ •

(٢٥) عدد مخطوطات المجموعة العربية اصلا ٦٩٧ مخطوطة ، منها ٣٦ فاقد و ٥٩ كتابا مطبوعا ادرج ضمن المخطوطات ، ومخطوطات قبطية اخرى فارسية ادرجتا ايضا خطا ضمن المجموعة العربية • وعلى هذا يكون مجموع المخطوطات العربية المتبقية بالدير ٦٠٠ مخطوطة فقط • انظر جوزيف نسيم يوسف : دراسات في المخطوطات العربية ، ص ٩٩ •

في ميــادين متشعبة من الدراســات الانســانية مثـل التاريـخ والقـانون والفلسفة ، الى جـانب الطب والعلوم والفلك والموسيقى وغيرها •

وقـد دون غالبيــة هـذه المخطوطات في الفترة الوسيطة من التاريـخ ، وهى تشمل على كتب مدونة بأنواع عـديدة من الخطوط العربيــة ، تمـدنا بقـدر كبير من المعلومات المتعلقة بالخطوط العربيــة ، وتزودنا بمادة قيمة عن نمو هـذه الخطوط وتطورها والأشـكال المختلفـة التى كانت تكتب بهـا ، من كوفي ونسخى ورقعة ونستعليق وثلث وتعليق • كذلك تتميز أغلفـة بعض هـذه المخطوطات بزخارفها ونقوشها وحلياتها التى يبـدو فيهـا الأثر العربى واضحا • وتنتهى معظم هـذه المخطوطـات أيضـا بخواتيم ، أى نهـايات ، تلقى الضوء على قصـة الدير وتنظيمه الادارى عـلى مر العصـور ، وتمدنا بسجـل حى متحرك لكثير من التفاصيل الهامـة المتعلقـة بالحوادث العـامة أو المحلية في فترات عـديدة من التاريخ ، أغفلتها المصـادر التاريخية أو مرت عليهـا مر الكرام • كما أنها تعرفنا أحيـانا بأسماء كتاب هـذه المخطوطات أو مترجميها أو ناسخيها أو ناقليها ، وما الى ذلك من بيانات ومعلومات هامـة قيمة مثـل مصـادر المخطوطات ، وهل هى أصليه أو منسوخة • ثم أن هـذه الخواتيم الواردة في كثير من المخطوطات العربيـة ، تعـدد مختلف التقـاويم أو التآريخ المعروفـة حسب تسلسلها زمنيا وهى : تاريـخ العـالم المعروف بتاريخ آدم أو الخليقـة ، وتاريخ الاسكندر اليونانى ، والتقويم الميـلادى اللاتينى ، والتاريخ القبطى المعروف بتقويم الشهداء ، والتقويم الهجـرى • وهـذه التقاويم تشـكل عناصر هامـة لدراسـات خصبة لموضوعات نادرة •

ولا تقتصر أهميـة المجموعـة الخطيـة العربيـة على ما ذكرنا فحسب ، فجانب كبير من مخطوطاتها مليء بالتعليقات الاضـافية الهامة المحشورة بين السطور أو المدونة بالهوامش الجانبية • وهى تمتاز بقيمتها الفائقة ، اذ تتناول معلومات عامة من أخبار وحوادث ، ومواليد ووفيات ، وسير وتراجم ، ووقائع

تاريخية ، ووصفات طبية ، ونبذ في الفلسفة والموسيقى والفلك والعلوم ، وما الى ذلك من نواحي المعرفة .

ويلاحظ أن معظم هذه المخطوطات مدون على ورق ، ولكن عددا قليلا منها مكتوب على رق غزال . ويوجد في المجموعة العربية عدد من هذه المخطوطات العتيقة المكتوبة على الرق ، وقد غسلت صحائفها من الحبر القديم لتكون معدة للكتابة عليها من جديد . وقد تصل طبقات الكتابة في عدد منها الى ست طبقات فوق بعضها يمكن التعرف على مضمونها . ونجد آثار المحو والازالة لا تزال باقية في عدد من هذه المخطوطات التى تعرف اصطلاحا باسم « المخطوطات المغسولة » . وهذه الظاهرة الهامة لا تزال بحاجة الى المزيد من الدراسة والبحث(٢٦) .

ولعل أهم ما يلفت النظر في معظم المخطوطات العربية ذات الطابع المسيحى ، هو وجود التأثيرات العربية الاسلامية فيها . وتبدو هذه التأثيرات واضحة بعد أن أصبحت شبه جزيرة سيناء بديرها وآثارها تابعة للسيادة العربية . فكان كثير من المخطوطات العربية المسيحية العتيقة تستهل بالبسملة وتختتم بالحمدلة وتؤرخ بالتقويم الهجرى . والأمثلة على ذلك كثيرة . اذ تبدأ أسفار الكتاب المقدس عند المسيحيين في كثير من هذه المخطوطات كالآتى : « بسم الله الرحمن الرحيم نبتدى بعون الله ونكتب أول سفر ... ان أول ما خلق الله السما والأرض .. الخ »(٢٧) .كما أطلق

---

(٢٦) تناولت هذه النقاط في شيء من التفصيل والتحليل في بحث لي بعنوان « دراسات في المخطوطات العربية بدير القديسة كاترينة في سيناء » ص ٩٨ ــ ١٣٦ . انظر ايضا عزيز سوريال عطية : الفهارس التحليلية لمخطوطات طورسيناء العربية ــ ج ١ ، ص ٣٠ وما بعدها .

(٢٧) انظر مخطوط رقم ٢ سيناء ــ عربي ، موضوعه « سفر التكوين » ، تاريخه سنة ٣٢٨هـ/ ٩٣٠م ، كاتبه مجهول ، ورقة ٢ ا ، وكذلك مخطوط رقم ٣١ سيناء ــ عربي ، موضوعه « مزامير وتسابيح » ، تاريخه ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م ، كاتبه مجهول ، ورقة ٣ ب .

على كثير من الرسل والقديسين المسيحين اسم « المصطفى » بدلا من كلمة « البشير » أو « الانجيلى »(٢٨) • كذلك ازدانت كثير من تلك المخطوطات وأغفلتها بنقوش ورسوم وزخارف ملونة ، على هيئة طيور وورود وأزهار وتوريقات نباتية أو اطارات وأفاريز على النسق العربى(٢٩) • والخلاصة أن اللغة العربية بحصيلتها اللغوية الخصبة وأسلوبها الجزل وتعبيراتها السلسة المتدفقة ، ومفرداتها الغنية ، قد طعمت المخطوطات العربية ذات الطابع المسيحى ، فأكسبتها رونقا وبهاء وتعبيرا سليما قويا كانت تفتقر اليه من قبل •

هذه أضواء جديدة تسلط لأول مرة على مخطوطات طورسينا العربية ، يصح أن تكون مجالا لدراسات مستفيضة قائمة بذاتها ، تخدم ناحية من نواحى البحث العلمى ، وتضيف الكثير الى العلم والتاريخ(٣٠) •

وثائق سيناء العربية وقيمتها التاريخية :

واذا كنا قد تحدثنا عن المجموعة الخطية العربية بسيناء وأهميتها التى تتمتع بها ، فهنالك مجموعة أخرى لا تقل عنها أهمية هى الوثائق التى تحتفظ بها مكتبة الدير ، والتى تتميز بجدتها وأصالتها ، فضلا عن أن الجانب الأكبر

---

(٢٨) انظر جوزيف نسيم يوسف : « بستان الرهبان : عرض وتحليل نسخه الخطية العربية غير المنشورة المحفوظة بمكتبة دير سيناء » ـ مقال بمجلة كلية لاداب بجامعة الاسكندرية ـ العدد ٢٣ ـ الاسكندرية ١٩٧١ ، ص ٥٩ ح ١٠

(٢٩) انظر ، على سبيل المثال ، المخطوطات العربية بسيناء التي تحمل رقم ٦١ و ٦٨ و ٧٦ و ٧٨ و ٧٩ و ٨٠ و ٨٤ و ٨٧ و ٩٠ و ٩٢ و ٩٥ و ١٠٠ الخ • والتي يبدو فيها الطابع العربي جليا وضحا • راجع مقالي « درسات في المخطوطات العربية » ، ص ١١٠ و ١١٢ وما بعدها •

(٣٠) حول الجديد في المجموعة الخطية العربية بطورسينا ، انظر مقالي « درسات في المخطوطات العربية » ، ص ١٠٣ وما بعدها و ١٣٦ •

منها لم ينشر بعد • ويبلغ عددها ١٧٤٢ وثيقة ، منها ١٠٧٢ وثيقة باللغة العربية و ٦٧٠ وثيقة باللغة التركية • وهى تشتمل على عهود ومراسيم وصكوك ومنشورات وفرمانات ومعاهدات وفتاوى وحجج ومحاضر وأوامر ادارية ومتنوعات(٣١) • وتحتفظ كلية الآداب بجامعة الاسكندرية بصور ميكروفيلم لها يمكن للباحث المتخصص الرجوع اليها والافادة منها(٣٢) •

وأهم الوثائق العربية هى تلك الصادرة من ديوان الانشاء بمصر في عهود الفاطميين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين الى الدير ورئيسه ورهبانه • وهي تلقى الضوء على طبيعة العلاقات بين رهبان الدير وبعضهم البعض ، وبينهم وبين العرب المحيطين بالدير ، وبين هذه الأطراف والسلطات المسئولة في مصر • ثم أنها تكشف عن الوضع الاقتصادى لمنطقة سيناء في العصر الاسلامى الوسيط • وهى ، فوق هذا وذاك ، تكشف عن سياسة التسامح التى سارت عليها السلطات العربية حيال أهل الذمة • لقد أوضحت بجلاء أن رهبان طورسينا كانوا يعيشون في ديرهم النائى ، وهم هادئين آمنين مطمئنين ، دون أن يلحقهم أذى أو يصيبهم مكروه ، مع تأمين طريق الحجاج الذين كانوا يقومون بحجهم الى هذا المكان المقدس • لقد اشتهر المسلمون بسعة صدرهم وتسامحهم الصادق في أمور الدين وفي الحريات الشخصية • وذلك يرجع لما انطوى عليه الدين الاسلامى من روح التسامح والمحبة لا سيما مع أهل الذمة • ويبدو هذا بجلاء في جميع الوثائق العربية المشار اليها •

---

(٣١) انظر مراد كامل : فهرست ديرسانت كاترين بطورسيناء ــ الجزء الاول ــ القاهرة ١٩٥١ ، ١٢٩ ــ ٢٣٣ •

(٣٢) جوزيف نسيم يوسف : « دراسة في وثائق العصرين الفاطمي والايوبي » ، ص ١٨١ ، و « دراسات في المخطوطات العربية » ، ص ٩٧ •

ففى منشور يرجع الى أواسط القرن السادس الهجرى (أواسط القرن الثانى عشر الميلادى) ، صادر من ديوان الخليفة الفاطمى الفائز بنصر الله (٥٤٩ ـ ٥٥٥ هـ) الى اسقف طورسينا ورهبانه ، جاء ما يلى :

« ... انه لما كان من شيمنا ازالة المحرمات وتعقبة إثارها ، والمنع من الاستمرار عليها ، وتأكيد انكارها ، ورعاية من يحتوى عليه نطاق مملكتنا من اهل الذمة ، واعتمادهم بما يسبغ عليهم ملابس الحنو والرحمة . تساوى في عدلنا الصغير والكبير ، وشملهم من حسن نظرنا ما يسهل عليهم من المطالب كل مستصعب عسير ... »(٣٣) .

وفي منشور آخر صادر بتاريخ ٥٩٢ هـ / ١١٩٥ م من ديوان الملك العادل ابى بكر بن ايوب الى رهبان طورسينا ، جاء بعد البسملة والافتتاحية :

« ... انا لم نزل ولله الحمد نذب عن الرعايا الذين فوض الله تعالى أمرهم الينا ، وأحالت الشريعة الطاهرة في حياطتهم علينا . فنكف كف الأذى عنهم ، ونجازى على الاحسان من سلك طريقه منهم . فنقيل عثرتهم ، ونكشف كربتهم وغمتهم ، ونضاعف ذلك لبطاركتهم ورهبانهم ومسيسيهم ، وساكنى الصوامع من زهادهم ، والمنقطعين بالأديرة من عبادهم ... »(٣٤) .

دور جامعة الاسكندرية فى الكشف عن اثار سيناء وكنوزها :

لقد اجتذبت الكنوز والآثار الاسلامية والمسيحيه في سيناء ، أنظار الدارسين والباحثين من مختلف أنحاء العالم الذين يغدون الى المنطقة بقصد

---

(٣٣) انظر الوثيقة رقم ١٠ سيناء ـ عربي ، مقاس ٤٨٨ × ٢١ سم ، تاريخ ربيع الثاني ٥٥١ هـ (مايو ـ يونيو ١١٥٦ م) ، الاسطر ١٢ ـ ٢٠ .

(٣٤) انظر الوثيقة رقم ١١ سيناء ـ عربي ، مقاس ٥٤٢ × ١٩٫٥ سم ، تاريخ ١٦ محرم ٥٩٢ هـ (٢١ ديسمبر ١١٩٥ م) ، الاسطر ١٤ ـ ٢٣ .

الدراسة والبحث . ولجامعة الاسكندرية بجمهورية مصر العربية دور كبير في تسليط الأضواء على تلك النفائس من النواحي التاريخية والاثرية والفنيه . اذ أسهمت في منتصف هذا القرن بدور بارز في هذا المضمار . ففي سنة ١٩٥٠ م قامت بعثة علمية من كلية الاداب بالاسكندرية بتصوير اهم مخطوطات الدير ووثائقه . وكان على رأسها المرحوم الاستاذ عبد الحميد العبادي أول عميد لاداب الاسكندرية . وقامت البعثه بالفعل بعمل صور ميكروفيلم لاهم هذه الوثائق والمخطوطات .

وتوالت بعد ذلك الزيارات العلمية التى قامت بها جامعة الاسكندرية بالاشتراك مع بعض الهيئات العلمية بالخارج ، لاستكمال العمل الذى بدأته بعثة سنة ١٩٥٠ م .وكانت آخرها بعثة سنة ١٩٦٣ م التى قامت بها كلية الآداب ، وكان على رأسها المرحوم الدكتور احمد فكرى استاذ التاريخ والحضارة الاسلامية بآداب الاسكندرية سابقا . وكان من حسن حظى أن أتيحت لى فرصة الاشتراك في هذه البعثة الأخيرة ، حيث قمت بزيارة منطقة سيناء وآثارها مرتين في أواخر سنة ١٩٦٣ م . وتهيأت لى فرصة مشاهدة معالم المنطقة ، والاطلاع على عدد غير قليل من الوثائق والمخطوطات التى تحتفظ بها مكتبة الدير(٣٥) .

بحوث ودراسات جادة قيمة عن سيناء واثارها وكنوزها

ولقد أثمرت تلك الزيارات العلمية التى قامت بها جامعة الاسكندرية الى منطقة سيناء ، اعتبارا من سنة ١٩٥٠ م وحتى أواخر سنة ١٩٦٣ م ، بظهور العديد من البحوث والدراسات الجادة القيمة ، عن سيناء وآثارها ووثائقها ومخطوطاتها . ونشرت هذه البحوث في المجلات والدوريات

---

(٣٥) للمزيد من المعلومات عن هذه البعثات العلمية وتواريخها وما حققته من انجازات ، انظر مقالى « دراسة في وثائق العصرين الفاطمي والايوبي » ، ص ١٧٩ ح ٢ و ١٨٠ ح ٢ .

العلمية ، وزودت المكتبة العربيــة بمادة قيمة من الطراز الأول ، عن المنطقــة وجغرافيهــا وتاريخهــا وآثارها • كذلك ظهرت مقــالات عــديدة باللغــات الأجنبية في الخارج ، بقلم علماء زاروا المنطقة وقاموا بدراســات أثرية وفنية وتاريخية فيها ، وهي تكشف عن عظمة تراثنا القومي العربي في هــذه المنطقــة الهامــة من الوطن العربي(٣٦) •

وأخيرا ظهر في المكتبــة العربيــة الجزء الأول من الفهارس التحليليــة لمخطوطات طورسينا العربيــة • وهو يتضمن فهارس كاملة مع دراســة وصفية تحليليــة دقيقــة لثلاثمائة مخطوطة تشــكل نصف عــدد المجموعة الخطيــة العربيــة • وقــد قمنــا باعــداده وتزويــده بكشــاف علمي مصنف يسهل للباحثين عمليــة البحث فيــه(٣٧)• وسوف يصــدر الجزء الثــاني والأخير متضمنا فهارس باقي المجموعة في القريب باذن الله •

---

(٣٦) من الصــعب عمل حصر شــامل للعــلماء الذين زاروا المنطقة واثروا المكتبــة العربيــة بدراساتهم الجــادة عن مخطوطات ســيناء ووثائقها وكنوزها وآثارها الفنيــة والمعمارية • ولكن نذكر من بين هؤلاء الاســتاذ كورت فايتزمــان Kurt Weitzmann ، والاســتاذ جــورج فورسايث George Forsyth ، والاســتاذ عزيز ســوريال عطية • كما ظهرت بمجــلة كليــة الاداب بجامعـــة الاسكندرية في اعــدادها المتعاقبة عــدة بحوث لاســاتذة متخصصين في الميــادين التاريخيــة والاثرية والفنية ، من بينــها اكثر من دراســة لكاتب هذا البحث •

(٣٧) انظر عزيز ســوريال عطيــة : الفهارس التحليلية لمخطوطات طورسينا العربية : فهارس كاملة مع دراســة تحليلية للمخطوطات العربيــة بدير القديســة كاترينه بطورســينا ــ ترجمة وتقديم وتعليق د• جوزيف نسيم يوسف ــ الجزء الاول ــ الاســكندرية ١٩٧٠ • وقد ظهر عرض وتقريظ لهذا المجــلد في احدى الدوريات العلميــة التي تصــدر في المــانيــا واسمها « الاسلام » • انظر :

Der Islam: Zeitschriff fur Geschichte und Kultur des islamischen Orients, Band 49, Heft 1, Berlin, Juni 1972, P. 140.

وتمثل هــذه الفهــارس الجامعــة المانعة التى ترى النور للمرة الأولى ، لتحتل المكانة اللائقة بها بين المجموعات البيليوجرافية المعــاصرة ، تمثل أول دراســة تفصيلية نقدية كاملة لمحتويات المجموعة الخطية العربيــة بسيناء التى تتميز بشهرتها العالمية الفائقة • فضــلا عن أنها تسجيل علمى دقيق لهذا التراث الانســانى القيم وحفــاظا له من العبث أو الضياع • وســوف تضــع هــذه الفهارس في متناول الباحثين والمستشرقين ، والمعنيين بالدراســات العربيــة والتاريخية والفلسفية واللاهوتية ، في شتى أنحــاء العالم ، أتم وأدق معلومات تتعلق بهذا التراث الدائم العظيم • وسوف تتيح لكل منهم امكانيــات خصبة واسعة في مختلف مجــالات البحث العلمى •



ندوة
احياء ذكرى الرازي
جامعة عين شمس ـ القاهرة
١ ـ ١٥ نوفمبر ١٩٧٦

الرازي
في
مراسلات البيروني وابن سيناء

الدكتور صالح الحمارنه
قسم التاريخ والآثار
الجامعة الاردنية ـ عمان

لم تثر شخصية كبيرة في الحضارة العربية الاسلاميه من خصام واختلاف مثلما أثارت شخصية الرازى ويعود ذلك الى الرازى نفسه وما يتحلى به من شجاعة في الرأى وأصالة في التفكير وابتكار في الطب وتعمق في شتى علوم عصره هذا اولا ، وثانياً يعود ذلك الى الفترة نفسها ففي بغداد عاصمة الخلفاء وتحت رعايتهم قامت حركة علمية مباركة للترجمة والتآليف والتوزيع لا نظير لها في تاريخ العصور الوسطي قاطبة ، وقد أضاءت هذه الشعلة ليس في انحاء العراق وبلدان شرقي الخلافة فحسب بل في طول وعرض الامبراطورية العربية ، من بغداد ومرو وبخارى وريّ وغزنه الى دمشق والقاهرة والقيروان وفاس وقرطبة .

ففي دار السلام قامت حركة الترجمة وفيها انشيء اول المستشفيات في الاسلام وفيها نشأ أو اليها تقاطر العلماء والاطباء والحكماء . وعلى رأسهم فيلسوف العرب يعقوب بن اسحق الكندى العالم الكبير في شتى الفنون وكان من أساطين هذه النهضة خاصة في الترجمة وعلوم الطب حنين بن اسحق العبادى (٨٠٩ ــ ٨٧٢) الذى أسس مدرسة كبيرة في الترجمة والنقل .

وما ان قارب القرن التاسع على نهايته واهلّ القرن العاشر حتى سطع في سماء ريّ ثم بغداد نجم الرازى (٨٦٥ ــ ٩٣٢) بانتاجه الكبير والاصيل في علم الطب السريرى والكيمياء والطب الروحاني والمداواة النفسية والفلسفة الاجتماعية فكانت تآليف الرازى الكثيرة سببا في نضوج وأكتمال ما نقدر بحق ان ندعوه الطب العربي المتميز حينئذ بخصائصه الفنية واصطلاحاته ومناهجه التعليمية والتطبيقية وقد صهر في بوتقته علوم الاغريق الطبية مع الثقافات المحلية والتجارب الشرقية مكونا منها مادة

جـديدة(١) •

ففي هـذا الجو العلمي المزدهر وهـذه النهضـة الثقافية الكبيرة قامت في بغـداد وفي غيرها من عواصم الامصـار تيارات كثيرة متباينة ومتضاربة وأزدهرت مختلف المدارس في شتى العلوم والفنون تـذهب شتى الاتجاهات وكثرت معها ايضـا الخصومات والانتقادات ، وكان نصيب الرازى من هـذا كله وفير وخصب •

فقد انتقد الرازى آراء معاصره سهيل البلخي هـذا الفيلسوف المتطرف اذ نقض الرازى كتـاب البلخي في اللـذة وكتـابه الآخـر في نقض العـلم الالهي والمعـاد(٢) •

ثم وقعت المناظرات الشهيرة ما بين الرازى وبين ابي حاتم الرازى المتوفي (٣٢٢ هـ) الذى كان من كبار دعاة الاسماعيلية واشتهر بدعوته الى المذهب الفاطمي وقـد ردّ ابو حاتم هـذا على الرازى في كتـابه المعروف « بأعلام النبوة » • كذلك نقض عـلى بن اليمان أو (ابن التمـار) كتـاب الرازى « الطب الروحاني » وانتقد الكتاب نفسه حميد الدين الكرماني(٣) •

أما ابرز الانتقادات للرازى فكانت ضمن المراسـلات التى قامت ما بين الاستاذ ابو الريحان محمد بن احمد البيروني / ٣٢٦ ـ ٤٣٢ هـ / ٩٧٢ ـ ١٠٥١ م / ومعاصره الطبيب الفيلسوف ابو على الحسين بن عبد الله بن سيناء الشيخ الرئيس / ٩٧٢ ـ ١٠٣٨ م / • هـذه المراسـلات التى دارت حول أمور مختصـة بالفلسفة وعلوم ما وراء الطبيعة والفلك والرياضيات والطب

---

(١) سامي حمارنه : تـاريخ الطب والصيدلة عند العـرب ، القـاهرة ، مطبـعة دار التجليد الفنية ١٩٦٧ ، ص ١٩ ـ ٢٠ •

(٢) سامي حمارنه : فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية ، دمشق ١٩٦٩ ، ص٨١ •

(٣) الرازي : رسائل فلسفية جمعها وحققها ب كراوس ، القـاهرة ص١٥ ـ ١٧ وص ٢٩٠ وما بعدهـا •

وغيرها(٤) • ففي هذه « الاسئلة والأجوبة » هاجم كل منهما الرازى الطبيب وانتقد أرائه ، بل نرى ان ابن سيناء يحقر الرازى ويشهر به بشكل يثير الغرابة والدهشة ، فهو يستكثر على الرازى تدخلـه في أمور الفلسفة لأن العمل فيها مرتبة أعلى لم يصل اليها الرازى ويتساءل لم لا يبذل الرازى جهده في فحص أبوال مرضاه والنظر الى برازهم لتشخيص عللهم وتركيب الدواء النافع لهم فهو يقول عنه : ـ « محمد بن زكريا الرازى المتكلف الفضول في شروعه من الالهيات وتجاوز قدره في بطّ الجراح والنظر في الأبوال والبرازات ـ لا جرم فضح نفسه وأبدى جهله فيما حاوله ورامه (٥) » •

ويرد أبو ريحان البيروني في مكان آخر « في المسألة الرابعة » يقول : هذا جواب محمد بن زكريا فمتى صار مأخوذا برأيه وهو مكلّف فضولي(٦) •

ولا مجال للشك ان مثل هذا النقد القاسي والمرّ لا يقلل البته من مكانة الرازى الكبيرة وفضله المشهور في الطب العربي والثقافة الاسلامية في القرون الوسطى في الشرق وفي الغرب • نحن نعلم من مطالعتنا لكتاب « الاسئلة والأجوبة » وغيره ان البيروني يختلف عن الشيخ الرئيس ، فالرجلان لهما اتجاهات متباينة فكريا وعلميا وحتى خلقيا •• ومع هذا اتفقا على انتقاد الرازى واتهماه بأنه متكلف فضولي ترى ما وراء ذلك ؟ •

معروف ان البيروني قد كتب رسالة « في فهرست كتب محمد زكريا

---

(٤) ابو ريحان البيروني وابن سيناء ، الاسئلة والاجوبه ، تحقيق سيد حسين نصر ومهدي محقق •

(٥) ابو ريحان البيروني ، طهران ١٣٩٣ ـ ١٩٧٢ ن٠م ص ١٣ •

(٦) ابو ريحان البيروني ، ن • م • ص ٥٣ •

الرازي » وأعتني بنشرها وتصحيحها بـ كراوس(٧) ثم مهدي محقق من طهران وقد كتبها البيروني بناء على طلب بل والحاح من صديق له وكان ذلك سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٦ م وعمر البيروني آنذاك ٦٥ سنة قمرية / ٦٣ سنة شمسية • ويقول البيروني مخاطبا صديقه في مطلع الرسالة « انك تشوقت الى الاحاطة بزمان محمد بن زكريا الرازي على كمية كتبه التى عملها وأسمائها لتتطرق بذلك الى طلبها ، وأن ما تحقق لديك من ذكاء قريحته وذكاء فطنته وبلوغه من الصناعة أقصى مداها ، شوقك الى معرفة أول من ابتدأ بالطب واستنبطه وهذا وان كان بحثا خيريا فأنك لم تأت بالنزاع نحوه شيئا فريّا(٨)•

ويظهر ان البيروني كان مترددا كثيرا بقبول ما طلبه الصديق فأعتذر في البدء وقال انه ليس بكفء لمثل هذا الأمر الجلل ولكنه بالتالي يذعن لطلب الصديق ويقول « وأثبت لك من كتب أبي بكر ما شاهدته أو عثرت على اسمه ••• ولولا احترامي لك لما فعلته لما فيه من اكتساب البغضاء من مخالفيه وظنهم أني من شيعته » ، اذن يذعن البيروني وهو يحس بالحرج ذلك « ان الرازي عمل على الارشاد الى كتب ماني واصحابه « كيادا للاديان والاسلام من بينها » ويقول البيروني « ويوجد مصداق قولي في آخر كتابه في النبؤات(٩) وفي نهاية الرسالة نحس ان البيروني يعود متئدا في حكمه على الرازي اذ يختم قوله مؤيدا اياه : « ولست اعتقد فيه مخادعة بل انخداعا » ••• وجره الحال الى الاشتغال بالطب ••• وبلغ من الصناعة مبلغا عاليا واحتاج اليه كبار الملوك واستحضروه مبجلا » • ويصف لنا البيروني طريقة الرازي في الدرس والتحصيل فيقول « كان ـــ دائم

---

(٧) البيروني : فهرست كتب محمد بن زكريا الراوي ، تحقيق ب كراوس ، باريز مطبعة القلم سنة ١٩٣٦ •

(٨) البيروني : ن • م • ص ١ ـ ٣ •

(٩) البيروني : ن • م ص ٥ •

الدرس شـديدا ••• » يضـع سراجـه في مشـكاة على حائط يواجهـه مسندا كتابه اليـه كيما اذا غلبه النعاس سقط الكتاب من يده فأيقظته ليعود الى ما هو فيـه(١٠) وفي النهـاية يذكر لنا كتب الرازي وهو يقسمها حسب ما جاء في تحقيق كراوس الى : كتب في الطب ، وفي الطبيعيات وفي المنطقيات وفي الرياضيات والنجوميـات وفي التفاسير والتـلاخيص والاختصـارات ، وفلسفية وتخمينية وفي ما فوق الطبيعة والالهيات والكيميائيات ، والكفريات وفنون شتى ، حتى يصل الرقم الى ١٨٢ كتاب • في حين ان ابن أبي اصيبعة في كتـابه « عيون الانباء في طبقات الاطباء » يصـل عـدد كتب الرازي عنده الى ٢٣٢ كتابا(١١) •

لم يقتصر نقد البيروني للرازي على النواحي الفلسفية والمذهبية بل هناك له نقـدا آخر ، فحسب انه مصيب فيـه وهو في الأمور الهندسية وما يتعلق بأنقسـام الخط المنحني وما شـاكل فنقرأ في رسالة البيروني « في استخراج الاوتار الدائرة لخواص الخط المنحني الواقـع فيهـا ما يلي » وقفت على ما استعلمتينيه من السبب الـداعي أياي الى الولوع بتصحيح دعوى لقـدماء اليونانيين في أنقسـام الخط المنحني في كل قوس بالعمود النازل عليـه من منتصفها والتنفير عن خواصـه حتى نسبتني لأجله الى الاشتغال بما يـذكره محمد بن زكريا الرازي من فضـول الهندسـة من غير ان يشـعر بحقيقـة الفضول التي هي الزيادة على الكفـاية في كل شيء فأنه لو شعر بها لوجـد نفسـه مرتبكـة في فضول الوسوسـة التي أفسـد بها قلوبا متجافيـة عن الديانة أو شرهة بفضول الدنيا الى العتاد والرياسـة وليس مقـدار الكفاية من الهندسـة ما ظنـه الرازي وأشـار بفلسفته اليـه ، ثم عـادي باقيـة

---

(١٠) ابن ابي اصيبعة : عيـون الانبـاء في طبقات الاطباء ، تحقيق نزار رضـا ، بيروت ١٩٦٥ ص ٤١٤ ــ ٤٢٧ •

(١١) البيروني ابو ريحـان : رسـالة في استخراج اوتار الدائرة ، حيدر آباد الركن ، مطبعة جمعية دائرة المعـارف العثمانية ١٩٤٨م ص٣ •

ولم يزل الناس اعداء ما جهلوا(١٢) .

في انتقـاد البيروني للرازى يجب ان نلاحظ الأمور الجوهرية التاليـة ، منها ان كثيرا من كتب الرازى قـد فقدت وبهذا سقط من يدنا الدليل المادى القاطـع لكي نحكم فيما يذهب اليـه خصوم الرازى أو مريدوه وايضـا لا شـك انه قـد نسب الى الرازى كتب أو رسـائل لم يكتبهـا وليس هو بمؤلفهـا . وهـذا الأمر كان كثير الشيوع في تلك الفترة ، حتى ان البيروني نفسـه قـد نسبت اليـه كتب لم يؤلفها .

فهو يقول صراحة « ان ما عددته من كتبي مما عملته في حداثتي وازدادت المعرفة بعـد ذلك لم أطرحه ولم استرذله فانها جميعاً أبنائي والأكثر بأبنه ... مفتون ، ومما عملـه غيرى باسمى فهو بمنزلة الربائب في الحجور والقـلائد على النحور لا أميزبينها وبين الابناء »(١٣) .

اذن فان الهجوم القاسي والمركز على الرازى من البيروني وأبن سيناء ومن سبقهما ، كان من أسبابه على ما يبـدو كتب نسبت الى الرازى وحملت اسمه ولم تكن من بنـات أفكاره وبقلمه . فقصد نسبوا اليـه مثـلا كتـابا أظهر فيـه عيوب الانبياء ألفه بعض الدساسين على الرازى ويحمل الكتـاب اسم « مخـاريق الانبياء » ويقول عن هـذا الكتـاب ابن أبي اصيبعه : وهـذا الكتـاب ان كان قـد ألف ـ والله اعلم ـ فربما ان بعض الاشرار المعـادين للرازى قـد ألفـه ونسـبه اليـه ليسيء من يرى ذلك الكتـاب أو يسمع به الظنّ بالرازى ، والا فالرازى أجـل من ان يحـاول هـذا الأمر . وان يصنف في هـذا المعنى وحتى ان بعض من يـذم الرازى بل ويكفره كعـلي بن رضوان المصرى وغيره يسمون ذلك الكتـاب « كتاب الرازى في مخاريق

---

(١٢) البيروني : فهرست كتب الرازي ص ٤٣ .

(١٣) ابن ابي اصيبعه : طبقـات الاطبـاء ص ٤٢٦ .

الانبيـاء »(١٤) •

الأمر الـذى يثير الاستغراب ان الاستاذ البيروني عـالم عصره الكبير والذى كان من دعاة التفتح والانطلاق يضيق بتفتح الرازى وانطلاقه خاصـة اشتغاله بالفلسفة والرازى عاش في القـرن التاسـع ميـلادى الـذى معـه دخلت الى علوم الطب النظريات الرياضية والطبيعية والمنطقية ايضـا • وصار يوجب على الطبيب معرفـة الفلسفة كمـا كان يجب عليـه الألمـام بطبائع الاغذية والاطعمة والادوية وأمزجة الجسـم وكان الطبيب اخا للمنجم وعلى الطبيب ان يتخرج على أيدى علماء الكيمياء(١٥) •

اذن كان لابـد للرازى وهو أشهر اطبـاء عصره ان لا يلم بكـل هـذه العلوم فحسب بل ان يكون استاذا فيها • ومن هنا فقد اشتهر الرازى كأكبر الاطبـاء الفلاسفة الذين اتبعوا الفلسفة الطبيعية في الاسـلام • وقـد اخذ العـرب عناصر فلسفتهم الطبيعيـة ــ كما يقول بور من مؤلفات أوقليدس وبطليموس وبقراط وجالينوس ومن بعض كتب ارسطوو أخذوها الى جـانب هـذا من كتب كثيرة ترجع الى المذهبين الفيثاغورى الجـديد والافلاطونى الجـديد وهـذه الفلسفة الطبيعية هي فلسفة الجمهور • وقـد نالت قبولا لدى الشيعة ولـدى غيرهم من الفرق وأكبر من عمـل عـلى نشرها بينهم صـائبة حرّان(١٦) •

فقـد أشـار المسعودى في كتـابه التنبيه والاشراف الى ان الرازى كان يؤلف عـلى رأى الفيثاغوريين في الفلسفة الاولى وتحت تأثير الافلاطونيـة

---

(١٤) ت دي بور : تاريخ الفلسفة في الاسلام ، تعريب محمد عبد الهـادي ابو ريـده القـاهرة • مطبعة لجنـة التأليف والنشر ١٩٣٨ ص ٨٨ •

(١٥) بور : ن • م ص ٨٥ ــ ٨٨ •

(١٦) المسـعودي : التنبيـه والاشراف ص ١٠٦ ، بغـداد ، مكتبـة المثـنى ١٩٣٨ • سامي حمارنه : فهرست مخطوطات دار الكتب الظاهرية «الطب والصيدلة» دمشـق ــ مطبـعة الترقي ١٩٦٩ ص ٩١ •

الجـديدة وتعاليمهـا في سـنة (٩٢٣) . سبق في هـذه الاراء والطـرق أبو زكريا ابن عدى النصراني وأشهر فلاسفة بغـداد في عصره(١٧) .

والرازى وهو الضليع بالثقافة اليونانية يقف موقف الناقد لنواحي فيها فهـو يخـالف أصحاب ارسطو بقوله ان الجسـم يحـوى في ذاتـه مبـدأ الحركة ـ وذكر ابن أبي أصيبعه كتابا للرازى في هـذا المعنى وفكرة الرازى هـذه فكرة جـديدة تعـارض الفلسفة القديمه الموروثة وهي تشبه ما ذهب اليـه ليبنتز في القرن السـابع عشر وحسب رأى دى بور لو ان الرازى وجد من يؤمن به ويتم بناءه لكان نظرية مثمرة في العلم الطبيعي(١٨) .

كذلك فقد شك الرازى في كتابات جالينوس وارائه في التشريع والمداواة ، مع تقديره لنبوغه ومركزه العلمي ، وقـد أوضـح ذلك في كتابه الشـكوك والمتناقضات ، التى في كتب جالينوس ، وهـذا ما حـدا ببعض الاطباء الذين كانوا يجلون كلا الطبيبين ان يحاولوا التوحيد بين وجهتي نظرهما كمـا فعل عبد الله بن يوسف البغـدادى في كتابه حـل شيء من شـكوك الرازى على كتب جالينوس(١٩) .

ونستطيع القول ان البيروني الـذى خالف الرازى بل انتقـده بشـدة في الالهيـات والمسـائل الفلسفية نـراه هو نفسـه من المعجبين بالـرازى والمتأثرين به فيما كتب في العلوم الأخرى مثـل الكيمياء والطب ، وما اضافة البيروني لكتبه هو نفسـه ضمن فهرست كتب الرازى الذى أعـده الا دليلا ماديا قويا على انه يعتبر نفسـه تلميذا روحيـا لطبيب المسلمين غير مرافـع

---

(١٧) دي بـور : تـاريخ الفلسـفة ص ٩١ .

(١٨) سـامي حمارنه : فهرست مخطوطات الظاهرية ص ٩١ .

(١٩)

Martin plessner, The legaey of islam Ed. J. schaehtand c. Bos worth second Edition oxford Lg 74. P. 434-438.

الرازي العظيم(٢٠) .

اما بالنسبة للشيخ الرئيس ابن سيناء فالدكتور سامي حمارنه يقول « وقد اتضح لي من دراسة التآليف الطبية وغيرها لكلا الرجلين انه وان كان ابن سيناء يفوق الرازي ذكاء ودراية بأصول المنطق والفلسفة والالهيات وما وراء الطبيعة فالرازي يفوقه بكثير كطبيب وكعالم كيماوي بالاضافة الى ما يملكه من حرية الرأي ولا سيما في توجيهاته الاجتماعية التقدمية الرفيعة »(٢١) .



(٢٠) سامي حمارنه : فهرست مخطوطات الظاهرية ، دمشق ، ص ١٢٥ .

المراجـــــع :

ابن أبي أصيبعه ، عيون الانباء في طبقات الاطباء ، تحقيق نزار رضا بيروت ١٩٦٥ .

ادوارد جي براون ، الطب العربي ، تعريب داود سلمان على بغداد ، مطبعة العاني ١٩٦٤ .

ت ج ، دى بور ، تاريخ الفلسفة في الاسلام، تعريب محمد عبد الهادى أبو ريده ، القاهرة ـ مطبعة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٣٨ .

البيروني أبو ريحان محمد بن أحمد ، رسالة في فهرست كتب الرازي تحقيق وتصحيح ب كراوس ، باريز . مطبعة القلم ١٩٣٦ .

الأثار الباقية عن القرون الخالية ، تحقيق ادوارد سخاو بغداد ـ مكتبة المثنى .

ـــــــــ وابن سيناء ، الاسئلة والاجوبة ، تحقيق سيد حسين نصر ومهدى محقق ، طهران ١٩٧٢ .

ـــــــــ ، رسالة في استخراج الاوتار في الدائرة حيدر رآباد الركن ـ مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية ١٩٤٨ .

سامي خلف حمارنه ، أبو الفرج ابن القف ، القاهرة ـ مطبعة اطلس ١٩٧٤ .

سـامي خلف حمارنـه ، فهـرس مخطوطـات دار الكتب الظـاهرية « الطب والصيدلـة » ، دمشق الترقي ١٩٦٩ .

سـامي خلف حمارنـه ، تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ، القـاهرة مطبعـة دار التجليد الفنى ١٩٦٧ .

الرازى أبو بكر محمد بن زكريا ، رسائل فلسفية ضمنها ـ كتاب الطب الروماني ـ والمناظرات بين أبي حاتم الرازى وأبي بكـر الرازى جمعهـا وحققها ب كراوس القاهرة .

فؤاد سزكن ، تاريخ التراث العربي « المجلد الاول تعريب فهمي أبو الفضل ، القـاهرة ، الهيئة العامة للتأليف والنشر ١٩٧١ .

الصفدى صـلاح الدين خليل ، الوافي بالوفيات ، اسطنبول ـ وزارة المعـارف ١٩٤٩ .

مهـدى محقق ، فيلسـوف الرى ، محمـد بن زكريا الرازى ، طهران .

المسعودى أبو الحسن على بن الحسين ، التنبيه والأشراف ، بغداد ـ مكتبة المثنى « طبعـة الافست » ١٩٣٨ .

ـــــــــــ ، كتاب مروج الذهب ، الطبعة الثانية ، طهران ١٩٧٠ .

القفطي جمال الدين أبو الحسن ، اخبار العلمـاء بأخبـار الحكماء ، القـاهرة ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨) .

ابن النديم محمد ابن اسحق الفهرست ، تحقيق جوستاف فلوجل
ليبزج ١٨٧٢ •

Carl Brockelmann, Geschichte der arabischen Literatur, 2 Vols. Weimer-Berlin 1898-1902 und supplement Leiden, Brill 1937.

Hamarneh Sami,

— Al Biruni's Book on pharmacy pakistan, Karaehi1973.

— Origins of pharmacy and Therapy in Near East Tokyo, The Naito Foundation 1973.

George Sarton, Introduction to the History of Science 3 vols. Baltimore 1927-1949.

Je Schacht, and C. Bosworth The Legaey of Islam Oxford 1974

Campbell Donald, Arabian Medicine and Its influence on the Middle Ages (2 vols.) London 1926.

جمهوريــة اليمن الديمقراطيــة الشعبية

ســكرتارية مجلــس الرئاســـة

نـــدوة الحضـــارة اليمنيـــة



٢٢ ـ ٢٧ فبرايـــر ١٩٧٥ م

عـــــدن

الاصـول التاريخيـة للملاحم القحطانية

بقلـــم
ميخائيـــل بتروفســـكي
« معهـد الاستشراق • • لينينغراد »

ان دراسـة الاخبار عن اليمن القديمة التى احتفظت بها المؤلفات العربية الاسـلامية تكتسب أهميـة كبيرة في مجـال الأبحـاث اليمنيـة • وكثيرا مـا استخـدم هـذه المعلومات في عملهـم ولكن طابـع هـذه الاخبـار وتركيبها وأصولها لا تزال حتى الان غير معروفة بصورة كاملة وواضحة •

ومن الممكن تقسيم كافة الاخبار العربية والاسـلامية حول اليمن القديمة الى مجموعتين الاولى بقايا الحضـارة اليمنيـة التى لم تـزل تعيش ضمن الحضـارة الاسـلامية في اليمن • وتحتوى هـذه المجموعـة على معلومات حول الخط المسند واللغـة اليمنيـة القديمـة ووصف الخـرائب الآثارية (الهمداني) ومنهـا بقايا بعض التقـاليد والطقوس الماضية (انظر أبحـاث ديمكاس و سارجينتر) وبعض النماذج من الفولكلور اليمنى وبعض انسـاب القبائل • • ومنها التقاليد الزراعية الظـاهرة في الاعراف وفي التقويم اليمنى الزراعي (مثـلا القصيدة الزراعية) التى تشير الى الاسماء الحميرية للأشهر التى درسها (بيستون) • وقـد بدأ العمل من اجل جمع هـذه المعلومات من مؤلفات الطبرى وياقوت الحموى والهمداني ويقوم بهذه العملية القسم العربي في معهد الاستشراق في لينينغراد • والى نفس الاتجـاه يرمي مشروع اختيار الألفاظ اليمنية من كتب اللغويين العرب الذى اقترحتها (بيرين) •

ولا يحتـاج استخدام مثـل هـذه المعلومات الى الأبحـاث الادبيـة التاريخية التمهيدية لانهـا بقت كرواسب الحضـارة الماضية ولم تتغير كثيرا

نتيجة لانضمامها الى الحضارة الاسلامية •

ولا يمكن ان نقول نفس الشيء عن المجموعة الثانية وهي مجموعة الاخبار التى تكون التاريخ الاسطورى لليمن القديمة والنى سماها (كريمر) « الملاحم العربية الجنوبية » • وقد أصبحت هذه الاخبار جزءا لا يتجزأ من تاريخ العرب العام وقد تعرضت للتأثيرات الثقافية والسياسية العديدة • ولذلك لا يمكن استخدامها في الابحاث التاريخية بصورة واسعة قبل ايضاح أصولها التاريخية وعلاقاتها الحقيقية من واقع اليمن القديم • ويستهدف تقريرنا هذا الى تقديم بعض هذه الملاحم والاخبار شبه التاريخية •

ويشابه تحليل هذه الاخبار تنقيب البناية الآثارية التي يوجد فيها كثير من الاضافات والتغيرات من مختلف مراحل حياة البناية والتي استخدمت لتشييدها اجزاء المباني القائمة سابقا في نفس المكان أو مكان آخر • ويتلخص هدف الباحث في تمييز بين العناصر لتلك الطابع المختلف وفي تحديد أصولها وتاريخها والترابط بينها •

وقد حاولنا ان نحقق مثل هذه العملية بنسبة الى الملاحم العربية الجنوبية أو القحطانية • وأنها وصلت الينا ضمن الكتب العربية العديدة مثل (كتاب التيجان) و (سيرة النبى) لابن هشام و (تاريخ) و (تفسير) للطبرى و (اخبار عبيد بن شرية) و (سيرة دغفل الشيباني) و (وصايا الملوك من ولد قحطان) وفي المؤلفات الكثيرة لهشام الكلبى والمهداني ونشوان الحميرى •• الخ ••

وتضمن هذه الكتب مجموعة الاساطير والملاحم المركز حول المحور التاريخي الوحيد • وتبدأ سلسلة الأجدات الاسطورية من عهد يعرب وعبد شمس ــ سبأ وقصة لقمان الحكيم وبنى عاد • كان تقسيم السلطة بين بنى عبد شمس : حمير وكهلان نقطة الانعطاف التاريخي وبعدها جاء

التبابعة وهم الملوك من ولد حمير وكانوا بينهم الغُزاة الكبار مثـل الحـارث الرائش وأبرمـة ذى المنـار وأفر وعمرو ذى الادعار والأخرين • وانقطـع حكم التبابعة في وقت بلقيس ملكة سبأ • وعادت السلطة الى الأسرة التقليدية في عهد ياسر ينعم ومن أولاده المشهورين : شمر يرعش الـذى دمر سمرقند وأسعد الكامل صـاحب الأيمان بالله • وبعـد ذلك جاءت مرحلة الصراعات الداخلية وخرجت سـد مأرب وهاجرت قبيلـة الأزد الى الشمال والمرحلـة التاليـة كانت وقت حكم ذى نواس والاحتـلال الحبشي ووقت حملة ابرهة الاشرم على مكة وبطولة سيف بن ذى يزن والغزو الفارسي لليمن •

وتشير الدراسـة الدقيقة لهذه المؤلفات انها أخـذت اخبارها عن الكتب والاشخاص من الفترة ما بين القرن السابع واوساط الثامن الميلادى وهذا هو وقت تدوين وتثبيت الملاحم القحطانية • وما هي الظروف التى جرى فيها هذا التدوين ؟ والى أى درجـة قـد تسنطيع هـذه الظروف الخارجيـة ان تأثر على تغيير الاخبار الاصلية ؟ •

ان هـذا العصر ، عصر الدولة الاموية ، كان يتميز بالصـراع العنيف بين تجمع القبائل اليمنية (القحطانية) وتجمع القبائل الشماليـة (العدنانية) وجرى النضـال من أجل حصول على المواقع القيادية في الدولة الاسلامية • وأن الاحـداث السياسية وأهمية هـذا الصـراع معروفة للجميـع معرفة جيدة • وبالنسبة الى هدفنا من الضرورى ان تشير فقط الى بعض الوقائـع المهمة •

اولا : ان القحطانية كانت تجمعا غير منسجمة وكانت تتكون من القبائل التى خرجت من اليمن مع الاسـلام (حمير • كنده) ومن القبائل العربيـة السورية (كلب • جزام) وكان الاصـل اليمنى القحطـاني لهـذه القبائل الثانيـة موضـع الشك والنقاش وكان يحتاج الى الدلائل الثابتة •

ثانيا : ان مجـد اليمن القـديم وتقليد سيطرة الملوك اليمنيين عـلى

جميع العرب كانت الحجة الرئيسية لتثبيت حق القحطانيين الى الدور السياسي القيادي في الدولة العربية الجديدة . وقد خلقت هذه الظروف الخاصة الطلب الاجتماعي لتدوين ونشر الاخبار التاريخية حول اليمن وانها سببت حفاظا على التراث من الجانب التاريخي وأدت الى تغييره وتكييفه للأوضاع السياسية الجديدة من الجانب الآخر .

وأن اليمنيين الذين اشتركوا في انشاء العلوم العربية الجديدة مثل علم التاريخي وعلم الانساب وعلم التفسير وعلم الحديث (كعب الاحبار ووهب بن منبه ومعاويه بن صالح .. الخ ..) والذين قاموا بتطوير الشعر السياسي والشعر العاطفي . (اعشى همدان ويزيد بن مفرغ)(وعلقة بن ذي جدن ووضاح البن .. الخ ..) انهم جمعوا اخبار عن ماضي بلادهم واستخدموها للأغراض السياسية عندما كانوا يمدحون الثروة والجبروت والايمان والتقوى للقحطانيين القدماء وهكذا تشير تحليل الحياة السياسية والثقافية في عهد الدولة الاموية الى ان العملية التى هاجرت في القرن السابع والثامن لم تكن تدوينا عاديا فحسب بل انها كانت تحولا ابداعيا وللاخبار عن اليمن القديمة .

ولكي بأية الطرق قد حققت هذه العملية الابداعية لازم تنظر على النصوص الشعرية والنثرية . وقد اخترنا أوسع وأشهر مجموعة من الملاحم القحطانية وفحصنا استنتاجات دراستها بمقارنتها من كافة الملاحم الأخرى . والمجموعة التى اخترناها هي الملاحم عن اسعد الكامل الذى كان مشهورا كالغازى العظيم وفتح الجزيرة العربيه كلها والعراق وسورية ومصر وايران واسيا الوسطى وكان معروف في الاساطير ايضا كالملك المؤمن الذى حارس الوثنيين وقدم القرابين للكعبة وعبد الله وأعتنق دين التوحيد . وقد نسبت اليه قصائد عديدة وكان الناس يزعمون انه تبع الذى ذكره القرآن الكريم في سورة « الدخان » (اية ٣٧) .

وتنعكس الخطوط العريضة لهذه الاساطير الظروف التاريخية الواقعية في عهد الملك الحميرى أبو كرب اسعد (الفترة ما بين نهاية القرن الرابع وأواساط القرن الخامس الميلادى) أن نقوش من تلك الفترة تثبت أهمية المرحلة في التاريخ اليمنى • وقد توسعت الدولة اليمنية الموحدة الى أقصى حدودها التاريخية وأخذ الملك اللقب الجديد • ملك سبأ وذى زيدان وحضرموت ويمنت اعرابهم طورا وتهامه •وقامت الدولة بالسياسية النشيطة في المناطق الوسطى والشرقية من الجزيرة العربية وقد تعزز نفوذ القبائل البدوية وظهر الاعيان الجدد (الاقطاعيون) • وفي تلك الفترة بدأ في اليمن التنقل من الديانة القديمة الى النوحيد وتظهر في النقوش العبارات التوحيدية وانتشرت الديانات المسيحية واليهودية • ولذلك كان عصر حكم أبو كرب اسعد مرحلة مهمة في حياة جنوب الجزيرة العربية ولعبت الظواهر الجديدة التى نشأت في هذا الوقت دورا كبيرا في تطور البلاد اللاحق • وتأكد المعلومات التاريخية المكانة البارزة التى احتلها أبو كرب اسعد الكامل في الملاحم القحطانية ويشير هذا الى وجود الأسس التاريخية والواقعية لهذه الملاحم والاخبار •

وتحكي الملاحم القحطانية عن المواضيع والمواد المشابهة • وكان موضع القدر من أهم المواضيع في اشعار اسعد الكامل والتابعة الآخرين وفي وصايا الملوك والنصوص الأخرى • ويكشف التحليل الدقيق ان هذا الموضع في الاخبار القحطانية كان يتميز بالوظيفة الخاصة وكان الكلام حول القدر يرمي الى تبرير شعوب الوثنيين القدماء والى تأكيد حق الاخلاف على مجد الاسلاف وكانت هذه الوظيفة الفكرية تخدم مصالح القحطانيين السياسية • ان هذا وطريقة استخدام الكلمات القدرية تشير الى ان هذه الملاحم قد اتخذت شكلها النهائي والثابت في العهد الاسلامي في فترة القرنين السابع والثامن •

ومن مواضـع المـلاحم الاساسية وصف الحملات العسكرية وتحتوى هـذه القصص على كثير من الاخبـار الخياليـة الرامية الى تعزيز ومـدح الملوك اليمنيين القدماء وقـد اثبتت هـذه القصص من المصـادر المختلفـة العـديدة • والمصـدر الاول هو حكايات حول الفتوح الاسـلامية • ومن هـذه الحكايات مثـلا ولدت قصـة تدمير سمرقند واحتلال الثبت في عهد شمر يرعش • والمصـدر الآخر هو الرواية المشهورة عن الاسـكندر الأكبر وقـد دخلت اسـاطير من هـذه الرواية الى مـلاحم لأسعد الكامل (حملة الى أرض الظلمات) ولياسر ينعم (حملة الى وادى الرمل) ولعمر ذى الادعار (لقاء مع الناس الذين كانت عيونهم في صـدورهم) وللأقرن (سير الى منبع الحيـاة) • وحتى الاسـكندر نفسـه كان يعتبر ملكـا يمنيـا تحت لقب ذى القرنين • وأصبح اسعد الكـامل بطل القصص العربيـة الشمالية التى كانت أصـلا مرتبطـة بالأشخاص والعصور الاخرى • وان قصـة حصـار يثرب هي الشـكل الجـديد للاسـطورة المحليـة عن أبو كرب بن جبلـة (القرن السـادس) •

وقصـة غزو العراق ليست الا الرواية الأخرى للأحـداث التاريخية من القرن السـادس ايضـا عندما كانت الحيرة محتلة من قبـل الملك الكندى الحـادث بن عمـرو • والتحقت قصـة غزو الفيـل (القـرن السـادس) في الملحمة حول حملة اسعد الحجازى • وأصبحت الأحـداث الواقعيـة من حكم ملك تدمر اذينه (القرن الثـالث) جزء من الترجمة الاسطورية لحيـاة الملك الحميرى شمر يرعش •

وقـد أعلن ان اسعد الكامل مذكور في القرآن الكريم تحت اسم تبع وأن المـلاحم القحطانيـة بصـورة عامـة قـد اشتملت على كثير من القصص والشخصيات القرآنيـة وحتى على تلك التى كانت أصـلا غير مرتبطـة بـ (ارم ، لقمان ، شعيب ، ذو القرنين) •

ولكن بعض الاخبار مثلا الاخبار عن حملة اسعد الحجازية ، وعن اعتناق دين التوحيد تناسب الوضع التاريخي ومن المحتمل انها انبثقت من التراث اليمني الاصلي الذى تعرض فيما بعد للتوسع والتشويه والحجاز وسورية .

وتهتم جميع الملاحم بوصف الجيوش الحميرية وان قائمة القبائل التى اشتركت في الحروب غير واقعية وتنعكس في الحقيقة العلاقات القبلية التى نشأت في العهد الاسلامى فقط . ولكن المصادر والرسوم القديمة تثبت صحة وصف الاسلحة ونظام الجيش الحميرى (مثلا تنسيق بين الخيل والمشاة او بين وحدات البدو ووحدات الحاضر . وهذا يشابه عبارة النقوش : خمس واعرب او خمس وافرسن) .

وتثبت دراسة اسماء الاماكن واعلام المذكورة في الملاحم وجود الاصول اليمنية العميقة لهذه الاخبار . وان هذه الاسماء هى يمنية حقا وكثير منها مذكور ايضا في النقوش .

وتتميز الطبقة اليمنية الحقيقة داخل الملاحم القحطانية بالخاصية المهمة . ان جميع الاخبار التاريخية الواقعية عن اليمن القديم مرتبطة بمرحلة تعزز دور القبائل البدوية في حياة البلاد . والمحور الاساسى لتاريخ اليمن الاسطورى هو تقسيم السلطة بين حمير وكهلان الذى كان جدا لجميع القبائل اليمنية البدوية . ولاتعرف الملاحم الملوك من الفترة مابين القرن الثالث والسادس الميلادى وتبرز بصورة خاصة الملوك الذين قاموا بالسياسة النشيطة في المناطق الشمالية من اليمن وخارجها . (شمر يرعش وابو كرب اسعد) . ولم تذكر الملاحم اية الاحداث في جنوب اليمن ولا الحروب الاولى مع الاحباش وانها قد نست حتى غز حضرموت ويمنت في عهد شمر يرعش . ويتركز وصف الجيش على القبائل البدوية بالدرجة وتشير هذه الخصائص الاخرى الى ان اصول الملاحم القحطانية البدائية الاولى كانت مرتبطة بالفئات الجديدة في المجتمع اليمنى . بالقبائل

البدوية وبالاعيان الاقطاعيين الجدد والى درجة باليمنيين المتهودين ٠

وتتيح هذه الاستنتاجات الفرصة لنعيد تاريخ تشكيل وتكوين الملاحم والاخبار القحطانية ٠ وانها نشأت اولا اثناء المرحلة المتأخرة من حياة الحضارة اليمنية القديمة ٠ في عهد الحميريين الاخرين عهد السياسة النشيطة في الجزيرة العربية عهد تعزز قبائل البدو وظهور الاعيان الجدد في عهد التحول الفكرى نحو التوحيد ٠

وقد نقلت هذه الاخبار الاصلية الى الحجاز مع اليمنيين الذين اسلموا وهناك انضمت اليها بعض الاخبار العربية الشمالية وبعض القصص القرآنية٠ وان جزء من هذه الاخبار الجديدة كان في الحقيقة تحكى عن اليمن ولكن الجزء الكبير منها كان لا يملك اية علاقة مع اليمن القديمة وتاريخها ٠ وحدثت هذه عملية توسيع الملاحم اليمنية في ظل الصراع بين المهاجرين والانصار (القحطانية) وانها كانت جزءا من نشاط اليمنيين في مجال تفسير القرآن حسب مصالحهم السياسية والاجتماعية ٠

وبعد تعاظم الصراع بين القحطانيين والعدانيين في سورية اتخذت الملاحم القحطانية التوجه السياسي والفكرى الواضح وانها ازدادت مواضع جديدة مقتبسة من رواية عن الاسكندر الاكبر ومن قصة الفتوحات الاسلامية٠ وفي نفس الوقت (في نهاية القرن السابع واواسط القرن الثامن) بدأت عملية جمع وتدوين هذه الملاحم من قبل الناس مثل عبيد بن ثرية ووهب بن منبه ويزيد بن مفرغ ٠٠٠الخ ٠

وعندما انخفض الصراع بين التجمعات القبلية في نهاية القرن الثامن انتهت معه تطور ونمو الملاحم ٠ وعادت الى اليمن في فترة بين القرن العاشر والثانى عشر واغتنت هناك بالاخبار الجديدة التى بقت في عقول سكان البلاد ٠ (مثل بعض قطاعات من الفولكلور في شرح القصيدة الحميرية وبعض الاشعار التى تذكر اسماء الملوك العديدة في (الاكليل للهمدانى) ٠ وقد

اتخـذت الملاحم القحطانية شـكلها الادبى النهائي التام في مؤلفات نشوان الحميرى .

وفي نهاية هـذا الموجز يمكن ان نشير الى مجال التاريخ اليمنى الـذى يسـتطيع الباحث ان يسـتخرج معلومات عنه من الملاحم القحطانية . وهو المعلومات عن الاحداث والظواهر السياسية من الفترة مابين القرن الرابع والسـابع وبصورة خاصة عن عصر بين نهاية القرن السـادس واواسـط القرن السـابع ولاتوجد لدى العلماء اية نقوش من هذا الوقت . ويشـير بحثنا ايضا الى ان قبل استخدام الملاحم كمراجع تاريخية من الضرورى فرز طبقاتها العليا .. يعنى المعلومات ذات التوجيه السياسى الواضح وقصـة الفتوح الاسلامية والاخبار العربية الشـمالية واجزاء من رواية للاسكندر الاكبر .

وتكتسب الملاحم القحطانية اهمية كبرى كمراجع للدراسات التاريخية الثقافية . وانها قد ربطت بين حضارة العرب قبـل الاسـلام وحضارتهم الاسلامية واصبحت هذه الملاحم اساسا لتاريخ العرب العام وكانت ايضـا مصدر لكثير من القصص والاخبار الخيالية والذكريات التاريخية التى تمتلأ بها الكتب العربية في العصور الوسـطى سـواء الادبيـة او التربوية او التاريخية او الفلسـفية او الجغرافية او الدينية . واصبحت هذه المجموعة من الاشخاص والحكايات التاريخيـة صفة من الصفات المميزة للحضـارة الاسـلامية .

وفي اعتقادنا تشير هذه الاستنتاجات ليس الى اهمية الملاحم القحطانية لتاريخ اليمن فحسب بل والى الافق الواسـع لدراساتها المقبلة ..

روابط الايمان بين مصر وأفريقيا

بقلم
الدكتور عبدالمنعم ماجد
استاذ التاريخ الاسلامى
ورئيس قسم التاريخ بآداب عين شمس

لقد كانت لمصر مكانة في تاريخ افريقيا الخاص ، مساوية بمكانتها في التاريخ العام . فبالاضافة الى دورها المعطاة في الحضارة الانسانية ، فأنها اختصت افريقيا من دون القارات الاخرى ، بحمل رسالة الدين اليها .

وافريقيا نفسها ، في الزمن القديم او الوسيط ، لم تكن تعرف الا مقرونة بأسم مصر . فقد كان الجغرافيون اليونان ومن بعدهم المسلمون ، يقسمون المعمور من الارض ثلاث قارات(١) اذ لم تكن الامريكتان واستراليا ونيوزيلندا قد اكتشفت بعد ، وهى : اوربا او مايسميه المسلمون اورفي ، وهى تسمية محرفة لاوربا ، وذلك لعدم وجود الباء في لغة الضاد ، مثلما يقولون عن بلاتون افلاطون ، وآسيا ووصفوها بالكبرى ، لان رقعتها واسعة ولوبيه التي بها مصر ، وهذه الاخيرة هى تسمية افريقيا ، التى لا تعرف الا بمصر ، على اساس انها مجتمع القارات في رأيهم .

حقا ، ان جغرافيي المسلمين اطلقوا اسم افريقية ـ بكسر الالف والتاء المربوطة ـ لتعنى البلاد الملاصقة لمصر ، وفرقت(٢) بينها وبين بلاد المغرب ، الواقعة في الشمال من القارة فهى مطابقة للتسمية اللاتينية القديمة

---

(١) ياقوت معجم البلدان : ٧ ص ٣٤١

(٢) نفسه : ١ ص ٣٠٠ .

التي اطلقها الرومان على هذه البلاد ايضا ، كتقسيم اداري ، ثم اصبحت افريقيا تطلق بعد ذلك ، على كل جزء كان يتم كشفه ، الى ان عممت على القارة كلها .

اما غير مصر وافريقية والمغرب ، فكان يسمى السودان ، ليشمل البلاد التي تمتد من جنوب مصر الى خط وسط الارض ـ الاستواء ـ ومن البحر الاحمر الى المحيط الاطلسي ، ويعيش فيها السود او الأساود ، ويشقها نهر النيل الذي اصبح اسما لكل نهر في افريقيا ، اذ لم يكن يتصور وجود غيره ، وان روافده تمتد الى كل ناحية فيها ، حتى ان الرحالة المشهور ابن بطوطة ، سمي النيجر نيل مصر ، ووصفه وكأنه ينحدر من بلاد النوبة في جنوب مصر .

اما جنوب السودان ، فلم يكن يعرف عنه شيء ، واعتبر من الخراب ، يسكنه الهمج (٣) الذين يشبهون التتر في تدوير وجوههم(٤) ، وان منهم قوما يأكلون لحم البشر . ومع ذلك ، فنذكر ملاحظة المؤرخ المسعودي(٥) ، الخاصة بخرائط المصريين القدماء ، ومن بعدهم اخذ اليونان والمسلمون ، بتقسيم الارض الى سبعة اقاليم ، جنوب وشمال خط الاستواء ، مما قد يعني ان القارة الافريقية تمتد الى ما بعد خط الاستواء .

وفي الزمن القديم أو الوسيط كانت مصر وحدها تحرس منفذي أفريقيا الوحيدين ، وهما طريقا البحر الأحمر وسيناء ، اذ أن أفريقيا من الناحية الجغرافية تعتبر قارة مغلقة ، بسبب أن السلاسل الجبلية الضخمة تحيط بسواحلها ، والشعاب المرجانية تطوق مياهها ، فضلا عن أن أغلب أنهرها لا تنفذ الى البحر . فما دامت مصر قوية ، كانت أفريقيا في مأمن ، ودليل ذلك ، أنه لما فقد أسطول مصر في أيام المماليك ، بهزيمته أمام البرتغاليين ،

---

(٣) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ٩ ص ٢٧٣ .

(٤) نفسه ، ٥ ص ٢٣٧ .

(٥) التنبه والاشراف : ص ٣١ .

فـأن ذلك أتـاح للاستعمار الأوربي تثبيت قدمـه في القـارة ، حيث كـان الأسطول المصرى ، يقف بالمرصـاد لكل من يدنو منها •

ومنذ أن أشرقت حضـارة مصر القديمـة على القـارة ، وكانت أساطيل مصر تجوب موانى البحـرين الأبيض والاحمـر والمحيط الاطلسي • بـل ان ملوك مصر العليـا ، حكموا في وقت ما مصر والنوبة والحبشـة ، كمـا كان الأثيوبيون ـ وهم سـكان الحبشـة ـ يكتبون بالهيروغليفية قبـل كتابتهم بلغتهم الحاليـة ، وأن معتقدات مصر الدينية كانت وحدها السـائدة •

أما في العصر المسيحي ، فأن دور مصر في القارة ظل كبيراً أيضـا ، اذ عن طريقها انتشرت المسيحية الى أنحـاء متعددة فيها ، وأضحت أفريقيـا المتنصرة تـدين بالولاء الديني لكرسي الاسكندرية المصرى ، من دون كراسي المسيحية الأخرى ، فلم يكن تصـح ولاية أى ملك في النوبة أو الحبشـة الا بموافقـة بطرك الاسكندرية ، بحيث كان بطاركة الاسكندرية في رأى المؤرخ المصـرى القلقشندى ، هم ملوك النصرانية في أفريقيا(٦) ، وكان ملوك النوبة والحبشـة يدعون حفظ مجارى النيل المنحـدر الى مصر •

فلما جاء الفتح العربي لمصر ، فأن ارتباط مصر الـديني بالقـارة ازداد عن ذى قبل ، فهي من دون أى بلد آخر ، ارتبطت بالنوبة المسيحية ، بمعاهدة عرفت بالاسـم المشهور : « البقط » ، وهي كلمة من أصـل فرعوني أو غيره ، تعني « الاتفـاق » الذى بمقتضاه تبقى النصرانية في النوبة في أمان ، مما هيأ لكنيسـة مصر أن تنشر مذهبها الأرثوذكس أو اليعقوبي ـ كما كان يسمى في العصور الوسطى ـ بين السـود في جنوب مصـر على نطـاق واسـع ، شملت منـاطق متعـددة امتـدت الى الحبشـة • ومن ناحيـة أخرى ، فان « البقط » كان يسمح بتنقل النـاس والتجـار ، مما ترتب عليـه وفود كثير من السـود الى مصـر ، حتى أنه من كثرتهم ، أصبح الخليفـة الفاطمي يعرف

---

(٦) صبح الاعشى : ٥ ص ٣٠٨ •

بصاحب السودان ، مثلما كان يعرف بخليفة المصريين •

ولا شك أن دور مصر في نشر الاسلام في القارة ، لا يقل عن دورها في نشر المسيحية ، ولا سيما منذ أن فتح المماليك النوبة ، في القرن الرابع عشر الميلادي ، وتوغلت القبائل العربيه الوافدة من مصر في نواحي متعددة من السودان شرقاً وغرباً ، بحيث زحف الاسلام من النوبة زحفا سريعا ، ولكنه لم يفلح في ان يشمل الحبشه كلها • فكان فقهاء مصر ، يذهبون الى أنحاء مختلفه من السودان ، لتعليم الدين والفقه ، كما وجدت في الأزهر أماكن مخصصة للسود ، يتعلمون فيها علوم الاسلام ، ومدرسة مالكية لهم في الفسطاط •

ولا مجال للمقارنة بين أثر الاسلام في أفريقيا في العصور الوسطى ، وأثر أى دين آخر ، انتشر فيها من قبل أو بعد ، وذلك لأن الاسلام بطبعه ، عقيدة للبشر جميعاً كانت تحمل معها للسود العزة والكرامة ، وتذوق الحضارة • وفي الواقع ، لم يكن يوجد قبل الاسلام في أفريقيا السوداء ، حضارة جديرة باسمها ، كما أن المستعمر الأوربي فيما بعد ، لم يجد مقاومة في هذه القارة ، الا من قبل المسلمين • فالاسلام بذرة ، أينعت شجرة باسقة ، زرعت لها جذور عميقة في مصر ، امتدت فروعها الى ما حولها •

وقد ترتب على انتشار الاسلام في أفريقيا ، ظهور ممالك وأمبراطوريات للسود ، لأول مرة فيها ، شملت السهول الفسيحة في حوض السنغال والنيجر ، لها أنظمة حضاريه ذات طابع أسلامي ، مثل ، غانة التي لعلها اسم عاهل عربي مسلم ، حكم هو وسلالته شعوب السوننكة أو الساراقوليين ، ومالي أو التكرور ، التي حكامها من شعب المندنجو ، الذى هو من أوائل الشعوب التى اعتنقت الاسلام في غرب أفريقيا ، وأمتدت سيطرته من المحيط الى نواحي دارفور في السودان الحالي ، فشملت أقاليم

غانه ومـالي والتكرور وصوصـو والبرنو وكانم ، وسنغى أو سنغاى ، التى تأسست من شعوب السوركو والجابيبى في القرن السابع الميلادى ، وأمتدت نفوذها على الأقاليم السـابقة التى كانت ضمن مملكة مالي ، حتى بلاد الحوصا أو الهوسـا ، في وسط القـارة ، واستمرت الـى القـرن السـادس عشـر الميـلادى في العصر الحـديث .

وليس أدل عـلى ارتبـاط مصـر بهـذه الرقعـه الاسـلامية الكبيرة في السـودان ، من سعى ملوكها ان يقلدوا سلطتهم الشرعيـة من قبل خليفـة مصر العباسي ، الذى انتقلت خلافته الى مصر ، بعـد سقوط بغـداد في أيدى المغول ، اذ كان من المصطلح عليـه عند المسلمين وقتذاك أن لا سـيادة بدون تفويض من خليفـة المسلمين . فكان الخلفـاء العباسيون في مصر ، يصبغون الشرعية على حكم ملوك السود المسلمين في السودان ، مثلمـا يفعلون بالنسبة للسلاطين في مصر ، أو الحكام المسلمين في جميع بلاد الأسـلام . فكان ملوك السودان يجـدون في هـذا التقليد الشرعي من خليفة مصر نوعا من التبرك ، يكسبهم الهيبـة والجـلال بين رعاياهم ، حتى أن أحـدهم تلقب(٧) : سيف الخـلافة ، ظهر الامامـة ، عضـد أمير المؤمنين ، مما يبين الارتباط الوثيق بخليفـة مصـر .

وقـد ترتب على ذلك ، زيارات ملوك السـود المسلمين لمصر باستمرار ، ولا سيما وهم في طريقهم الى الحج ، حيث ينزلون في دار الضيافة في القاهرة ، المسماة : « الـدار السلطانيـة »(٨) ليشـاركوا في موكب الحج العـام الى الحجـاز ، الذى كانت تحتفل به مصر ، بسبب أنهـا كانت ترسـل الكسوة الشريفـة الى الكعبـة ، التى اشتهرت باسم : المحمـل الشريف ، حيث كانت

---

(٧) انظر . بعـده .

(٨) انظر . ماجـد ، نظم المساليك ورسومهم بالجـزء الثـاني .

تصنع من القماش المصري ، الـذي يسمى : القبـاطى ، لأنه نسب صنعه الى القبط • فكانوا في أثناء اقامتهم في مصر ، يستقبلون استقبالا رسمياً حافـلا ، من قبل سلطان المماليك ، الذي يجلس على تخت الملك ، الـذي هو على هيئـة منبر الجـامع ، في القاعـة الفخمـة ذات الأعمـده « الايوان » في القلعـة في القـاهرة ، وقـد اصطف الأمـراء المماليك، ورجـال الـدولة المـدنيين من ارباب الاقلام ، ومن رجال الدين من القضـاة ، وعلى راسهم الخليفـة ، لمـا يوجـد التراجمـه ليترجموا عند اللزوم ، حتى عرف استقبال ضيوف مصر ، من رسوم القصر المملوكي باسم . « موكب الايوان » •

ولعل اشهر من زار مصر من ملوك السودان المسلمين ، اثنين أحدهما ملك مالي ، المسمى : كنكان أو كونجو او منسا موسى • وان عرف للمصريين باسم : ملك التكرور ، الذى هو أقليم في امبراطوريته الواسعه في عام ١٣٢٤/٧٢٤(٩)، والآخر الأسقيا محمد الاول الكبير ، أو ممادو « محمد » تورى ، ملك سنغى أو سنغاى ، في عـام ١٤٩٥/٨٩٩(١٠) ، حيث حضـر مـع الأول أكثـر من ستين ألفـا ، بينهم فقط اثنتا عشـرة وصيفة(١١) ، بعـد رحلـة دامت سبعة أشهر ، وخرج الى القـاهرة عند أهرام مصر •

ولقـد قابلت منساموس بالذات ، في زيارته لمصر ، مشكلة تقبيل الأرض أمام سـلطان المماليك ، محمد بن قلاوون • فقـد كان من رسـوم البـلاط المماليكي ، أن يقبل الضيف الأرض أمام السـلطان من بعيـد ، عنـد أوائل البسـاط ، الممتد الى تخت الملك ، وأن يعود الى تقبيـل الأرض مرة ثانيـة وثالثـة ، كلمـا اقترب من السـلطان • وفي أول الأمر تردد منسـاموسى ،

(٩) ابن ايـاس ، بدائع الزهـور ، ١ ص ١٦٣ •

(١٠) انظر ، نفسـه عـام ١٤٩٥/٨٩٩ • حضر معه اثنا عشر الفـا •

(١١) صـبح الاعشى ، ٥ ص ٢٩٦ •

في أن يقبل الأرض(١٢) ، على أساس أنه مسلم لا يسجد الا لله • ولكن تحت تحريض أحد الموجودين في الايوان ، فانه قال في نفسه : ان سجوده لله ، وليس لشخص ، ثم قبل الأرض • وما لبث السلطان المملوكي أن قدّر منزلة ضيفه السوداني الكبير ، فقام له بعض القيام ، وأجلسه الى جانبه ، وتحدث معه طويلا ، وكان يزوره في قصر الضيافة ، طوال مدة اقامته في مصر ، قبل ذهابه الى الحج ، وحتى بعد عودته منه ، كما أوصى أمير الحاج وأمير مكة به •

ومن الطريف أن نذكر ، أنه كان من مراسم استقبال ضيوف مصر أيضا ، أن تصرف لهم الخيل والجرايات والمرتبات ، وأحياناً ترسل لهم جوارى أبكاراً ، وعلى الخصوص الملابس المسماة : « تشريفة » أو « خلعة » ، لتعني ملابس رسمية ، لأنها تحمل بالضرورة اسم السلطان ، وحتى اسم خليفة مصر ، فقد أرسلت الى منساموس المذكور خلعة(١٣) ، تتكون من رداء من القماش الحرير ، الذى عليه رسم وحوش « طردوحش » ، محلّى بقصب كثير « مقصب » ، وبشعر « سنجاب » ، وفرو « مقندس » ، ليلبسه فوق ثوب آخر مشقوق « مفرج » من الحرير أيضا ، مصنوع في الاسكندرية « اسكندري » ، كما أرسلت له طقية « كلوتة » ، مطرّزة « زركش » ، لها زوائد « كلاليب » من ذهب ، تلف حولها عمامة « شاش » من الحرير ، موصول طرفها بحرير أبيض مزخرف « رقم » ، عليها بارزاً اسم خليفة مصر العباسي « خليفتي » ، وكأنها تاج على رأسه من خليفة مصر ، وحول وسطه حزام « منطقة » من ذهب مرصّع ، وسيف محلي •

---

(١٢) نفسه ، ٥ ص ٢٩٥ — ٢٩٦ •

(١٢) نفسه : ٥ ص ٢٩٥ — ٢٩٦ •

(١٣) نفسه : ٥ ص ٢٩٥ •

ولدينا وصف، لاستقبال آخر ، لقصاد ملك الحبشة ، وهم من النصارى ، حيث كانوا يدينون بالولاء لبطرك اليعاقبة في مصر ، الذى صار لديهم الخليفة على دين النصرانية عندهم ، فكانوا يستقبلون أيضا استقبالا رسمياً حافلا من قبل السلطان المملوكي ، وفي القاعة الفخمة ذاتها بالقلعة • فقد كان عددهم ستمائة شخص ، بعضهم عرايا مكشوفي الرأس ، في أذن كل منهم حلق من ذهب ، وفي أيديهم أساور ذهب ، ورئيسهم عيله الحرير الملون ، ويلبس على رأسه خوذة من المحمل الحمراء ، فيها صفائح ذهب ، ثبت فيها درة كبيرة مثمنة ، وكانت معهم طبول يضربونها على الجمال ، وأعيانهم تركب الخيل ، والبقية مشاة ، كما يحملون كراسي حديد للجلوس بحضرة السلطان ، الا أن المشرفين على القاعة لم يمكنوهم من ذلك •

ولقد ساعدت هذه الصلات والروابط الدينية مع ممالك السودان ، تثبيت الايمان في قلوب شعوبها • وليس أدل على ذلك ، من أنه قد نشأت في بلادهم مراكز اسلامية ، لا تقل عن مثيلتها في بلاد الشرق الاسلامي ، من حيث الأشعاع الاسلامي ، والثقافة العربية ، فقد أصبحت : كومبتي وتمبكتوا أو تمبكت وجاو ، من أهم مدن السودان الغربي الاسلامية ، التى اجتذبت اليها الفقهاء (١٤) ، ومفسرى القرآن ، والقراء المصريين ، كما ذاعت فيها كتب المالكية والشافعية ، التي وردت اليها من مصر ، مع غيرها من الكتب الدينية •

ومن ناحية أخرى ، فان ذكرى هذه الصلات والروابط الأيمانية ، لا تزال باقية في مصر ، في وجود حيّ من أحياء القاهرة الحالية ، اسمه : بولاق الدكرور ، نسبة الى أحد الصالحين ، الذى وفد الى مصر من بلاد

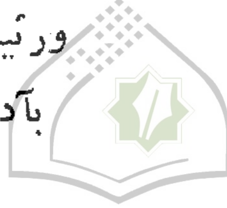
---

(١٤) نفسه : ٥ ص ٢٩٧ •

التكرور ــ وهي مالي ــ دلالة على وفاة المصريين للصالحين من عباد الله ، دون تمييز للجنس أو اللون ، وعلى الروابط الايمانية الوثيقة بين مصر وأفريقيا .

وبعد : فهذا دور مصر في أفريقيا ، لم يكن على الاطلاق دور المستعمر وانما بالأولى دور السلام والحضارة والايمان ، وهذه هي رسالة مصر الخالدة أبداً في القارة ، التي لا تزال تقوم بها الى الآن ، بحيث استحقت أن تلقب : « بأم أفريقيا » .

دكتور عبد المنعم ماجد
أستاذ التاريخ الاسلامي
ورئيس قسم التاريخ
بآداب جامعة عين شمس



أضواء على مؤلفات علي بن الحسن الخزرجي المؤرخ اليماني

بقلم/ القاضي اسماعيل بن على الأكوع

رئيس الهيئة العامة للآثار ودور الكتب

حينما ذهبت الى بريطانيا في ربيع سنة ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م ملبيا دعوة قسم الدراسات العربيه في جامعه كمبردج للاقامة بها ستة اشهر متفرغا . كنت اقضي معظم ايام الاسبوع في مكتبه الجامعة الشهيرة للاستفاده مما يوجد فيها من مخطوطات عربيه نادرة ومطبوعات عربيه ايضا ـ فبحثت في فهارس المخطوطات العربيه عما يوجد فيها من مؤلفات يمانية .. فكان أول ما وقع عليه الاختيار هو (العقد الفاخر الحسن في طبقات أعيان اهل اليمن) رقم (٧٢) من مخطوطات كلية الملك (King Coiloge ms12) فطلبت من القيم على المخطوطات احضاره ـ وسرعان ما وضعه أمامي فاخذت أتامله فاذا هو الجزء الثاني من (العقد الفاخر الحسن) لشمس الدين على بن الحسن الخزرجي المعروف بابن وهاس المتوفي سنة ٨١٢ ـ ويبدأ هذا الجزء بحرف الظاء من منتصف الصفحة الاولي في الكتاب وينتهي بنهاية الباب الثلاثين وهو باب النساء ، ويحتوى على ذكر جماعه من أعيان نساء اليمن . فاعتقدت بادى ذى بدء ، أنه كتاب جديد غير معروف للناس ، ولكن كيف يخفى مثل هذا الكتاب وهو في مكتبة مشهورة وفهرس مخطوطاتها متداول ؟ ، وبعد طول تأمل وجدته شبيها بكتاب (طراز أعلام الزمن في طبقات أعيان اليمن) للخزرجي نفسه في اسلوب تبويبه وترتيب تراجمه ومنهجه ، وأنه لا يختلف عنه ألا في التسمية فقط .

ثم رجعت الى ترجمة المؤلف في ابناء العمر ٢/٤٤١ للحافظ ابن حجر ، وشذارات الذهب ٧/٩٧ للحنبلي . والضوء اللامع ٥/٢١٠ للسخاوى للتأكد

من معرفة مؤلفاته ـ فوجدت أنهم متفقون على انه اشتغل بالأدب ، ولهج بالتاريخ فمهر فيه ، وجمع لبلده تاريخا كبيرا وآخر على الحروف وآخر في الملوك ، ولم يدر اسماء تلك الكتب الا أن السخاوى أضاف عند ذكره وآخر على الاسماء فقال : يعني المسمى (طراز أعلام الزمن في طبقات أعيان اليمن) وسماه أيضا (العقد الفاخر الحسن في طبقات أكابر اهل اليمن) ..
كما رجعت بعد عودتي الى صنعاء الى ترجمته في تاريخ البريهي من أعيان المائة التاسعة فقال في ترجمته : وله بعد الثلاثين وسبعمائة(١) وعمل في زخرفة المدارس والدور الملوكية وأسمه مثبت في بعض المدارس كالمدرسة الأفضلية ، وربما فوض اليه مباشرة العمارة من السلطان وذكر أنه من جملة المزخرفين في دار الديباج بثعبات .. ثم قرأ في الأدب ونظم الشعر خصوصا في التعصب للقحطانية .. ثم قال وصنف المسجد يشتمل على تواريخ عدة أدخل بعضها في بعض ، وله ترتيب فقهاء اختصار الجندى(٢) أجاد فيه ورتبه على الحروف فجاء في ثلاثة ، مجلدات ، ولم يذكر اسم هذا الكتاب(٣) .

ثم رجعت الى ترجمته في « هدية العارفين اسماء المؤلفين وآثار المصنفين » لاسماعيل باشا البغدادى ٢/٧٣٨ .

فقال : من تصانيفه تاريخ اليمن مرتب على السنين . ديوان شعره ، طراز أعلام الزمن في طبقات أعيان اليمن(٤) (العقد الفاخر الحسن في طبقات أكابر اليمن) (العقد اللؤلؤية في أخبار الدولة الرسولية) (مرآة الزمن في تاريخ زبيد وعدن) وغير ذلك فذكر (العقد الفاخر) على

---

(١) مولده سنة ٧٣٢ كما اخبره عن نفسه في كتابه (العقد الفاخر الحسن) في ترجمة علي بن احمد بن موسي بن علي الجلاد .

(٢) اى (السلوك في طبقات العلماء والملوك) .

(٣) هو طراز اعلام الزمن .

(٤) سماه البغدادى طراز اعلام اليمن نقلا عن السخاوى وهو خطا . والصحيح في اسمه (طراز اعلام الزمن) كما ذكره موءلفه في ديباجته .

أنه كتاب آخر غير (طراز أعلام الزمن) .. وكنت قد رجعت الى كتاب (طراز أعلام الزمن في طبقات أعيان اليمن) نسخة المتحف البريطاني رقم (٢٤٢٥ شرقي) لأستبين منه الرشد في معرفة حقيقة التسميتين فقال في مقدمته : فصل في تقرير قواعد الكتاب ، أعلم ايها الناظر ــ وفقنا الله واياك ــ أن اول ما بدأنا به في كتابنا مقدمة في ذكر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ هو المقصد الأسنى ، والغاية الحسنى الى أن يقول : وبعد ما يتفق من تمام ذكره وانقضاء عمره أذكر خلفاء الاسلام فأبدأ بأبي بكر الصديق رضي الله عنه .. واختتم بالمعتصم عبد الله بن المنتصر العباسي ، واحدا بعد واحد على ترتيبهم المعروف . لكل منهم فصل أذكر فيه تاريخ وفاته وما حدث في أيام مدته ، وأختتم المقدمة المذكورة بفصول أخرى أذكر فيها من ولي الخلافة بعد المعتصم ان شاء الله تعالى وبه التوفيق . ثم أشرع بعد ذلك في مضمون الكتاب ، وأرتب الاسماء المذكورة على ترتيب حروف المعجم في اصطلاح اليمن ــ فأبدأ بالألف التي هي صورة الهمزة ، ثم الباء ، ثم التاء ، ثم الثاء ، ثم الجيم ، ثم الحاء ، ثم الخاء ، ثم الدال ، ثم الذال ، ثم الراء ، ثم الزاى ، ثم السين ، ثم الشين ، ثم الصاد ، ثم الضاد ، ثم الطا ، ثم الظاء ، ثم العين ، ثم الغين ، ثم الفاء ، ثم القاف ، ثم الكاف ، ثم اللام ، ثم الميم ، ثم الواو ، ثم النون ، ثم الهاء ، ثم الياء .

ثم قال ــ وجعلت المسمين بالكنى كأبي بكر . وأبي الغيث ، وأبي السرور ، وأبي عمر ، وأبي زيد في باب آخر بعد أبواب الحروف المذكورة ، ثم أختم الكتاب بباب أذكر فيه مشاهير النساء فيصير الأبواب ثلاثين باباً لحروف المعجم ، وباب للمسمين بالكنى ، وباب للنساء ، ثم قال : فصل ، وأعلم الناظر الناظر ، وفقنا الله واياك ، أن كتابنا هذا انما هو مأخوذ

في الغـالب من كتـاب الفقيـه الامام الفاضـل وحيد عصره ، وفريد دهره ابي عبد الله محمد بن يعقوب ابن يوسف الجندى الملقب بهاء الدين صـاحب التاريخ المعروف ، فأنه امامنا المشهور ، وشيخنا المذكور ـ وأنما تبعنا أثره ، وصـدقنا خبره ، واغترفنـا من فضـالته ، وشربنا بدلائه • ولولاه ما خضنا هـذا البحر ألعميق ، ولا وجدنا الى هـذا المنزل طريق • فرحم الله مثواه ، وبل بوابل الرحمة ثراه ، مـع ما فيـه من التسـامح في العبـارة ، والتجوز في اللفظ • والـذى يظهر لي أنه اخترم قبـل تهذيبه ، وعوجـل قبل تنقيحه وترتيبه ، فصار كالرمال المجتمعة في الفلاة المتسعة لا يعلم السالك فيها سبيلا •

ولا يجـد أحد من الناس دليلا ، فاستخرت الله تعـالى في ترتيب مبانيه ، وتقريب معانيـه وجمع منتشرة ، وانتقاء درره وجوهره ، مع ما اضم اليـه من زيادات حسنة ، وروايات مستحسنة ليسهل فتشـه ، ويظهر نفعـه ، وتعم فائدته ، ويحسن وضعه • وسميته (طراز أعـلام الزمن في طبقـات أعيـان اليمن) •• وقـد انتهى هـذا المجلـد الاول الموجود في المتحف البريطـاني عند نهاية حرف الحـاء •

وهـذا الوصف الذى ذكره في مقدمـة الكتـاب كمنهج له هو ما سـار عليـه وما ينطبق على العقد الفاخر فتبين أن المؤلف لم يقتصر على تلك التسمية التى وردت في ديباجة الكتـاب • بل انه سماه ايضـا (العقد الفاخر الحسن في طبقت أعيـان اهل اليمن) • وأن التسميتين كلتيهما هما اسـم لكتـاب واحـد ، وليس لكتابين مختلفين •• كما يوحي اختـلاف التسميتين ـ الأمر الذى دعا اسماعيل باشـا البغـدادى في كتابه (هدية العـارفين) أن يذكر للخزرجي في ترجمتـه في صـدد ذكر مؤلفـاته • مؤلفين أحـداهما باسـم (طراز أعـلام الزمن) والأخر باسـم (العقـد الفاخر الحسن) ، كما تقـدم ذكر ذلك ثم تبين لى بعـد عودتى الى صنعاء أن نسخة مكتبة جامعة كمبردج ليست الوحيـدة للجزء الثـاني للعقد الفاخر •• فهناك في المكتبة الغربيـة

في الجامع الكبير بصنعاء نسخة قديمة تبدأ بترجمة (ابو العلا بن عبد الله بن محمد بن العلا) وتقع في ٤٦٥ صفحة : كتب اكثرها الى صفحة (٣٣٦) بخط أقرب ما يكون شبيها بخط المغاربة ، وبقية الكتاب كتب بقلم مؤلفها • وقد فرغ المؤلف من تبييض آخر الكتاب سنة ٨٠١ أي قبل وفاته بأحدى عشر سنة •

وما دام قد انتهى اللبس في قضية (العقد الفاخر الحسن) فلابد لنا من وقفة قصيرة عند مؤلفات الخزرجي الأخرى • فقد سبق ذكر ما قاله مترجموه بأنه جمع لبلده تاريخا كبيرا ، وآخر على الحروف ، وآخر في الملوك • فالتاريخ على الحروف أو الاسماء هو (طراز أعلام الزمن) (والعقد الفاخر الحسن) اذا فما اسم تاريخه الكبير ؟ وتاريخه في الملوك ؟ • أغلب الظن أن التاريخ الكبير هو (الكفاية والأعلام من ولى اليمن وسكنها في الاسلام) — مع أن له كتابا آخر اسمه (العسجد المسبوك ، والجوهر المحبوك(٥) في اخبار الخلفاء والملوك) ينسب اليه وهو مثل (الكفاية والأعلام) ولعل تاريخه في الملوك هو (العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية) •

وهنا تبرز قضية خطيرة وهي (أن العسجد المسبوك) (والعقود اللؤلؤية) منسوبان الى الملك الاشرف اسماعيل بن العباس المتوفي سنة ٨٠٣ فقد روى السخاوي في كتابه الضوء اللامع ٢/٢٩٩ في ترجمة الاشرف قوله : وصنف (العسجد المسبوك والجوهر المحبوك في أخبار الخلفاء والملوك) و (العقود اللؤلؤية في أخبار الدولة الرسولية) •

في حين أن بعض النسخ من (العسجد المسبوك) منسوب الى الخزرجي والبعض الآخر منسوب الى الملك الاشرف • فكيف يمكن الاهتداء الى الحكم الصحيح في هذا الأمر ؟ •

لقد كان الخزرجي معاصرا للملك الاشرف، ومن رجال دولته ، وقد طلب

---

(٥) وفي بعض النسخ والجوهر المحكوك •

أى ملك الاشرف من الخزرجي ـ كما يقول في مقدمـه كتابه (طراز أعـلام الزمن) .. أن اجمع له في كتـاب أعـلام اليمن وكبرائها وملوكها وأمرائهـا وعلمائها وعبادها ورؤسـائها وزهادها . ثم قال الخزرجي فلمـا صـار ـ أى الكتـاب ـ بين يديه أدار نظره فيه وتأمل .. ثم تمثل بقول الأول :

حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء .

ثـم ذكر عـددا كبيرا من عزب عنى ذكره ، وشذ عني خبره ومخبره . ثم قال له : صنف الجميع كتابا ، ورتبه فصولا وأبوابا .. ثـم سـاق كـلامه الى أن يقول الخزرجي : وشرعت في جمعه كما رسم ، ووضعه كما أمر وألزم .

ولا يبعد أن يكون الملك الاشرف قـد أمر الخزرجي بتصنيف (العسجد المسبوك) (والعقود اللؤلؤيـه) فقـام بذلك ، وفق خطـة رسمها له الملك الاشرف .. فالسخاوى يـذكر في كتابه (الضوء اللامع) في ترجمـة الملك الاشرف بعـد أن ذكر أنه صنف (العسجد المسبوك) (والعقود اللؤلؤية) ما يلي : ـ وذلك أنه كان يضـع وضعا ، ويحـد حـدا . ثم يأمر من يتمه على ذلك الوضـع ويعرض عليه . فما ارتضـاه أثبته ، وما شذ عن مقصوده حذفه ، وما وجده ناقصـاً أتمه .

فهـذا يجعلنـا نميـل الى أن الخزرجي قـد صنف الكتـابين للملك الاشرف وقـد مهما اليه ، بعـد أن فرغ منهما معا ، أو من كل واحـد منهما على حـدة ليرى رأيه فيهما .. ولعل السخاوى قـد رأى الكتـابين في مكتبة الملك الاشرف يحملان اسمه حينما قـدم الى اليمن في عصـر الملك الاشـرف فنسبهما اليـه واجتمع السخاوى ايضـا بالخزرجي .. واعتقد ان الخزرجي قـد احتفظ لنفســه بنسخة مماثلة من العسجد المسبوك ، وأضاف اليه ما جد من الأخبـار بعـد وفاة الملك الاشرف حتى آخر عهد للخزرجي بالتأليف .. ونسبه اليـه بعـد أن أدخل عليـه بعض التعديل مثـل قال على بن الحسن الخزرجي عامله الله بما هو اهله ، بدلا من قال الملك الاشرف .. الخ .

فما تقل عن نسخة الملك الاشرف نسبت اليه • وما تقل عن نسخة الخزرجي نسبت اليه ومن هذا جاء اللبس في انتساب (العسجد المسبوك) الى الملك الاشرف تارة • والى الخزرجي تارة أخرى •

وهناك كتاب آخر منسوب الى الملك الاشرف اسمه « كتاب فاكهة الزمن ومفاكهة الآداب ـ والفن في أخبار من ملك اليمن » رأيته وأطلعت عليه في مكتبة (جون ريلاندز) في مدينة مانشستر تحت رقم (١٩) ٢٥٣ عربي • وقد صدره بالفصل الثاني في ذكر اسلام اهل اليمن وذكر عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم • وبدأه بحديث « عليكم باليمن اذا هاجت الفتن » الحديث وختمه بالفصل الثاني عشر من ذكر دولتنا وحوادث حدثت في صدر مدتنا « كما يقول الاشرف نفسه وقد انتهى بحوادثه الى سنة ٨٠٢ أى قبل وفاته بمدة يسيرة • • وقال الناسخ للكتاب نجز التاريخ المبارك بمدينة صنعاء اليمن • وذلك في يوم الجمعة المشهورة فضلة أول شهر ذى القعدة الحرام سنة ٩٨٥ •

ولم يكن في الكتاب خطبة • كما ان اسم الكتاب ونسبته الى الملك الاشرف مكتوب بخط مغاير لخط الكتاب • فاذا كانت هذه التسمية صحيحة ـ فأغلب الظن أن الملك الاشرف قد أمر من يستنسخ له نسخة مختصرة من نسخته من العسجد المسبوك لأنه شبيه به في منهجه وسياق كلامه وترتيب فصوله وعباراته ـ وسماها (فاكهة الزمن) مع أني أرجح أن التسمية طارئة وانها ليست من كلام الملك الاشرف • لان المترجمين له لم يذكروا له هذا الكتاب بتاتا وأما العقود اللؤلؤية ـ فأني أرى ـ اذا كان السخاوى قد اطلع عليها منسوبة الى الملك الاشرف فذكرها له في ترجمته ـ أنها اختفت أو فقدت ولم يبق الا ما احتفظ به الخزرجي لنفسه منها وأضاف اليها ذكر وفاة الملك الاشرف حيث ختم بها الكتاب ، ونسبها الى نفسه •

هذا ما وصل اليه اجتهادى • والله أعلم بالصواب •

رفـــاعة الطهطاوي

فـكره الاجتماعي والسياسي

د . محمود اسماعيل

لا يستطيع المؤرخ المنصف الا أن يضـع رفاعـه الطهطـاوى على رأس قائمة من المفكرين المصريين الافذاذ اللذين تصدوا لتبنى دعوات اصـلاحية فكرية واجتماعية تجمع بين الأصـالة الشرقيـة وبين الحضـارة الغربيـة . لقـد كان بحق رائدا . .

للانتليجنسيا المصرية التى أخـذت على عاتقها مهمة انتشـال مصر من مرحلة التخلف والعزلة لتسـاير وتواكب حضـارة العصر عن طريق تجـديد التراث العربى الاسـلامى والانفتـاح عـلى أوروبا للافادة من منجزات نهضتهـا . ولا مشـاحة في أن الطهطـاوى قـد نجح في مهمته ومهد الطريق لاجيال من أعـلام مصر الحديثـة والمعاصرة كالأفغانى ومحمد عبده ومصطفى عبد الرازق وأحمد أمين وطه حسين الذين تلقفوا المشعل ومضـوا عـلى الطريق قـدما لاتمام تلك الرسـالة .

ومفتاح فهم شخصية الرجل كامن في كونه أزهريا أحاط علمـا بالثقافـة النقلية التى سـادت في عصره ، فلم يقنـع بها ، وازداد رفضـه حين أتيـح له الاطلاع على ثقافة الغرب ابان اقامتـه في فرنسـا لخمسـة أعوام قضـاها عاكفـا على الدراسـة والاستيعاب في كافة مناص المعرفة فقرأ لروسو وفولتير وموتتسكيو وكيناى وبنتـام وجون سيتورات مل وغيرهم من أعـلام عصر الاستنارة في أوروبا ، فوقف عـلى أسرار تخلف العـالم الاسـلامى وأسباب النهضـة الاوروبيـة ، وأيقن أنه لامندوحة عن النهـل من علوم الغرب دون

الانسلاخ عن الأصول العربية الاسلامية • ولم يجد الطهطاوى ثمة تناقض في منهجه هذا فالفكر الاسلامى في عصور ازدهاره لم يغض الطرف عن الفكر الانسانى السابق عليه تاريخيا ، ولم يجد المسلمون الأول غضاضة في الافادة من « علوم الأوائل » هللينية كانت أو شرقية يهودية أو مسيحية أو وثنية ، ففى القرآن والسنة ما يحض على طلب العلم دون تعصب أو جمود ، والمستنيرون من الخلفاء لم يألوا جهدا في تشجيع حركة الترجمة من الفارسية واليونانية والسريانية وغيرها الى العربية ، ومن هنا كانت النهضة الفكرية الاسلامية التى وفقت بين الأصول العربية والاسلامية وبين الفكر العالمى الوافد والموروث •

على نفس النهج سار الطهطاوى لكنه أدرك أن الثقافة الاسلامية في عصره وصلت الى حال من الجمود والتخلف بحيث لا يمكن التعديل عليها في تحقيق أهدافه ، فرأى ضرورة احياء سنة السلف في عصور اليقظة والازهار وبعث الأصول الحقيقية للحضارة الاسلامية في ذات الوقت الذى دعى فيه الى الأخذ بأسباب الحضارة الغربية كما عاينها ، ومن هذه الزاوية يمكن القول أن الطهطاوى كان سلفيا ومجددا في آن واحد •

وهذا المنهج القوم يتم عن رحابة أفق ونزعة « هيومانية » تحمد للرجل ، ولا يمكن بحال أن يؤخذ عليه « ازدواجية » الفكر ، أو « ثنائية » النظرة ، كما أنه ليس من المقبول تقييمه ــ كما رأى البعض ــ باعتباره داعية الى « التقريب » [illegible] وحسب ، فاذا كان قد تحمس للحضارة الأوروبية فانه لم يتنكر لاصوله الاسلامية وحسبنا أنه رغم اعجابه الشديد بحضارة الغرب لم يتقبلها بقضها وقضيضها ، بل كثيرا ما أنكر بعض جوانبها ورأى في الشرق ــ رغم تخلفه الشديد ــ بعض المبزات التى يفتقر اليها الغرب ــ وفي كتابه تخليص الابريز في تلخيص باريز « من الشواهد الكثيرة التى تؤكد هذا القول • بل نجد في كتابه « مناهج الألباب » ما يرجح

أن دعوته للتغريب كانت تستند صراحة على قواعد وأسس اسلامية ، انظر قوله في هذا الصدد « .... والفضيلة الثانية تؤخذ من قوله صلى الله عليه وسلم : أو علم ينتفع به أى علم علمه الانسان لغيره فصار نافعا ، والعلم النافع مرادف للحكمة المفسرة به ، فهو ما يوصل الى الصفات العلية والمناقب السنية ويثمر الثمرات الدنيوية والأخروية ويدعو الى المكرمة وينهى عن القبيح وهو المراد بقوله تعالى : ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ، حيث فسر العلماء الحكمة بتفاسير كثيرة ترجع الى العلم النافع والأفعال الحسنة الصائبة ، فالعلم بهذا المعنى يشمل العلوم النظرية والعلمية ، يعنى معرفة الحقائق والاقدام عليها بالعلم ، فجميع العلوم النفعية عقلية ونقلية نظرية وعملية داخلة بهذا المعنى تحت قوله صلى الله عليه وسلم : أو علم ينتفع به » .

واذا كان هذا الموقف التقدمي ينطلق من أساس اسلامى ، فلا شك أنه كان يمثل في عصر الطهطاوى ثورة فكرية على الثقافة الاسلامية آنئذ . لقد كان العلم في نظر معاصرية « ما كان مأخوذا عن نبى » وما عداه « علم لا ينفع » ، والازهر الذى كان أول جامعة عرفها التاريخ قد تدهور في عصر الطهطاوى واقتصرت الدراسة فيه على العلوم « النقلية » فحسب دينية أو لغوية ، بل حتى هذا « المنقول » طغت عليه « الخرافة » والغيبية، واتصرف هم العلماء الى مجرد التبرير للسلطة بالفتاوى الزائفة ، وانبرى الأدباء لتدبيج قصائد المديح الأولى الامر طمعا في الاغداقات والانعامات ، وذوى شأن الفكر الاسلامى وانحدر الي الحضيض حتى ليذكر الجبرتى أن احد ولاة مصر ناقش كبار علماء الازهر في مبادىء الرياضيات فأحجموا وقالوا « لا نعرف هذه العلوم » .

وعن حالة التخلف تلك يخبرنا الرحالة فولنى الذى زار مصر في أواخر القرن الثامن عشر أن « الجهل عام في هذه البلاد ، وهو يشمل كل الطبقات

ونتجلها في كل النواحي الأدبيـة والفنيه والطبيعية ، وحتى الصناعات اليدوية فانها انحـدرت الى البسـاطة » .

بديهي والامر كذلك أن يضيق الطهطـاوى درعا بثقـافة عصرة ويعجب بحضـارة الغرب التى كانت قـد أطلت برأسها منـذ الحملة الفرنسية والتى أسفرت دون شك عن خلخلة الركائز الواهيـة للفكر المصرى ، وما كان بامكان علمـاء الأزهر أن يستوعبوا هـذا التيـار الحضـارى الوافـد وحسبنا أن الجبرتى ــ وهو من أجلة علماء الأزهر ــ لم يستطع أن يتفهم ما عاين وشاهد من تجـارب علماء الحملة في الطبيعـه والكيمياء واكتفى بالدهشـة والحيرة حيث قال « ولهم فيـه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها ناتج لا يسعها عقول أمثالنا » وكان جهود الحسن بن الهيثم وجابر بن حيـان قـد ضـاعت سـدى ولم تجـد من يتابعهـا ...

لقـد أظهر الفكر المصرى آنـذاك عجزه وأشهر افلاسـه ، وأدرك شيخ نابه كحسن العطـار ضرورة النهوض من الكبوة فقـال « ان بـلادنا لابد أن تتغير أحوالها ويتجـدد بها من المعـارف ما ليس فيها » ..

اضطلع رفاعة الطهطاوى ــ تلميذ الشيخ العطـار ــ بهذه المهمة ، فأحدث النقلة ، وجهوده في هـذا الصدد كانت ثورة فكرية حقيقية ، ثورة من شقين كما أسلفنا القول احيـاء التـراث وتجـديده من ناحيـة والأخـذ بأسباب الحضـارة الأوروبيـة من ناحيـة أخرى .

ودور الطهطـاوى في هـذا الصـدد يستحق وقفـة ، فما أكثر ما كتب عن الرجل والاشـادة بدوره ، لكن الذين تصدوا لتقييمه ركبوا متن الشطط فصـوروه عبقريـا ومفكرا وفيلسـوفا ومنظرا في السياسـة والاجتمـاع والاقتصـاد ... الخ وفاتهم أن هـذا التصـور لا يستقيم ومنطق الاشياء . ان احـد لا يستطيع أن ينكر فضـل الرجل أو يغمطه حقه كمثقف موسوعى ضرب بسهم وافر في شتى مجالات المعرفة ، وصاحب رسالة نبيلة كرس جهوده

من أجلها ..

وبديهي أن يتناسب حجم هذه الرسالة مع أهدافها وأن يكون حظها من النجاح أو الفشل مرهون بظروف العصر وطبيعة السلطة ، لم تتجاوز اهداف الدعوة نطاق الممكن ، ولم تتطلب الرسالة في تنفيذها مفكرا عبقريا ــ ولم يكن من الممكن ان تعزز ظروف العصر هذا المفكر الفيلسوف ــ بقدر حاجتها الى معلم مستنير دءوب ، لقد كان الطهطاوى هذا الرجل ، وكان دوره مرسوما في هذا الاطار ، اطار الرفض للواقع والتنوير بمتطلبات التغيير . لذلك فالتقييم الموضوعي لهذا الدور ــ وهو خطير على كل حال ــ يجب ألا يتجاوز هذين الحدين .

وقد تجلى رفض الطهطاوى للفكر السائد في دعوته لاحياء التراث ونشره وفق معايير جديدة ، وقد اثمرت جهوده بالفعل في طبع كثير من المخطوطات لأعلام الاسلام كالرازى والحريرى وغيرهما . كما عول على اصلاح الازهر بادخال العلوم العصرية ضمن دراساته . وفي هذا الصدد يقول « ومدار سلوك جادة الرشاد والاصابة منوط ــ بعد ولى الأمر ــ بهذه العصابة (يقصد شيوخ الأزهر) التى ينبغى أن تضيف الى ما يجب عليها من نشر السنة الشريفة ورفع أعلام الشريعة المنيعة ، معرفة سائر العلوم البشرية المدنية » . وقد تسنى له أن يعيد بنفسه تقييم مناهج الدراسة . فأعد كتبا لتدريس اللغة العربية على أسس جديدة . وفي رسالته « القول السديد في الاجتهاد والتقليد » ما يعبر عن موقفه من التراث ويكشف عن رؤية مستنيرة في اعادة تقييمه .

أما الشق الآخر في رسالة الطهطاوى فيما يتعلق بالترويج لعلوم الغرب ونشرها بين الشبيبة فقد تمثل في حركة الترجمة ، ولاعرو فقد ترجم بنفسه كثيرا من الكتب في الانسانيات والطبيعيات والرياضيات والعلوم العسكرية فضلا عما قام به تلامذته في هذا الصدد . هذه المترجمات العديدة ،

فضلا عما أنفه بنفسه كانت أساسا لنشأة جيل من الدارسين أسهموا فيما بعد في « علمنة » مصر الحديثة والخروج بها من ظلمات العصور الوسطى الى آفاق جديدة •

ب - البعد الاجتماعي

يختلف الدارسون في تقدير الاتجاه الاجتماعي عند رفاعة الطهطاوى • فمنهم من يرى فيه مفكرا اشتراكيا تبلورت نظرته من خلال استيعابه للتيارات الفكرية ذات ••• المضمون الاجتماعي التى فجرتها الثورة الفرنسية وما تلاها من ثورات عامى ١٨٣٠ ، ١٨٤٨ في اوروبا • وأصحاب تلك الرؤية يدللون عليها بآرائه التي تضمنها كتابه « مناهج الألباب » والتى كانت في تصورهم أول دعوة مصرية للدفاع عن « أصحاب الجلاليب الزرقاء » وأول صرخة ثورية تنادي بضرورة تغيير العلاقات الاقتصادية في الريف المصرى • بلى لقد فاجأنا المفكر الفرنسي روجيه جارودي - الذى زار مصر منذ سنوات - بأن الطهطاوى كان أول مصرى آمن بآراء كارل ماركس وبشر بها حين عرض لنظرية « فائض القيمة » •

وعلى النقيض نجد من الدارسين من نفى عن الرجل أية ميول اشتراكية « بل لعله لم يسمع بتلك الكلمة » وبالتالى لم تتضمن كتاباته أدنى مضمون اجتماعي يشير الى اشتراكيته من قريب أو بعيد ، ولم يتعمد كونه ذا نزعات انسانية اخلاقية عامة لتحقيق الخير والعدل والكرامة للانسان •

والحق - أجد نفسى - مع قليل من التحفظ - ميالا للأخذ بوجهة النظر الأخيرة • فالطهطاوى - رغم دوره الكبير في زيادة الفكر المصرى الحديث - لم تتجاوز رسالته حد الدعوة لبعث مصر عن طريق تجديد التراث والأخذ بعلوم الغرب وصناعاته دون أن يرتدى مسوح الدعاة والمصلحين والمبشرين بنظريات في الفكر الاجتماعي •

حقيقة أنه اطلع على كافة النظريات والآراء التى ماج بها المجتمع الأوروبى في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وعايش ثورة عام ١٨٣٠ في فرنسا

ووقف على آثارها في أوروبا ، واستوعب كافة الاتجاهات العقلانية والوجدانية والمادية والمثالية لمفكرى البورجوازية ، وكذلك تمثل كتابات المفكرين الثوريين على النظام الراسمالى بعد فشل الفكر المثالى في تقديم حلول لقضايا الجماهير ، وبعد أن بات واضحا للعيان ، افلاس هذا الفكر رغم ما احدثته من تعديلات محورية في العلاقات الانتاجية التى كانت في جوهرها في صالح النظام الراسمالى ، ومع ذلك نكاد نجزم بأن الطهطاوى لم يكن مفكرا ثوريا ولا مصلحا اجتماعيا ألبته .

لم يكن مفكرا لأن ما ورد من آراء في هذا الصدد بكتابه « مناهج الألباب » ما كانت من لدنه انما عمل على عرض التيارات الفكرية الاجتماعية كما استقاها من مصادرها الأوروبية مكتفيا بابداء علامات الرضى والاستحسان ، رابطا بينها وبين ما ألفه من اتجاهات مشابهة في الفكر الاسلامى والشريعة الاسلامية .

فكتاب « مناهج الألباب » لم يتضمن بحوثا أصلية لرفاعة في الاجتماع أو الاقتصاد ألفها ليبشر بها مواطنيه انما قدر الرجل حجم دوره في أمانة وصدق بعد أن حدد طبيعة رسالته في بساطة ووضوح وهى « أن يعين الجمعية (أى الشعب) بقدر الاستطاعة ، ويبذل ما عنده من رأسمال الصناعة لمنفعة الوطن العمومية وينصح للبلاد ببث ما في الوسع من المعلومية » وذلك « بتصنيف نخبة جليلة وترصيف تحف جميلة في المنافع العمومية التى بها للوطن توسيع دائرة التمدنية ، أقتطفها من ثمار الكتب العربية اليانعة واجتنيتها من مؤلفات الفرنساوية النافعة » .

وهذا القول يدفع الزعم الخاطىء بأن رفاعة « مصلح راديكالى » على أساس تأثره بالفكر الاجتماعى الأوروبى فحسب ، ذلك أن الفكر الاسلامى لم يغب عن ذهن رفاعة وهو يصنف كتابه وبالذات آراء ابن خلدون التى وردت بمقدمته الرائعة ، ولقد أبدى رفاعة اعجابا كبيرا بابن خلدون الذى عرفه

فيما يبدو من خـــلال اعجاب المفكرين الفرنسيين به ، كما عرفت أوربا ارسطو عن طريق العرب من قبـــل •

ومن المبالغة ايضــا القول بأن رفاعة اتصف « بالثورية » ذلك أن الرجل كان يدرك أن علمه وعمله مرتهن برضى الحكام ، وأن جهوده « التنويرية » ما كان لها أن تثمر دون مباركـــة السلطة ، فالمدارس تفتـــح والكتب تنشر بارادة من أولى الأمر ، ولم يكن الوعى القومى آنذاك في حالة من النضـــج تتيح للرجل التعويل عليـــه • وحسبنا ان نجـــاح رفاعة أو فشـــله في مهمتـــه كان مرتبطا بنوعيـــة الحكومة ، وجهوده في مـــدها وجذرها توقفت عـــلى استنارة الولاة أو استبدادهم •

لذلك نعتقـــد ان الطهطـــاوى لم يتحمس لتيـــار فكرى بذاته ولا لنظرية بعينهـــا مما وقف عليـــه في الفكر الاوروبى ، انما تعمق احساســـه بالمفـــاهيم الانسانية والنزعات « الهيومانية » التى انطوت عليها كافة التيارات الاوروبية من اقصى اليمين الى اقصى اليســـار • ووصـــل رفاعـــة بين تلك النزعـــات وبين القيم التى تنطوى عليها الشريعة الاسلامية والتراث الفكرى الاسلامى • وتمنى لو ان تلك القيم التى ترجمتهـــا اوروبـــا الى نظريـــات ونظم ، تمنى لو وجـــدت لها سبيلا في وطنه ، وفي هـــذا الصـــدد يقول « ويمكن أن يقال ان الفرد (الضرائب) ونحوها لو كانت مرتبـــة في بـــلاد الاســـلام كما هى في تلك البلاد لطابت النفس خصوصـــا اذا كانت الزكوات العشر والغنيمـــة لا تفى بحاجة بيت المـــال أو كانت ممنوعة بالكليـــة ، وربما كان لها أصلهـــا في الشريعـــة على بعض أقوال مذهب الامـــام الأعظم أبى حنيفـــة ••• » ••
لم تتجـــاوز آمال الطهطـــاوى اذن حـــد التمنى والرجاء لاعادة النظر في تراث السلف بفتح باب الاجتهاد الذى عن طريقـــه يمكن الوصول الى نظريات ونظم مستحدثه لا تقل بحـــال عما عاينه في باريس •

والذين ذهبوا الى أن الطهطـــاوى كان اشتراكيـــا تأسيســـا عـــلى ابرازه

لقيمة « العمل والكد ومزاولة الخدمة » فضلاً عن ايماءاته المتعلقة « باصلاح الزراعي » على اساس وتقيم محصول الارض بين مالكها وزارعها « لتحسين الحال على الهيئة الاجتماعية » هؤلاء فانهم ان منطلق الرجل لم يكن اعتمادا على الآراء والنظريات الاشتراكية التى وقف عليها في اوروبا بقدر ما راعه من النمو المذهل للراسمالية المصرية التى قامت على انقاض الاقطاع المملوكي والتركي على اثر اجراءات محمد علي وسعيد بخصوص المسالة الزراعية •

لا شك ان جوهر هذه التعاليم وردت عند مفكرى الاشتراكية الطوبوية الأوروبيين كذا في افكار من عرفوا باصحاب الاتجاهات الفوضوية التى ذاعت في النصف الأول من القرن التاسع عشر . لكن الطهطاوى من خلال تعليقاته على ـ هذه النظريات ـ لم يتحمس لها برمتها وانما استحسن ما توافق منها مع فهمه للشريعة الاسلامية ، لم يدع الطهطاوى ـ مثلا ـ لاراء سان سيمون الذى نادى بضرورة الغاء الحكومة السياسية واقامة هيئة للحكم على اساس اقتصادى ، ولا تحمس لاراء فورسية وكابت اللذين ذهبا الى تطبيق الشيوعية كما اختلف مع برودون الذى هاجم الدولة والدين والملكية الفردية ، وكذا لويس بلون الذى فند دعاوى النظام الرأسمالى ••• الخ لا ننكر أن آراء هؤلاء جميعا تركت بصماتها على نظرة الطهطاوى للمسالة الاجتماعية ، ولكن تأثيرات ابن خلدون مثلا وبالذات مقالته المشهورة « بأن الظلم مؤذن بخراب العمران » وتحليلاته المقنعة في هذا الصدد كانت لا شك أكثر فعالية في اذكاء مبدأ العدالة الاجتماعية لدى الطهطاوى •

وحين بسط الطهطاوى نظرية « فائض القيمة » ، وحين فضل « قيمة العمل » على « رأس المال » في عمليات الانتاج ـ على عكس ما ذهب اليه ريكاردو ـ لا يتخذ ذريعة للقول باعجابه بالماركسية بقدر اقراره لمبدأ انسانى عام وجد له الطهطاوى سندا في الفكر الاسلامى ، والاحجى

أن يكون قد وقف عليه سلفا عند ابن خلدون الذي قال في هذا الصدد « •• ومن اشد الظلامات واعظمها في افساد العمران تكليف الاعمال وتسخير الرعايا بغير حق ذلك ان الاعمال من قبيل المتمولات لان الرزق والكسب انما هو قيم اعمال العمران ••••• الخ » •

بل تأثر الطهطاوي كذلك بالتيار الاوروبي القائل « بالاقتصاد الحر » ، اعني بالفزيوقراط والذم سميت فيما يتعلق باعتبار قيمة العمل سواء في الزراعة أو الصناعة او التجارة وبالذات في مجال الزراعة ، ولعل ظروف مصر الخاصة تسهل فيض الزراعة فيه هي المصدر الاساسي « لاكتساب المال » جعل رفاعة يبدى اعجابه الشديد بهذا الاتجاه الذي اسهم دون شك في تكوين منظوره الاجتماعي •

وهذا يفسر لماذا لم يحمل الطهطاوي صراحة على الاغنياء في وطنه . بل أقصى ما فعل دعوته الى التكافل الاجتماعي وحث الاغنياء للنظر بعين العطف الى الفقراء عن طريق انشاء المؤسسات الخيرية « فلابد من ابراز هذه المصالح الخيرية من جمعية أغنياء ترصد عليها الارصادات وترتب لها الرواتب اللازمة ••• فهذه صدقات جارية » ••

كيف تتصور الطهطاوي اشتراكيا ، وهو سليل أسرة عريقة تنتمى الى طبقة الاشراف التى تفاخر بانتمائه اليها حيث قال « ••• ومما ينبغى هنا بالمناسبة أن من الله سبحانه وتعالى على عائلتنا بطهطا أن اجتمع فيها مع منصب الاشراف التى هى لم تزل في بيتنا الى الان منصب قضاء الولاية في كثير من نسلنا •• » •

ومن يطالع سجل حياته يقف على حقيقة وضعه الطبقي ، فكان يتقاضى مرتبات عالية من الحكومة وأنعم عليه بلقب « بك » ، وحاز الفا وستمائة فدان « غير ما اشتراه من العقارات العديدة في بلده وفي القاهرة » وعاش حياته مترفا « يقتنى الخدم والأرقاء من الاناث والذكور » وهو أمر

يستحيل معه القول بأن الطهطاوى كان مفكرا اشتراكيا أو حتى صاحب دعوة للاصلاح الاجتماعى على اساس اشتراكى ٠

الفكرة الديمقراطيه

ليس ثمة من عبارة ابلغ من قالة تكاراديفو نعت بها الطهطاوى تعبر عن موقفه من قضية الديمقراطية ، وهى « ٠٠٠٠ وبرغم تدين هذا الكاتب العبقرى وعقيدته ، فهم فلسفة فرنسا في القرن الثامن عشر وتأثر بآراء العقليين تاثرا واضحا » ٠٠ ويمكن ان نضيف الى ذلك مراعاته جبروت السلطة الحاكمة في مصر آنئذ ، ذلك أن الطهطاوى ما كان بوسعه أن يتطاول على الحكومة الأوتوقراطية فيعبر عن آرائه في الديموقراطية صراحة ، ومن هنا كان الخلط والتضارب في فكره السياسى سمة واضحة ٠

والسؤال هو ما هى المؤثرات الاسلاميه وما هى الافكار الأوروبيه التى صاغ الطهطاوى في ضوئها اراءه السياسية ؟ ٠

لقد ذكرنا أنه أخذ بالتيار العقلانى في الفكر الاسلامى ودعى الى ضرورة بعثه واحيائه ، غير انه استشعر خطورة المزالق التى يمكن أن يتردى اليها لو تبنى نفس التيار في بعده السياسى ، فاضطر ــ ربما خوفا وتقيه ــ الى الانحياز للتيار المضاد الذى يعضد الحكم المطلق على أساس أن الشريعة الاسلامية حسب قوله تجيز كافة النظم من الملكية المطلقة الى الملكية المقيدة الى الجمهورية « فشريعة الاسلام التى عليها مدار الحكومة الاسلامية مشوبة بالانوع الثلاثة المذكورة لمن تأملها وعرف مصادرها » ومن ثم اعتقد الطهطاوى أنه وجد مخرجا ومبررا لمواقفه السياسية المتناقضة ما بين تأييد للديموقراطية الى تعضيد للأوتوقراطية ٠

ونستدل على ذات التناقض من خلال موقفه من الفكر السياسى الأوروبى ، فتارة يتحمس لروسو وآرائه في « العقد الاجتماعى » وأخرى يشيد بمونتسكيو ونظريته في تقييد الديموقراطية كما تضمنها كتابه « روح

القوانين » ، بل ذهب الى أبعد من ذلك حين أخذ بنظرية « التفيض الالهى » وحق الملوك المقدس في الحكم التى هى عصب الفكر السياسى في العصور الوسطى .

وإذا جاز لنا أن نحدد انتماءه الفكرى الاسلامى أو ننسبه الى أية مدرسة أوروبية في الفكر السياسى ، يمكن القول بأنه يميل الى نظرية الشيعة في الامامة والفلسفة « النفعية » وبالذات عند جون ستيورات مل . فالنظرية الشيعية تعلى من قدر الامام « المعصوم » ولا تجوز للرعية حق خلعه حتى اذا أخطأ ، فليس لها سوى اسداء النصيحة مع الالتزام بالطاعة . وربما كان لانتمائه لأسرة من « الاشراف » العلويين دخل في ذلك . أما تأثره بالفلسفة « النفعية » فأمر مؤكد وربما التقى بجون ستيوارت مل نفسه في فرنسا ابان اقامته بها ، فقد زار هذا الفيلسوف الانجليزى باريس سنة ١٨٣٠ ، و « ومقاله في الحرية » يعبر عن اعجابه بالملكية الانجليزية في ذات الوقت الذى يتعاطف فيه مع ثورة عام ١٨٣٠ في جوهره لم يمس شيئا الا خلط فيه . وعند الطهطاوى نجد نفس التناقض ، فاذا كان مل قد طور مذهب المنفعة حين دعى الى اخضاع المنفعة الذاتية للمنفعة الكلية ، فان الطهطاوى بالقدر الذى برر فيه للحكم المطلق لم يتجاهل مصلحة الشعب ، فالقوة الحاكمة ــ فى نظره ــ « هى قوام الدنيا والدين » ، والقوة المحكومة « هى القوة الأهلية المحرزة لكمال الحرية » .

وعلى ذلك فمن الخطأ القول بأن الطهطاوى نادى « بفصل الدين عن الدولة » « وأراد أن يحرر المصريين لس بموجب السلف الصالح بل بحض الناس على العقلانية » أو أنه حاول » تثبيت فكرة الدولة الزمنية أو العلمانية » كما ذهب بعض الدارسين .

تصدى الطهطاوى لتبرير الحكم المطلق لاعجابه الشديد بمحمد على بقدر بعد نظره وحيطته من الوقوع في المحظور ، ولقد حاول مرة

« تميس » جريدة الوقائع والخروج بها عن اطارها التقليدى ، فأوقف عند حده ، كما لقى عنتا شديدا على يد عباس الأول فأدرك خطورة الدعوة للديموقراطية صراحة في ظل حكومات استبدادية • لكنه من ناحية أخرى أورد في كتبه « تخايص الابريز » و « مناهج الألباب » و « المرشد الامين » من الاشارات والايماءات التى تنهض دليلا على ميله الشديد للنظم الديموقراطية •

أما عن تبريره للاستبداد فيظهر بوضوح في جعله الحاكم ـ لا الشعب ـ مصدر السلطات الثلاثة التشريعية والتنفيذية والقضائية ، ولذلك فقد تنكر لأبسط المبادىء التى طرحها أعلان حقوق الانسان الذى تمخضت عنه الثورة الفرنسية الكبرى ، وفضلا عن ذلك فقد تجاهل مبدأ فصل السلطات وركزها جميعا في يد الحاكم الذى أضفى عليه طابعا قدسيا حيث يقول « •• فالملك خليفة الله في أرضه ، وأن حسابه على ربه ، فليس عليه في فعله مسئولية لاحد من رعاياه وانما يذكر للحكم والحكمة من طرف أرباب الشرعيات أو السياسيات برفق ولين لاخطاره بما يجب أن يكون قد غفل عنه مع حسن الظن به لقوله صلى الله عليه وسلم الدين النصيحة » •

وفيما يتعلق بتقديسه للحريات كان الطهطاوى يدرك في قرارة نفسه أن الاستبداد ليس من الدين في شيء ، وأن مبدأ « الشورى » الديموقراطى مبدأ اسلامى أصيل ، ولا شك أن ايمانه بالديموقراطية قد تأصل آبان بعثته بفرنسا ، فحاول التبشير بها ما استطاع الى ذلك سبيلا ، فابان وجوده بالسودان ترجم « مغامرات تليماك » ليومىء بالرمز الى رفض الاستبداد والدعوة لتقويم الحكم المطلق • وحتى في عصر محمد على نفسه نجد الفرنسى « ليس مما في كتاب الله ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم » أن « يكون تدبيرها العجيب عبرة لمن اعتبر » على حد قوله •

ولم يجد الطهطاوي تناقضا ألبته بين العقلانية الليبرالية كما وعاها في باريس وبين الشريعة الاسلامية كما فهما ، فعلى الرغم من أن الدستور الفرنسي ليس مما في كتاب الله ولافي سنته سنة رسول الله صلى الله علية وسلم فقد استحسنه لانه « حكم بالعدل والانصاف » ، والعدل والانصاف من أصول الشريعة « فأرادة الله وشريعته خير ضمان للعدل واستقامة الأمور » واستبداد ملوك الشرق ــ في نظره ــ « لا وجه له في الشرع » .

كان الطهطاوي ينساق بسليقته وبثقافته للاشادة بالديموقراطيه ، ثم يفطن الى خطورة التعبير عن مكنونات نفسه فيرتد مدافعا عن الحكم المطلق ، فالدستور الفرنسي « فيه أمور لا ينكر ذو العقول أنها من باب العدل » ، « وأغلب ما في هذه الشرطة نفيا » ، « والمواد الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة نافعة لأهل البلاد والغرباء » ، « ولا يخفى عليك حكمة باقي المواد » تلك العبارات وغيرها دعوة مقنعة للحرية وتحبيذ . مرتعش للديموقراطية سرعان ما يتحول الى تراجع ملفوف يصل الى حد الانكار ، فالشرطة (الدستور) الفرنسية « ليست مستنبطة من الكتب السماوية .. وهى مخالفة بالكلية للشرائع » .

هذا التناقض في موقف الطهطاوي كان له في الواقع ما يبرره ، وحسبنا أنه اشاد بالديموقراطية في غير سفور في عصر تقلد الحكم فيه اكثر من ديكتاتور ، فاستحق أن يوصف بأبى الديموقراطية المصرية .

المراجـــع

١ ـ ابراهيم عبده : أعلام الصحافة العربية ـ القاهرة ١٩٤٤ .

٢ ـ ابراهيم عبده : زعماء الاصلاح في العصر الحديث ـ القاهرة ١٩٤٨ .

٣ ـ ابن خلدون : المقدمة .

٤ ـ أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم في عصر محمد على القاهرة ـ ١٩٣٨ .

٥ ـ رفاعة الطهطاوى : تخليص الابريز الى تلخيص باريز ـ بولاق ١٢٦٥ هـ

٦ ـ رفاعة الطهطاوى : القول السديد في الاجتهاد والتقليد القاهرة ١٢٨٧ هـ

٧ ـ رفاعة الطهطاوى : مناهج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية القاهرة ١٩١٢ .

٩ ـ لويس عوض : تاريخ الفكر المصرى الحديث في القاهرة ١٩٦٩ .

دور ابن زيـدون السياسي والدبلوماسي

في الاندلـــــــس

فى عصر ملوك الطـوائف



الدكتور محمد حسين الزبيدى

أستاذ التاريخ الاسلامى المساعد بكلية الآداب بجامعة بغداد

وعضو اتحـاد المؤرخين العرب

الفصــل الاول

شهد القرن الرابــع والخـــامس للهجره (القرن العاشر والحـــادي عشر) للميـــلاد في الاندلس احداثا جســـاما وتطورات خطيرة فكانت بداية لغروب شمس الخلافة الاموية التى امتدت قرونا عــدة في شبه الجزيرة بلغت فيــه قمة المجد والحضـــارة وقامت على انقاضها دول صغيرة سميت (دول ملوك الطوائف) حيث قسمت الاندلس الى اقاليم صغيرة مستقلة متنافرة كل مدينة تحــاول ان تمد نفوذها على الأخرى .

وقــد غلب كثير من هــذه الدويلات الاســلامية عــلى أمرها فأنقســم المسلمون على أنفسهم وأستنصروا اعــداءهم على بعضهم البعض . وســلموا البلاد والقــلاع والحصون واحــدا تلو الآخر الى اعدائهم وأمدوهم بالمعونة على اخوانهم ، وهكذا أودت تلك الأمور بذلك الملك العظيم .

لقــد كانت بدايــة انحــلال هــذا الملك العظيم من أول يــوم تولى فيه المستعين الخــلافة في منتصف ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ وكانت أيــام المستعين كما يقول ابن حيــان(١) شــداد نكرات صعابا مشئومات كريهات المبــدأ والفاتحــة قبيحــان المبــدأ والمنتهى) وقــد اقتصر حكمــه على قرطبــة وثلاث مــدن أخرى .

ثم جاء المستكفي الى الخلافة بعــد المستظهر وكان ضعيف الرأى ســاقط المرؤة يقول ابن حزم (انه لم يجلس للامارة منذ تلك الفتنة اسقط منه ولا انقص اذ لم يزل معروفا بالتخلف والبطالة اسير الشهوة عاهر الخلوة)(٢) .

وقــد صور لنا ابن حزم(٣) انقســام الدولة الى ممالك تصويرا دقيقــا فقال (فضيحة لم يقع الدهر مثلها اربعــة رجال في مسافة ثــلاثة ايام في مثلها

---

(١) ابن حيــان : الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٥ .

(٢) البيــان المغرب ج ٣ ص ١٤١ .

(٣) البيــان المغرب ج ٣ ص ١٤٣ .

يسمى كل واحد منهم بأمير المؤمنين ويخطب له في زمن واحد) : احدهم خلف الحصرى باشبيلية على انه هشام بن الحكم المؤيد والثانى محمد بن القاسم حمود بالجزيرة الخضراء والثالث محمد بن على بن حمود لمدينة مالقا والرابع ادريس بن يحيى بن على بسبته وقد اراد هؤلاء الملوك ان ينفصموا انفسهم فتسموا ألقاب الخلافة كما تناهبوا اشلاءها فكان منهم المعتضد والمأمون الحسن ابن رشيد القيرواني فقال مما يزهدني في ارض اندلس اسماء معتضد الحسن ابن رشيد القيرواني فقال مما يؤهدني في ارض اندلس اسماء معتضد فيها ومعتمد القاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخا صولة الاسد •

ولم يزل هؤلاء ملوك الطوائف في قتال مستمر يستعينون بعد وهم جميعا على بعضهم الى ان تولاها الضعف واستولى فرناند ملك قشتالة وليون على قسم من البلاد ودفعوا بعض ملوك الطوائف الجزية وتبع فرناند الفونس السادس وقد اشغل البلاد بحروبه وجيوشه فأستغاث المعتمد بن عباد زعيم ملوك الطوائف يوسف بن تاشفين ملك المرابطين في المغرب فأغاثه بجيش كبير هزم المسيحيين هزيمة منكرة في موقعة الزلاقة •

كان الى جانب هذه الفوضى السياسية في البلاد فوضى اجتماعية أخرى غذت الفوضى السياسية واشعلت نارها •

كانت العصبية القبلية مستشرية في بلاد الاندلس فكانت فروع القبائل القحطانية والعدنانية في نزاع مستمر ؛ وقد حمل العرب الفاتحون معهم هذه الحزازات واغرقوا الاندلس بثورات وفتن شغلت معظم تاريخ الجزيرة •

وفضلا عن ذلك فقد كانت هناك عصبية أخرى اعنف منها وأبعد أثرا هي العصبية بين العرب والبربر • كان العرب ينظرون الى غيرهم من الامم نظرة استعلاء • فلما اعتنق البربر الاسلام وأسهموا في فتوحاتهم ساءهم استعلاء العرب عليهم واستغلالهم اياها • الامر الذى اثر في نفوسهم تأثيرا سيئا فقاموا بثورات عنيفة عديدة مدمرة لم يخل منها عصر امير أو خليفة حتى

استقلوا أخيرا ببعض الاقاليم •

يضاف الى ذلك الخصومة الدينية والعنصرية التي كانت قائمة بين المسلمين والمسيحيين سواء كانوا خاضعين لحكم المسلمين ام مستقلين عنهم على تخوم البلاد الشمالية ، وقد استغل هؤلاء سماحة الاسلام والمسلمين في التآمر على الاسلام والكيد له وانتهاز كل فرصة سانحة لذلك حتى تمكنوا من الاستيلاء على اطراف الاندلس فأبتلعوها أخيرا • وتاريخ الاندلس هو تاريخ صراع طويل ومرير بين المسلمين والمسيحيين سواء بأسبانها أو غيرها • وفي هذين القرنين (الرابع والخامس الهجريين رجحت كفة المسيحيين وفرضوا سلطانهم على المسلمين وقد رأينا كيف ان بعض افراد المسلمين كانوا يدفعون لهم الجزية أو يستنصرهم على بعضهم الآخر) •

والى جانب ذلك كانت هناك خلافات طائفية بين المسلمين أنفسهم فقد قامت دعوة شيعية قوية يناصرها الفاطميون في مصر والمغرب ضد الامويين في الاندلس وقد قامت ثورات حملت لواء هذه الدعوة ومنها ثورة شقي بن عبد الواحد(٤) وقد ظل عشر سنوات يناهض الامويين وقد سلبهم فيها الاستقرار والاطمئنان وقد ايده خلق كثير • وقامت حروب رهيبة بين الناصر والفاطميين ثم بينهم وبين الحاجب المنصور وقد تمكن الشيعة من تأسيس امارة لهم في عصر الطوائف سميت دولة بني حمود حكمها بنو حمود في هذا الجو المضطرب الهائج ولد ابن زيدون وعاش فيه فجاءت حياته مضطربة هائجة مثقلة بالاحداث العظام •

الفصل الثاني

ولد ابن زيدون(٥) في قرطبة سنة ٣٩٤ هـ (في زمن الدولة العامرية في اول عهد المظفر بن المنصور) من اسرة كريمة تنتمي الى قبيلة بني مخزوم —

---

(٤) ابن الاثير ، الكامل ج ٥ ص ٣٤ ، ٣٥ •

(٥) هو احمد بن عبد الله بن احمد بن غالب بن زيدون المخزومي • ابن خلكان وفيات الاعيان ج ١ ص ٥٣ •

وهي بطن من لؤى بن غالب من بطون قريش (٦) ـ في بيت من بيوت اعيانها وفقهائها • المعرفة باللغة والادب وكان ابوه من فقهاء قرطبة المعدودين وكان غزير العلم واسع الادب فصيحا جميل الاخلاق واسع الثراء • كل ذلك مكنه من ان يكون ذا شأن خطير في قرطبة • فكان اولو الامر يستشيرونه في امورهم الخطيرة ويستفتونه في المشاكل من شؤونهم(٧) •

وكان جده لامه صاحب الاحكام الوزير ابو بكر محمد بن محمد ابن ابراهيم وكلمة صاحب الاحكام تعني انه اشتغل بالفقه والقضاء(٨) •

اهتم هذا الفقيه العظيم بأبنه منذ نعومة اظفاره فاحضر له الادباء والمثقفين ووصله بالعلماء والفقهاء من اصحابه وكان هو نفسه اول اساتذته اذ كان متفنناً في ضروب العلم جم الروايه والمعرفة باللغة والاداب ، على ان تلمذته لم تطل فقد توفي وابنه في الحادية عشرة من عمره سنة ٤٠٥ هـ ـ ١٠١٤(٩) •

ثم لزم صديق ابيه العباس بن ذكوان من علمه وفقهه فقد كان عالي قرطبة الاول وامتدت حياته بعد ابيه الى سنة ٤١٣ للهجرة • ومن اساتذته المشهورين ابو بكر مسلم بن احمد وكان نحويا اديبا منفدما في علم اللغة والادب ورواية الشعر وقد اعجب ابن زيدون وعكف على محل دروبه •

ومما لا شك فيه ان عقل ابن زيدون ليس من صنع هؤلاء الثلاثة وحدهم بل هو من صنع قرطبة (ساحة العلوم والآداب) او جامعتها الكبيرة وما كان يلقي فيها من الدروس وضروب العلم اذ كان يختلف كعيره من شباب عصره الى العلماء والادباء هناك فينهل من معارفهم وثقافاتهم ويأخذ من آدابهم

---

(٦) النويري : نهاية الادب ص ٣٣٥ •

(٧) ابن بشكوال : الصلة ص ٢٥٤ ، ابن الابار ـ التكملة ج ٢ ص ٤٤٥ •

(٨) شوقي ضيف ـ ابن زيدون ص ١٥ •

(٩) شوقي ضيف ـ ابن زيدون ص ١٦ •

وعلومهم ما يتخـذ به فكره ويصقل به لسـانه(١٠) •

وعلى هـذا نرى ان ابن زيدون كان موفقا غاية التوفيق في المهمـة التى كان يوكلها اليـه ابن جهور ، ولمـا رآه ابن جهور اهـلا للوزارة رقاه اليهـا بل جعله ذا الوزارتين فكـان منـه بمنزلة السمير والوزير والمشير والسفير فكم انقـذه الى ملوك الطوائف لامور سياسية ولمخـابرات تقتضيها المعاملات والمجاملات التى يوجهها او تدعو اليهـا علاقاته معهم او مع ملوك الأحيان • فأحسن ابن زيدون التصرف في ذلك وادام الصلة بينـه وبين الامراء الآخرين وطور العلاقات ومتنها لذكائه ودهائه وقـد ارتبط بصـلات ودية مع عـدد من امراء الطوائف كعبد العزيز صـاحب بلنسية وباريس صـاحب غرناطـة والمظفر صـاحب بطليوس وادريس بن حمود صـاحب ملقـة • وغلب عـلى قلوب الملوك حتى كان كل ملك يخطب وده ويتمنى ان يقيم عنده ولكنه بعـد انقضـاء مهمته يرجـع الى قرطبه • ويرجـع سبب نجاحه في امور السفارة هـذا النجـاح الكبير الى تجاربه الكثيرة وسعه ثقافته وقوة عارضـة وافتنانه ووسـامة مظهره وجلال اصله •

وظل ابن زيدون في خدمـة ابن جهور يخدمـه بأخلاص وتفان فلم يبخل عليـه بجهد او رأى او مشورة او عمل يؤديه ارضـاء له وظل يشرب كؤوس الود صـافية مترعـة حتى قلب الـدهر له ظهر المجن •

لقـد اغاض الحاسـدين مكانة ابن زيدون من ابن جهور وقربه من قلبه واعتماده عليـه فبدأت تدب عقارب السعاية والوثاية والغيرة بينه وبين حاسدى نعمته وسعادته • وبين من كانوا ينفون عليـه شهرته الذائعة وفصاحته البارعة أو كانوا ينافسونه في غرامه أو فوزه بحب ولادة بنت الخليفة المستكفي بالله • وقـد نقموا عليـه لانه نالهم بلاذع لسـانه وسخريته منهم •

---

(١٠) شوقي ضيف : ابن زيدون ص ١٧ •

وتكالب عليه الحاسدون والحاقدون وتآمروا عليه حتى نجحوا لدى ابن جهور فحبسه وبقي في الحبس خمسمائة يوم •

الفصل الثالث

دور ابن زيدون الدبلوماسي

لقد اسهم ابن زيدون في احداث عصره اسهاما فعالا في مدينة قرطبة وقد ادى دورا بارزا في الاحداث السياسية لمكانته المرموقة بين شباب قرطبه واصالة نسبه وانه ابن من ابناء سيوخها الاعلام • وان هؤلاء الشباب سئموا تلك الحياة القلقه المضطربة لكثرة القلق والفتن والاضطرابات

ومما لا شك فيه ان هذه الصفوه المختاره احدث تعطي رايها بتلك المتلاحقه التي نزلت بمدينة قرطبة •

الاحداث وتنتقد اساليب الحكم وسيطرة السلطان وسيطرته ، وكان لها راى مسموع بين الناس وسلطان على الشعب وقد هيا لها هذا المركز الاجتماعى المرموق الذى تمتعت به ان يؤثروا بسير الاحداث تاثيرا مباشرا فقد استطاعوا ان يعزلوا وينحوا امراء ويولوا اخرين غيرهم وان ينقلوا الحكم من اسرة الى اسرة وخير شاهد على ذلك اعادتهم سقوط الخلافة الاموية ومناداتهم بجمهورية يحكمها الشعب وترجع الى الشعب في احكامها •

ويبدو من ذلك ان ابن زيدون اسهم بنصيب كبير في هذه الاحداث والثورات المتلاحقة بل تزعم وقاد الثورة على خلافة بني امية واسقط الخليفة المعتمد آخر خلفاء الامويين في الاندلس واشترك بأقامة الحكم الجمهورى الذى جاء بابن جهور اميرا على قرطبة • ولعل لنكبه جده لأمه على يد اتباع الامويين وانصارهم اثرا هاما في الثورة عليهم والقضاء على حكمهم •

وقد آكد ابن بسام اسهام ابن زيدون في هذه الاحداث بصورة مباشرة ومقالة « كان ابو الوليد من ابناء وجوه الفقهاء في قرطبة ايام الجمعة والفتنة وبرع ادبه وجاد شعره وعلا شأنه وانطلق لسانه فذهب به العجب كل مذهب »(١١) •

---

(١١) ابن بسام ـ الذخيرة • ق ١ ج ١ ص ٢٩٠ ـ ٢٩١ •

على ضوء ذلك نستطيع ان نحدد دور ابن زيدون السياسي في تلك الاحداث اسهم بفصاحته وبلاغته النادرة وسعة علمه وثقافته في تفويض الجماهير وتأليبها في الثورة على السلطان وابراز عيوب الحكم والحاكمين والدعوة لابن جهور وجمع الناس حوله والتمسك به في تسلم الحكم وكان ذلك يتم بالاشادة بفضله وعدله وحكمته . وكان ابن زيدون خير من يجيد هذا الامر باسلوب جميل وتيق وبلاغة ممتازة وفصاحة نادرة . وقد ذكر ابن خاقان ما يؤيد هذا الراى بان عده (زعيم الفئة القرطبية ونشأة الدولة الجمهورية)(١٢) .

واننا نميل الى الاعتقاد بان ابن زيدون اسهم في احداث هذه الثورات وهو في الثامنة عشر من عمره وكانت اهم الثورات المعاصرة له في هذا السن المبكر هي :

١ ــ ثورة اهل قرطبة سنة ٤١٤ هـ على القاسم بن حمود وطرده من قرطبة .

لم يوفق القاسم في سياسة تجاه اهل قرطبة لانه اصطفى البربر ومكنهم من اهل قرطبة فأشتدوا في معاملتهم ومطاردتهم وضاق اهل قرطبة في النهاية ذرعا تلك الحالة فثاروا على البربر واستعدوا لقتالهم واعلنوا خلع القاسم واستمرت المعارك حينا من الزمن حتى استطاع القرطبيون ارغام القاسم على مغادرة القصر وذلك في جمادى الثاني سنة ٤١٤ هـ (ايلول / ١٠٢٣ م) فأنقلب البربر الى محاصرة المدينة بعد ان اغلق اهل قرطبة الابواب واستمر الحصار خمسين يوما والمعارك في كل يوم تتجدد واخيرا خرج اهل قرطبة واشتبكوا مع البربر في معركة كبيرة حاسمة وقاتلوهم قتالا شديدا حتى هزموا البربر ومزقوهم وتفرقت بقايا البربر وانفضت عن القاسم فثار القاسم في نفر من اصحابه الى اشبيلية(١٣) .

(١٢) ابن خاقان ــ قلائد العقيان ص ٧٣ .

(١٣) البيان المغرب ج ٣ ص١٣٤ ــ ١٣٥ ــ اعمال الاعلام ص ١٣٣ .

وكان اهل قرطبة قد سئموا حكم البربر واتباعهم واجمعوا على رد الامر الى بني امية فعقدوا البيعة الى عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر لدين الله في السادس عشر من رمضان ٤١٤ ديسمبر منه ١٠٢٣ م واتخذ لقب المستظهر بالله(١٤) .

ثورة القرطبيين سنة ٤١٤ على الخليفة المستظهر بالله وقتله :

لقد تولى المستظهر الخلافة وهو فتى في الثالثة والعشرين من عمره . وقد قدم لنا ابن بسام(١٥) المؤرخ الاندلسي المعاصر صورة للظروف التى صاحبة ولايته . في الواقع ان هذا الخليفة كان يتمتع بخلال باهرة وكان ممكنا ان يكون معقد الآمال لو اتيح له من السلطان وحرية التصرف ما طلب ولكن الظروف عاجلته وغلبته على امره وكان قد بدأ حكمه بان ارسل الى الثغور والمدن يطلب تأييد البيعة له فلم يستطع وقبض على عدد من الوزراء وصادر اموالهم وكان يعتقد ان سلطانه سيقوى بأزالتهم .

ثم اعتقل عدد من ابناء المردانية . كانت هذه البوادر تذكي سخطا الخاصة والعامة عليه ثم وقع حادث زاد الطين بله وكان نذير الثورة عليه وذلك انه استقبل عددا من الفرسان البربر فاكرم وقادتهم وانزلهم في القعر فاغضب ذلك الاعيان والاشراف وآوغروا صدور العامة قائلين لهم : اننا حاربنا البربر وقهرناهم الخليفة يسعى في ردهم الينا وتمكينهم من امرنا فهاجت العامة وثارت وزحفت جموعهم على القصر واقتحموه على غرة وقتلوا البربر حيث وجدوا وفتحوا المطبق (السجن) واخرجوا منه من كان من المعتقلين ووثبوا الى جناح الحرم وايقن الخليفة عبد الرحمن المستظهر بالله انه هالك لا محالة فأختبأ في اتون الحمام واعتدى الثوار على اهله وحرمه وكانت مناظر شنيعة ومروعة وحملوهن الى منازلهم علانية .

---

(١٤) الحميدي ـ محمد بن فتوح ، جذوة المقتبس ص ٢٤ .

(١٥) ابن بسام ـ الذخيرة ـ القسم الاول ص ٣٨ ـ ٣٩ .

ولما اختفى المستظهر بالله ، ظهر ابن عمه محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر وكان مختبئا ، فأخذه الثوار الى القصر واجلس مجلس الملك وبويع بالخلافة في اليوم الثالث من ذي القعدة سنة ٤١٤ هـ ١٧ يناير ١٥٢٤ م وتلقب بالمستكفي بالله • وقد فتش الثوار عن المستظهر فعثروا عليه في اتون الحمام في حالة مزرية فأخذ الى الخليفة فأعدمه فقتله • وكانت امارته منذ توليته الحكم حتى مقتله سبعة وأربعين يوما •

وكان المستكفي يوم ولايته في الثانية والخمسين من عمره وكان خاليا من الصفات الحسنة مولعا بالمجون والشراب سيء الرأى عاجزه وقد شبهه ابن حزم في سوء صفاته وفي مجونه وفسقه وخضوعه لشهواته بسميه المستكفي العباسي • وقد كان كلاهما في نفس السن وحكم كل منهما نحو سنة وخمسة اشهر(١٦) •

اضطهد المستكفي معظم السياسيين القدماء والمفكرين وقد هجر قرطبة كثيرون منهم ولجاوا الى بلاط يحيى بن حمود بمالقة • وهدم القصور الناصرية وخربت قصور المنصور بالزاهرة فسادها الخراب •

وقد نقل هؤلاء المهاجرون ليحيى بن حمود سوء الاوضاع في قرطبة والخراب الذى حل بها والزرء الذى لحق باهلها • وقد سئم اهل قرطبة ولاية المستكفي فثاروا ونادوا بخلعه • فدخل عليه الوزراء والاشراف واغلظوا له في القول وطلبوا منه التنازل عن الخلافة • فتنازل ثم غادر قرطبة متخفيا في زى امرأة ، وكان ذلك في اليوم الخامس والعشرين من ربيع الاول سنة ٤١٦ هـ ـ مايو ـ ١٠٢٥ وصار المستكفي صوب الثغر في نفر من صحبه ووصل الى اقليج من احواز قرطبة وهنالك اغتاله بعض مرافقيه لاعتقادهم

---

(١٦) ابن حزم ـ البيان المغرب ٣٢ ص ١٤١ •
ابن الخطيب ـ اعمال الاعلام ص ١٣٦ •

انه يحمـل مالا(١٧) .

٢ ـ ثورة اهل قرطبـة سنة ٤١٧ هـ ضـد البربر واسقاطهم حكم العلويين من بني حمـود وارجـاع الملك الى بني اميـة :

مضت بضعة اشهر على خلع الخليفة المستكفي والحكومة في قرطبة فوضى والشعب في فتنة عارمة . الامر الذى شجع يحيى بن حمود العلوى ان يستولي على العاصمة قرطبة فقصـدها في جيش كبير ودخل قصر الخلافة . في الخامس عشر من رمضـان في نفس العـام (٤١٦ هـ) ٩ نوفمبر ١٠٢٥ م وبقى بهـا الى نهاية العـام ثم تركها في أوائل محرم سنة ٤١٧ هـ قاصـدا مالقه واناب فيها وزيريه احمد بن موسى ودوناس بن ابى روح لادارة شؤون البلاد ومعهما حاميـة من الف رجل من البربر لضبط البلاد .

ولم يمظ شهران على ترك يحيى البـلاد حتى اضطربت الاحوال وسـاء الوضـع في قرطبة وقـد استغل بعض الاشخاص من بني عـامر كرد اهـل قرطبـة للبربر فحرضوهم على قتـل البربر فثار القرطبيون وفتكوا بالحاميـة البربرية وفر احمد بن موسى ودعه الى مالقه وكان ذلك في العشرين من ربيع الاول سنة ٤١٧ هـ .

وقـد اجتمعت كلمة القرطبيين بعد ذلك على رد الخـلافة لبني امية وكان ابرز قادة هـذا الرأى الوزير ابو الحزم جهور بن محمـد بن جهور واتفقوا على مبايعـة هشـام بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر وكان قـد هرب مـع قليـل من اصحابه بعـد ان قتـل اصفرة عبـد الرحمن المرتضى في سنة ٤٠٩ هـ هرب من قرطبـة واستجار بحمـاية والي البونت عبد الله بن قاسم الفهرى وبعث اهـل قرطبـة بالبيعـة اليـه وهو بمقره بحصن البونت فتلقاها في ٢٥ ربيع الآخر سنة ٤١٨ هـ وتلقب بالمعتمد بالله وظل بمقره بمدينة البونت مـدة سنتين وسبعة اشهر وهو يخطب له بقرطبـة ثـم قـدم اليهـا

---

(١٧) ابن حزم ـ البيـان والغـرب ـ ج٣ ص ١٤٢ .

في شهر ذى الحجة سنة ٤٢٠ هـ فجددت له البيعة .

٣ ـ ثورة القرطبيين سنة ٤٣٢ هـ ضد الخليفة المعتمد واسقاط الخلافة الاموية ونفي الخليفة الى لا ردة آخر خلفاء بني امية واقامة حكومة ثورية بزعامة ابن جهور في دى الحجة سنة ٤٢٢ هـ(١٧م) .

لقد ذكرنا سابقا ان المعتمد قدم الى قرطبة سنة ٤٢٠ فجددت له البيعة وفرح اهل قرطبة بمقدمه اشد الفرح واعتبروه منقذا لهم من جور الخلفاء ولكنه ما لبث هذا الخليفة ان القى زمام وتقاليد الامور الى رجل عن الموالي الوزير حكم بن سعيد القزاز فاستبد بالسلطة واستأثر بها واطلقت يده في اموال الدولة وكان اخرق متعسفا ، فجمع حوله عصبة من الجهلاء والسفهاء والعاطلين عن كل اخلاص وحزم واطلق العنان لغوايته ورغباته فأضطربت شؤون الدولة وعمت الفوضى فامتعن وجهاء البلد وزعماء البيوتات الكبيرة وتحسسوا بما نالهم على يده من انواع الاهانة والنيل من حقوقهم .

وفضلا عن ذلك فقد احاط هذا الوزير الماجن الخليفة برجال من عصبته واعوانه وابعد عنه العلماء واهل المشورة والراى ودفعه بالرغم من شيخوخته الى الشراب والمجون والفسق والفجور حتى ساءت امور الدولة وفقدت الخلافة والحكومة كل حب واحترام وثار الناس وطالبوا بوجوب ازالة هذه الحالة والتخلص منها . وقد اتجه الناقمون والثائرون الى فتى من ابناء عمومة هشام هو امية بن عبد الرحمن العراقي من احفاد الناصر . وكان هذا جاهلا متهورا طموحا وقد تربصت به ذات يوم تلك الجماعة الناقمة الثائرة بالوزير حكم بن سعيد وقتلته وطافت برأسه في المدينة معلنة الثورة على الطغاة واعوانهم . ثم سارت الجموع الثائرة الغاضبة الى قصر الخليفة والخليفة هشام بين نسائه وغلمانه يشرب الخمر فنهب الثائرون بعض اجنحة القصر ، وقد تصدى الوزير الشيخ ابن جهور لهم وصدهم

(١٧م) بغية الملتمس ص ٢٤ .

بالقول والنصح ولولاه لما بقي في القصر شيء .

ولما شعر هشام المعتمد بخطورة الامر وخشي على نفسه من غضب العامة هرب من القصر مع عائلته وحاشيته وقد اجمع الثائرون على خلعه والتخلص منه ومن بني امية وابطال رسم الخلافة وقرروا نفي بني امية واجلاءهم جميعا عن المدينة . وكان رائد هؤلاء الجماعة وناصحهم فيما اتخذوه من قرارات ابو الحزم ابن جهور . وكان هذا الوزير النابه يحظى بمحبة الشعب وثقته وتأييده لما له من ارومة عريقة وما من مشرف .

وانتهى الثائرون الى خلع هشام المعتمد وابعاده واهله الى الحصون القريبة حيث التجأ الى سليما بن هود صاحب لاردة من اعمال الثغر الاعلى . وقضى هناك بقية حياته .

وابعد امية بن عبد الرحمن عن القصر واختفى وغادر قرطبة ونودي في قرطبة وجميع انحائها بأن لا يبقى بها احد من بني امية ولا يؤويهم احد . وتولى ابن جهور تنفيذ هذا الامر بمنتهى الحزم والشدة حتى اجلاءهم عن المدينة ومحا رسومهم(١٨) ونادى الثوار بابي الحزم بن جهور حاكما على قرطبة .

وبخلع الخليفة هشام المعتمد ينتهي حكم بني امية بصورة نهائية الى الابد في ربوع الاندلس والمغرب الاقصى وقد اشارت المراجع الى ان ابن زيدون كان من زعماء تلك الثورة التي زلزلت دولة بني امية وقضت عليها وقيام ملوك الطوائف في الاندلس وقد انقسمت الاندلس بعد سقوط الدولة الاموية الى تسع عشرة مملكة .

---

(١٨) البيان المغرب ج٣ ص ١٤٥ .

الفصل الرابع :

دور ابن زيدون السياسى

ولما انتقل الملك الى ابن جهور ادنى ابن زيدون منه وقربه اليه وأعلى قدره اعترافا بفضله ودوره وهو في الخامسة والعشرين من عمره • وصار يحبوه بوده وان كان لم ينعته بلقب الوزير على حين كان يقوم بأعبائها لما له من المكانة المرموقة في المجتمع القرطبي لبلاغته ورجاحة عقله وفزارة علمه فكانت الكتب والرسائل تنفذ من انشائه الى شرق الاندلس فيقال كانت تأتي اتبيلية كتب هي بالنظم الخطير اشبه منها بالمنشور وصار وكيلا وموثوقا لابن جهور حاكم قرطبة ثم عينه للنظر على اهل الذمة في بعض الامور المعترضة وقصره بعد على مكانة من المخاصة والسفارة بينه وبين الرؤساء فأحسن التصرف في ذلك وغلب على قلوب الملوك(١٩) •

وقد ايد الصفدى ذلك فقال (وكان اولا قد انقطع الى ابن جهور احد ملوك الطوائف المتغلبين على الاندلس فخيف عليه وتمكن منه واعتمد عليه في السفارة بينه وبين ملوك الاندلس فأعجب به القوم وتمنوا ميله اليهم لبراعة وحسن سيرته)(٢٠)

اقترنت الوزارة في الاندلس بالادب فكان الوزير كاتبا وشاعرا وكان اشهر الكتاب والشعراء وزراء وكانت الشهرة بالكتابة والشعر وفنون الادب وفروع العلوم من وسائل الوصول الى امتلاك الوزارة فكان للوزراء اثر عظيم في سير البلاغة والادب واصبحت منزلة الادب كمنزلة الوزراء انفسهم في الدولة وظهر في الاندلس طائفة من الرجال الذين تربعوا في مناصب الملك وتقبلوا في مراكز الدولة وغلبوا على شؤونها وهم جميعا من الادباء والعلماء

---

(١٩) ابن بسام ـ الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ق١ ج١ ص٢٩٠ •
ابن الابار ـ اعقاب الكتاب ص ٧٩ •

(٢٠) الصفدي ـ الوافي بالوفيات ج١ ص ٢٧١ •

والكتاب والشعراء واصحاب الثورى واعلام الحياة العقلية .

ومن اشهر هؤلاء الوزراء والادباء والشعراء المجيدين ابو الوليد احمد بن زيدون المخزومي(٢١) .

وقد نسبت الى ابن زيدون تهمة خطيرة نسبها اليه الوزير ابن عبد ومنافسه في حب ولاءه هي التآمر على قلب الملك واعادته الى بني امية والدعوة للخليفة هشام بتشجيع حبيبته ولادة بنت الخليفة الاموى المستكفي بالله . فوضعت في يده الاغلاق والقيود وقدم الى المحكمة بتهمة اخرى غير تهمة التآمر وهي (الاغتصاب) اغتصاب مال الغير وقد تولى القاضي ابو محمد عبد الله بن احمد المعروف بأبن المكوى محاكمته(٢٢) وقد ولي قضاء قرطبة في المحرم من سنة اثنين وثلاثين واربعمائة (٤٣٢ هـ) ولما عرض امره على القاضي امر بسجنه وشدد فيه وكان هذا الحاكم من الحاقدين عليه وأودع السجن وقد لقى ابن زيدون في سجنه صنوفا من الاذلال والهوان لم يخطر على بال احد .

وكتب ابن زيدون من سجنه قصائد يناشد فيها ابا الحزم بن جهور ان يعفو عنه وان يرعى حرمته معه وان لا يعفي الى ما قاله الوشاة ولم يكتف ابن زيدون بالقصائد الاشعار يطلب العفو بها فدبجه لابي الحزم رسالة اشتهرت بأسم (الرسالة الجدية) يستعطفه فيها ويطلب العفو عنه . ولكن ابي الحزم لم يعف ولم يلن .

تحول الى ابي الوليد بن ابي الحزم يمدحه ويتخذه وسيلة الى ابيه لعله يعفو عنه او يصفح فلم يوفق وعبثا توسل ابن زيدون بصديقه ابن برد فقد كان الجميع يرهبون ان يجرى اسمه على لسانهم . ولما سدت جميع الابواب في وجهه صمم على الهرب والفرار من سجنه ففر ليلة عيد الاضحى

---

(٢١) احمد ضيف ـ بلاغة العرب في الاندلس .

(٢٣) ابن بسام ـ الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ق١ ج١ ص ٢٩١ .

الى اشبيلية واتصل بالمعتضد بن عباد فلقى خفاوة واكراما ومكث في جواره عاما او بعض عام ولكنه كان يتطلع الى قرطبة يجذبه اليها هواه المشبوب فظلا عن اهله وخلانه ومصالحه المالية فكر اليها مستهينا واخذ يبذل مساعيه حتى ظفر برضا ابي الحزم وربما كان لابنه ابي الزيد الفضل الاول في ذلك •

ولم يلبث ابو الحزم ان توفي سنة ٤٣٥ هـ ـ ١٠٤٣ م وخلفه ابو الوليد ابنه فعينه للنظر على اهل الذمة ثم رفعه الى مرتبة الوزارة فعلا نجمه في السماء ثم اتخذه سفيرا اه بينه وبين ملوك الطوائف (وقدمه في الذين اصطنع لدولته وارفع راتبه وحلله كرامة)(٢٣) •

ولما تولى الشاعر امور السفارة نجح فيها نجاحا كبيرا فقد كان له من تجاربه السابقة وسعة ثقافته وقوة حجته ووسامة مظهره وعراقة اصله ما يؤهله للنجاح وقد كان مقام السفير في ذلك العصر اكبر من مقام الوزير ويعطى لقب ذي الوزارتين •

لقد وجد ابن زيدون راحة كبيرة اثناء تنقله في السفارة والاتصال بالملوك الذين تنفق مشاربهم ومشربه • وكان من ابرز هؤلاء الملوك الذين اتصل بهم :

ابن عبد العزيز صاحب بلنسية وقد اعجب به بصورة خاصة • ثم المظفر صاحب بطليوس وقد اثنى عليه وعلى آبائه وكرم ضيافته له وحسن استقباله •

ثم اتصل بادريس بن يحيى بن حمود وهو ادريس الثاني الملقب بالعالى ملك ملقا • وكانت في ادريس العالي صفات تجذبه الى الشاعر يجذب الشاعر اليه فقد كان متأدبا حسن اللقاء وله شعر جيد • فأطال ابن زيدون مكنه عند هذا الخليفة واقترب منه وخف على نفسه واحضر مجالس انسه(٢٤)

(٢٣) ابن بسام ـ الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ق ٠ ج١ ص٢٩١ •

(٢٤) بن بسام ـ الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ق١ ج١ ص ٢٩١ •

ويذكر ابن بسام ان الامير ابن جهور لم يرتح الى تصرف سفيره ولعله استدعاه فلم ينتجب وما طل في العودة وعتب عليه ابن جهور فلم يستجب للعتاب فعزله عن منصبه قبل رجوعه الى قرطبة(٢٥) •

ولما رجع الى قرطبة وجد ابا الوليد غاضبا متجهما معرضا عنه فأخذ يتردد اليه ويمدحه بقصائد كثيرة ولكن الامير عفا عنه ثم عاد الى جميل رأيه فيه فارجعه الى السفارة بينه وبين رؤساء الاندلس • فيما يجرى بينهم من المراسلة والمداخلة •

وقد خشى ابن زيدون عاقبة الامر وخاف ان ينال معه ما نال من ابيه حين زجه في السجن • فقرر مغادرة قرطبة بعد ان ضاق ذرعا بها • فأخذ يتنقل بين بلنسية وطرطوشة وبطليوس وظل يتنقل من بلد الى آخر حتى استقر ببلنسية فترة من الزمن وقد اشار ابن خاقان الى فترة التنقل والترحال هذه • بقوله :

« ولم تزل الايام تدنيه وتبعده وتسؤوه وتسعده وتقذف به الى كل نازح وتطرف امله بعين اللاعب المازح ، حتى احاته بلنسية وهلال ذكائه كما اقمر وغصن نباهته يانع قد اثمر • وبنو عبد العزيز غرر ملكها ودرر ملكها ، فحل منهم محل الحميا من الكوس ووقع منهم وقع البشائر في النفوس • واقام بين مرة تواصله ، ومرة تغازله ، ومكارمة تعاديه ، ومجاملة كرائم القطر وتاديه ••• »(٢٦) •

في بلاد بني عباد :

لم تستقر نفسه الثائرة في بلنسية فغادرها الى اشبيلية في سنة ٤٤١ هـ حيث حب به اميرها المعتضد فأعجب به اعجابا عظيما وقربه اليه وغره

---

(٢٥) ابن بسام ــ الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ق١ ج١ ص ٢٩١ •

(٢٦) ابن خاقان ، قلائد العقيان ــ ص ٧٦ •

بأفضاله وهش لمديحه فيه وتمتع معه بليالي سحر لطيفة •

وكان ملوك الطوائف يتشوقون الى ان يزينوا ملكهم بعظماء الكتاب والشعراء ويتنافسون في الحصول عليهم وضمهم اليهم وكان المعتضد في مقدمة هؤلاء الملوك عرفانا بأقدار الشعراء في عصره •

وكان المعتضد يعلم عن ابن زيدون انه يتقن فنون السياسة والدبلوماسية مما يؤهله لبذل النصح الثمين ويعرف عنه انه اتصل بملوك الجزيرة وخبر احوالهم ودرس طبائعهم وعرف مكامن القوة والضعف فيهم ، فهو جدير بأن يبصر المعتضد بالخطة المثلى في معاملتهم في الحروب او السلام •

ولهذا غمره بحفاوته وبره وجعله من خواصه يجالسه في خلواته ويركن الى اشاراته في صورة وزير(٢٧) •

ولقد تولى ابن زيدون مناصب عديدة في بلاد المعتضد وقد نجح في جميع المناصب التى تولاها بفضل دبلوماسيته الهادئة وسياسته الرزينة • واهم هذه المناصب هي :

اتخذه المعتضد ناصحا في مرتبة وزير • ولقد جرى المعتضد مشورته فشكرها واطمأن اليها وقد بذل ابن زيدون جهودا كبيره في توطيد هذه الدولة واتساع رقعتها مما جعل المعتضد يثق به ثقة كبيرة ، واشار ابن زيدون الى ذلك في شعره شاكرا فقال :

حسبي النصح والوداد وشكر ... عصر الدهر منه مسك ففض(٢٨)

ثم رفعه المعتضد الى مرتبة ذى الوزارتين (المشورة والحكم) وهو لقب يختص به الملك افرادا معدودين يشركونه في التدبير فضلا عن المشورة • وقد ايد ذلك ابن بناته فقال (فتلقاه المعتضد بالقبول والاكرام وولاه وزارته

---

(٢٧) الصفدي ـ الوافي بالوفيات ج١ ص ٢٧١ •

(٢٨) الديوان ص ٨٨ •

وفوض اليه امر مملكته)(٢٩) • وقد سماه صاحب المعجب ذا الرئاستين(٣٠ •

عهد المعتضد الى ابن زيدون بالسفارة بينه وبين امراء الطوائف في اهم رسائله لفضل ما اوتيه من اللسن والعارضة(٣١) وبذلك استحق لقب ذي الوزارتين • وقد اظهر براعة فائقة في هذا المنصب عند بني عباد كما أظهر براعة في بلاد ابن جهور من قبل •

عهد المعتضد الى ابن زيدون منصب الكتابة وكان يتشوق الى هذا المنصب وهو منصب خطير يشبه منصب رئيس الديوان الملكي في عصرنا هذا ـ الى جانب انشاء الرسائل الديوانية الهامة وانفاذها وكان صاحب هذا المنصب يلم بجميع اسرار الدولة وعلاقاتها الخارجية ويكاد يمسك بيده جميع ازمتها وكان لا يتولى ذلك الا وزير خطير وقد وفق في هذا المنصب توفيقا كبيرا(٣٢) •

وبذلك اجمعت اهم امور الدولة موكولة اليه وقد نجح فيما اضطلع به من شؤون ، فما كاد يتصل بالمعتضد حتى توالت فتوحاته واتسعت رقعة مملكته وكان ابن زيدون في ذلك حكيما لبقا يتحرى مواضع اهدافه ورغباته مستفيدا بما اكسبته الايام والتجارب من خبرة طويلة في تمرسه بأعباء الحكم واتصاله بالملوك والامراء •

وقد قضى ابن زيدون في كنف المعتضد ما يناهز العشرين عاما •

لقد ظلت روح الحنين الى قرطبة تشد ابن زيدون وتذكي لواعج الشوق والوجد فيه (فهي موطنه وموطن حبه الاول وموطن حبيبته

(٢٩) سرح العيون ص ٦ •
(٣٠) المعجب ص ١٠٥ •
(٣١) اعتاب الكتاب ص ٧٩ •
(٣٢) ابن بسام ـ الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ج١ ص ٢٩٠ •

ولادة . فأخذ يشجع المعتضد ويزين له فتحها ويسهل عليه امر افتحامها ويدبر له وسائل نيلها فشرع المعتضد يدبر لها الوسائل ويحيك الدسائس ولكنه مات قبل ان يصل الى مبتغاه حيث توفي سنة ٤٦١) .

وقد تسلم ابنه المعتمد مقاليد الحكم بعد ابيه ، قد استدعى اليه ابن عمار (وقربه اشد تقريب حتى كان يشاركه فيما لا يشارك الرجل فيه اخاه ولا اباه)(٣٣) .

فرأى حساد ابن زيدون وخصومه ان الفرصة سانحة وان هوى الامير الجديد انصرف كله الى ابن عمار ولعل ابن عمار لم ينس ان ابن زيدون لم يلح في الشفاعة له عند المعتضد عندما حبسه وهو لهذا لم يدافع عنه لدى الامير الجديد ان لم يحرض عليه . وكان كثير من هؤلاء الخصوم يحملون ابن زيدون نصيبا كبيرا من المسؤولية في فتك المعتضد بوزرائه وأوليائه ورجال بلاطه وادعو ان المعتضد ما كان يقدم على امر الا بعد استشارة مشيره الاكبر ووزيره الاول ابن زيدون(٣٤) .

وقد ايد ابن خاقان ذلك فقال (اظهر صولته ودبر دولته .... واغراه بأعدائه وزين له الايقاع بعماله ووزرائه ، فغدا شجا في صدورهم ونكدا في سرورهم)(٣٥) ولكن الامير كان وفيا لاستاذه وارعى بشاعره فأعرض عن هذه التهمة واظهر وفاء عظيما واريحية مشكورة فأقر ابن زيدون على ما كان عليه في عهد ابيه وزاد في اكرامه(٣٦) .

وفي الحقيقة ان الامير المعتضد كان بحاجة قوية الى ابن زيدون يستفيد من خبرته وحنكته وتجاربه ويتم التدبير الذى بداه لفتح قرطبة لان فتحها كان

---

(٣٣) المعجب ص ١١٧ .
(٣٤) على عبد العظيم ـ ابن زيدون ـ ٢٧٩ ـ ٢٨٠ .
(٣٥) ابن خاقان ـ قلائد العقبان ص ١٤ .
(٣٦) ابن الابار ـ اعتاب الكتاب ص ٩٧ .

من اكبر اماني بني عباد العظام ظلت تراودهم اكثر من ثـلاثين عاما • وما تبنوا دعوة هشـام الا للوصول الى هـذا الهـدف، الكبير • وكانت قرطبـة كنز حاضرة الاندلس ولن تتم السيادة على الاندلس الا لمن ظفر بها واستولى عليها وعلى هـذا فقـد زحف المعتضد لاحتلالها وقـد تم له ما اراد ودانت قرطبة له بفضـل تدبير ابن زيدون وسعة حيلته وانتقل المعتضد وابن زيدون اليهـا وجعلها عاصمة ملكة فوصـل اليها وانس اهلها وبث المعروف فيهـا واحسن السيرة في اهلها فسروا بولايته وولي عليها ابنه الحاجب سراج الدين عباد بن محمد بن عباد فوصلها يوم الثـلاثاء السـادس من شوال سنة ٤٦٢ هـ ودخلها دخولا فخما تضـاعف له سرور ابيه(٣٧) •

وفي يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة ٤٦٢ هـ حدثت فتنة في اشبيلية بين المسلمين واليهود فأرسـل ابنـه سراج الدولة في جيش كثيف من نخبة علمائه ووجوه رجاله فأنتهز خصوم ابن زيدون ابن عمار وابن مرتين (قائد الجيش وانصارهما) هذه الفرصـة لابعاده واقصائه عنهم وعن الخليفة المعتمد حتى يسهل الكيد به وفي مقدمتهم ابن عمار الـذى كان اقرب الناس الى قلب المعتمد وانه بلغ من المنزلة عنده ما لا يبلغـه اخ او صـديق • فشـار ابن عمار على المعتمد ارسال ابن زيدون في معية سراج الدولة لمـا له من خبرة وتجارب وكياسـة ولباقة وحسن تدبير ولمـا له معرفة سابقة بشؤون الذميين وشـدة تعلق اهلها به واستغلال حبهم في ازالة الاضطراب وتهـدئة الخواطر ولكنه حق اريد به باطل فقد ارادوا ابعاده عن الامير •

وهكذا ارسـل المعتمـد ابن زيـدون مع ابنـه على الرغم من مرضـه واعتذاره • وقـد ترك ابن زيدون في قراطبة ابنـه ابا بكر محمد وكان هـذا على جانب كبير من الذكاء والمقـدرة ورث عن ابيه مواهبه السياسية وتدرب

(٣٧) ابن الخطيب ـ اعمـال الاعلام جـ٣ ـ ١٧٥ •

على يده احسن تدريب • وقـد استطاع ابن عمار اقناع المعتمد بأبعاده ايضـا عن قرطبة الى اشبيلية حيث كان ابوه هناك نأنقذه المعتمد خلف ابيـه • وقـد بقى ابن زيدون في اشبيلية الى نهاية عمره فقد جهده المرض والهرم حتى فاضت روحه في مستهل شهر رجب سنة ٤٦٣ هـ(٣٨) •

وبذلك انطوت صفحات من ملاحم الشعر والادب والسياسة بعـد ان ترك بصمات واضحة في تاريخ هـذا القطر العزيز •



(٣٨) ابن بسـام ـ الذخـيرة في محاسن اهـل الجـزيرة ق ١ جا ص ٣٥٥ •

المصـــادر

١ ـ ابن خاقان (٥٣٩ هـ) الفتح

قـلائد العقبـان جـ ١ القـاهرة .

٢ ـ الصـفدى ـ صـلاح الدين

الوافي بالوفيـات .

٣ ـ ابن بناته ـ جمال الدين (٧٦٨ هـ)

سرح العيون شرح رسـالة ابن زيدون .

٤ ـ عبد الواحـد المراكشي

المعجب الاستقامة القـاهرة ١٩٤٩ م .

٥ ـ ابن زيـدون

ديوان ابن زيـدون .

٦ ـ ابن بسـام ٥٤٢ هـ ـ ابي الحسن علي

الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة (القسم الاول) .

٧ ـ ابن الآبار (٦٥٩ هـ) محمد بن ابي بكر القضـاعي

اعتاب الكتـاب ـ مخطوطه ـ رقم ٧٧٨ تاريخ تيمور (دار الكتب المصرية) .

٨ ـ على عبد العظيم

ابن زيدون عصره وحيـاته وادبه ١٩٥٥ .

٩ ـ ابن الخطيب ـ لسـان الدين

اعمـال الاعـلام . الرباط ١٩٤٣ .

١٠ ـ ابن خلكان ت (٦٨١ هـ)

١١ ـ القلقشندى ـ ت (٨٢١ هـ) أبو العباس احمد

وفيـات الاعيـان ـ القـاهرة .

نهاية الارب في معرفة قبائل العرب جـ ١ بغـداد .

١٢ ـ ابن بشكوال ت (٥٧٨ هـ) خلف بن عبد الملك
الصلة جـ ١ مدريد ١٨٨٢ •

١٣ ـ ابن الآبار ـ محمد ابن ابي بكر القضاعي سنة ت (٦٥٩ هـ)
التكملة لكتاب الصلة ، مدريد ١٨٨٧ •

١٤ ـ شوقي ضيف
ابن زيدون (سلسلة نوابغ الفكر العربي)
دار المعارف ١٩٥٣ •

١٥ ـ ابن حزم
البيان المغرب •

١٦ ـ الحميدى ـ ت (٤٨٨ هـ) ، محمد بن فتوح
جذوة المقتبس (مخطوط) مصورة عن اكسفورد رقم
١١٩٧٥ •

١٧ ـ الضبي ـ ت (٥٩٩ هـ) احمد بن يحيى

١٨ ـ احمد ضيف
بغية الملتمس • مدريد ١٨٨٤ •
بلاغة العرب في الاندلس ـ القاهرة ١٩٢٤ •

كتـــاب النبي

صلى الله عليـه وسـلم

الدكتور شاكر محمود عبد المنعم

كلية الاداب قسم التاريخ



كتاب النبي

صلى الله عليه وسلم

الدكتور شاكر محمود عبد المنعم
كلية الاداب ـ قسم التاريخ

لم يهتم المؤرخون في الماضي كثيرا بموضوعات كهذه ، كما اهتموا بغيرها مما يتعلق بالنبي (ص) . فلم يؤلفوا فيها كتبا كثيرة . ولقد أشارت المصادر الى كتابين عن كتاب النبي (ص) الأول : هو « الكتاب » لعمر بن شبة النميري(١) (ت ٢٦٢) والثاني : للقضاعي(٢) ولكنها لم تصل الينا حتى الوقت الحاضر .

وفي الربع الاخير من القرن الثامن الهجري عكف الشيخ الامام أبو عبد الله محمد بن على بن احمد بن حديدة الانصاري(٣) (ت ٧٨٣) على تدوين كتابه الموسوم « المصباح المضيء في كتاب(٤) النبي الامي ورسله الى ملوك الارض من عربي وعجمي » . وجعله على قسمين : الأول في كتابه ، والثاني في رسله ومكاتباته الى الملوك . وقد فرغ من تاليفه في ذي القعدة سنة ٧٧٩ هـ . ويقع في (١٦٠) ورقة ومنه نسخة

---

(١) انظر : الاستيعاب ، ج١ ص٣٠ .

(٢) الاصابة ، ج١ ص٣٣٨ .

(٣) هو جمال الدين عبد الله بن محمد بن على بن حديدة الانصاري . ولد سنة ٧٢١هـ . وعني بالحديث وكتب الاجزاء والطباق وجمع كتابه المذكور الذى سماه ابن حجر « المصباح المضيء في معرفة كتاب النبي » . وكان خازن الكتب بالخانقاه الصلاحية بالقاهرة . انباء الغمر ، ج١ ص ٢٤٦ .

(٤) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ، مجلد ٢ ص ١٧١٠ . وبروكلمان (٧٢/٢) واورد له الدكتور لطفي عبد البديع وصفاً في : فهرس المخطوطات المصورة /ج٢ ص ٢٥٠ .

خطيـة بالمكتبـة الاحمدية بحلب تحمل رقم (٢٨٠) وعنها نسخة مصـورة في معهد المخطوطات العربية بجامعه الدول العربيه تحت رقم (ف ٥٩ ، ٦٠) وآشـار الكتاني الى كتاب في الكتاب انفه بن ابي الجعد(٥) ٠

امـا كتب السـير والكتب التاريخيـه العـامة ، فهي ان تعرضت الى الكتـابة أو الكتـاب فهي تذكر دلك بصورة عرضية وباقتضـاب ٠ وقـد جمع الغساني(٦) كتـاب النبي (ص) في فصـل من كتابه الضخم ، الا أنه لم يستوف قائمة عـددا ولم يوسـع المذكورين فيها ترجمـة أو تفصيلا ٠ وهكذا قل عن القائمة التي أوردها الشيخ حسين الديار بكري (ت ٩٨٢ هـ) وغيره من المتأخرين ٠

لذلك ينبغي للباحث في موضوع كهـذا أن يقرأ المزيد ويجمـع تتف الاخبـار من بين ملايين السطور ٠

لقـد اختلف المؤرخـون في عـدد كتـاب النبي (ص) ، وفي نوع المهمات الكتابيـة التي القيت على كل منهم ٠ ولم يوضحوا ما اذا كـانت الكتـابة على مستويات معينـة أم لا ؟

فـذكر البعض منهم عـددا محـدودا جـدا لا يكـاد يعقل ٠ وذكر البعض الآخر عـددا معقولا ولكنه لم يسـم لنا هؤلاء الكتـاب ، فأوقعنا في حيرة وتسـاؤل ٠

والسؤال الذي يطرأ على البال في هـذا المجـال هو : هـل أن جميع

---

(٥) التراتيب الادارية/ ج١ ص ١٢٤ ـ ١٢٥ ٠

(٦) هو ابو العباس اسماعيل بن العباس الغساني الرسولي (ت ٨٠٣) وكتابه العسجد المسبوك في طبقات الخلفاء والملوك ، نسخة دار الكتب المصرية ذات الرقم ٢١٨٩ تاريخ ميكروفيلم : الورقة : ٣٣ ب فما بعد ٠
وجدير بالذكر اننا حققنا منه قبل سبع سنوات حوادث وتراجم من سنة ٥٧٥هـ ـ ٦٥٦ هـ ٠ اما القسم الاول من ١ ـ ٥٧٥هـ فهو قيد التحقيق ٠

الكتـاب كانوا يكتبون باستمرار أم انهم كانوا يتنـاوبون فيمـا بينهم ؟ وهل استبدل بعضهم وحل محلـه البعض الآخر • !

ذكر البـلاذري(٧) أسـماء أحـد عشر كاتبـا هـم : أبي بن كعب ، وزيد بن ثابت وعبد الله بن سعيد بن أبي‌سرح ، وعثمان بن عفان ، وشر حبيل ابن حسنه ، وجهيم بن الصلت ، وخـالد بن سـعيد ، و أبان بن سـعيد ، والعـلاء بن الحضرمي ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وحنظلة بن الربيع •

أما الطبري(٨) فلقد ذكر أسماء عشرة من كتـابه (ص) • مضيفا : علي ابن أبي طالب ومختزلا شر حبيل بن حسنه وجهيم بن الصلت •

وذكر المسعودي(٩) أسماء ستة عشرة كتابا مضيفا الى قائمة البلاذري والطبري الاسماء التاليـة : المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير وعبد الله بن الارقم والعلاء بن عقبة والزبير بن العوام وحذيفة بن اليمان ومعيقيب الدوسي• وقال المسعودي مبينا وجهة نظره في عـدد الكتـاب الذين ذكرهم : « وانما ذكرنا من أسماء كتـابه (ص) من ثبت على كتابتـه ، واتصلت أيامه فيها ، وطالت مدتـه ، وصحت الرواية على ذلك من أمره ، دون من كتب الكتـاب أو الكتابين والثلاثة ، اذ كان لا يستحق بذلك أن يسمى كاتبا ويضـاف الى جملة كتـابه »(١٠) •

ولعلك تلاحظ معي بأن ذهن المسعودي انصـرف ــ وهو يدون هـذه العبارة ــ الى ناحيـة واحـدة من الكتابة أو قل نوعا واحدا منها ان شئت الا وهو كتـابة الرسـائل • غير أنه كان للنبي (ص) كتـابا ليس للرسائل فقط بل هناك من كتب الوحي أو الرسـائل أو الصـدقات او المعـاملات

---

(٧) فتـوح البـلدان ، ص ٦٦٤ •

(٨) تاريخ الامم والملوك ، ج٢ ص٤٢١ •

(٩) التنبيـه والاشـراف ، ص ٢٤٥ •

(١٠) ن • م السـابق ص ٢٤٦ •

أو المداينات أو الخرص أو المغانم او لاغراض احصائية وما الى ذلك مما سنذكره في أدناه .

وفي السيرة الحلبية وردتنا أسماء ثمانية عشر كاتبا . أما ابن عبد البر(١١) القرطبي ، فقد سمى لنا ثلاثة وعشرين كاتبا(١٢) . واذا استبعدنا من قائمته الذين ذكرهم البلاذري والطبري والمسعودي ، نجد أن قائمته تزيد على قائمتي الطبري والمسعودي بالاسماء التالية : أبو بكر الصديق (رضى) وعمر بن الخطاب (رضى) ، وخالد بن الوليد ، وعبد الله بن رواحه ، ومحمد بن مسلمه ، وعبد الله بن عبد الله بن أبي سلول ، وعمرو بن العاص .

وذكر الديار بكري أسماء أربعة وثلاثين كاتبا استوعبت القوائم المشار اليها مع زيادة متمثلة في : طلحة بن عبيد الله وسعد بن ابي وقاص والأرقم بن ابي الارقم وعبد الله بن زيد بن عبد ربه وسعيد بن العاص وحويطب ابن عبد العزى العامري وأبي سلمة بن عبد الأسد وحاطب بن عمرو بن حنظلة وقال : « وقيل أن كتابه نيفا وأربعين واكثرهم ملازمة له زيد بن ثابت ومعاوية بن أبي سفيان بعد الفتح »(١٣) . وأشار الديار بكري الى ان مصدره في ذلك مزيل الخطأ .

وقلد صاحب بهجة المحافل ابن عبد البر في عدد الكتاب فأوصلهم الى العدد المذكور في ترجمة زيد من الاستيعاب وأوصلهم القرطبي في تفسيره الى (٢٦) وأوصلهم الشبراملسي في كتاب القضاء من حاشية على المنهج في فقه الشافعية الى أربعين وأوصلهم العراقي الى اثنين

---

(١١) الاستيعاب ، ج ١ ص ٢٩ ــ ٣٠ .

(١٢) وكذلك ابن عساكر في تاريخ دمشق .

(١٣) تاريخ الخميس ، ج ٢ ص ١٨١ ــ ١٨٢ .

وأربعين(١٤) • وقد نظم زين الدين عبد الرحيم(١٥) العراقي (ت ٨٠٥ هـ) فيهم قصيدة ذكر أسماءهم في تسعة عشر بيتا من نظمه(١٦) •

واياً كان الامر ، فان المصادر تشير بان عدد الكتاب تراوح بين ستة وعشرين وثلاثة وأربعين كاتبا • وكانت كتابة جلهم بالمناوبة وكان اكثرهم مداومة على كتابة الوحي زيد بن ثابت بعد الهجرة ومعاوية ابن ابي سفيان بعد الفتح •

ولم يكن جميع الكتاب يكتبون الوحي ، والواقع أن هذه مسألة مهمة جدا في معرفتها • غير ان المصادر لا تسعفنا بهذا السبيل • فلقد ذكر الشبلنجي(١٧) المدعو بمؤمن عشرة من كتاب الوحي هم : عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ومعاوية بن ابى سفيان وخالد بن سعيد بن العاص وابان بن سعيد والعلاء بن الحضرمي وحنظلة بن الربيع وعبد الله بن سعد بن أبي سرح • وقال الشبلنجي : « وفي حياة الحيوان : وكان المداوم على الكتابة زيد أو معاوية »(١٨) •

ويفهم من النص الذي أورده الغساني(١٩) أن كتاب الوحي المعتمدين هم علي بن ابي طالب وعثمان بن عفان وابي بن كعب وزيد بن ثابت ، فان غاب هؤلاء كتب له من حضر من الكتاب وهم • معاوية بن ابي سفيان وخالد بن سعيد وابان بن سعيد والعلاء بن الحضرمي وحنظلة بن الربيع

---

(١٤) انظر التراتيب الادارية ، ج١ ص ١١٥ ـ ١١٦ •

(١٥) الامام الاوحد العلامة الحجة الحبر الناقد حافظ الاسلام عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن العراقي الكردي الرازياني ثم المصري الشافعي ... له المؤلفات المفيدة المشهورة في علم الحديث والتخاريج الحسنة .

(١٦) انظرها ان شئت في التراتيب الادارية ، ج ١ ص ١١٦ ـ ١١٧ •

(١٧) نور الابصار ، ص ٤٨ •

(١٨) ن • م السابق ، ص ٤٨ •

(١٩) العسجد المسبوك ، الورقة : ٣٣ ب •

وكتب له عبد الله بن سعد بن ابي سرح ثم ارتد عن الاسلام ثم راجع الاسلام يوم فتح مكة وحسن اسلامه ..... هؤلاء هم الذين اشارت المصادر الى أنهم كتبوا الوحي . وكان أكثرهم كتابة ومداومة زيد بن ثابت ومعاوية بن ابي سفيان ، كما مر . وكان حنظلة بن الربيع خليفة كل كاتب من كتابه (ص) اذا غاب عن عمله(٢٠) .

ويأتي في مقدمة الكتاب الخلفاء الراشدون المهديون أبو بكر الصديق وعمر الفاروق وعثمان وعلي رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم . وسوف لن اتحدث عنهم بمثل هذه الدراسة الموجزة ، لان ما سأذكره عنهم لن يكون الا معروفا . وسيرتهم فيما أخمن يعرفها الحاضر والباد ، فهم أئمة الحق والهدى . ولكنني أود ان اشير هنا الى انهم رضي الله تعالى عنهم ثبتت كتابتهم بين يدى النبي (ص) بتأكيد المصادر(٢١) .

ويظهر من خلال البحث أن أول من كتب للنبي (ص) أبي بن كعب ، وكان اذا غاب كتب له زيد بن ثابت(٢٢) . وذكر محمد بن سعد ان أول

---

(٢٠) انظر التراتيب الادارية ، ج١ ص ١١٨ نقلا عن العقد الفريد ج٢ ص١٤٤ .

(٢١) انظر على سبيل المثال وليس الحصر :

تاريخ الامم والملوك ، ج٢ ص ٤٢١ .

التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٥ ــ ٢٤٦ .

الاستيعاب ، ج١ ص ٢٨ ــ ٣٠ .

الاصابة ، ج٢ ص ٢٦٥ .

تاريخ الخميس ، ج٢ ص ١٨١ .

التراتيب الادارية ، ج١ ص ١١٤ ــ ١١٥ .

مجموعة الوثائق الاسلامية ، ص ٥٥ ، ص٦٠ ــ ٦١ ، ص ٦٧ ص ٦٩ ص٨٥ ص ١٢٧ ص ١٧٨ ص٢١٣ ، ص ١٩٣ ، ص ٢٥٢ .

(٢٢) تاريخ الامم والملوك ، ج٢ ص ٤٢١ .

من كتب للنبي (ص) عند مقدمه المدينة أبي بن كعب ، وهو أول من كتب في آخر الكتاب « وكتب فلان »(٢٣) • وأول من كتب له في قريش عبد الله بن سعد بن ابي سرح • ثم ارتد ولحق بالمشركين ، ثم رجع الى الاسلام يوم فتح مكة(٢٤) •

وذكر الكتاني في التراتيب الادارية(٢٥) : أنه ورد في كتاب « أنباء الانبياء وتواريخ الخلفاء وولايات الملوك والامراء » أن عثمان بن عفان وعلى كانا يكتبان الوحي • فان غاب أحدهما كتب أبي بن كعب وزيد بن ثابت • وكان آبي أسبق الى الكتابة بين يدي رسول الله (ص) من زيد ، كما انه استمر بالكتابة مع زيد أيضا • على أن زيدا كان ألزم الصحابة لكتابة الوحي(٢٦) • واذا غاب زيد وأبي كتب من كان موجودا من الصحابة الذين سميناهم فيما فات •

ويتضح لدى الاستقراء أن ثمة تخصص كان موجودا في الكتابة والكتاب • وهذا لا يعني ضرورة أن ينفرد كاتب كخالد بن سعيد بن العاص أو حنظلة الأسيدي بالكتابة بين يديه (ص) في سائر ما يعرض من أموره(٢٧) •

على أن أهم أنواع الكتابة وأعظمها شرفا هي كتابة الوحي • التي ألمعت أن زيد بن ثابت الانصاري كان ألزم الصحابة لكتابتها • ويمكن أن نصنف الكتابة في زمن النبي (ص) على الشكل الآتي :

---

(٢٣) الاستيعاب ، ج١ ، ص ٣٠ •

(٢٤) تاريخ الامم والملوك ، ج٢ ص ٤٢١ • التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٦ الاستيعاب ، ج١ ص ٣٠ •

(٢٥) التراتيب الادارية ، ج ١ ص ١١٤ — ١١٥ •

(٢٦) المحبر ، ص ٣٧٧ والاستيعاب ،ج١ ص ٣٠ •

(٢٧) التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٥ • وغيره •

١ ـ كتـابة الوحي ٠
٢ ـ كتابة رسـائله(٢٨) وما يعرض من حوائجه (ص) ٠
٣ ـ كتابة المداينات بين الناس والعقود والمعـاملات ٠
٤ ـ كتـابة أموال الصـدقات ٠
٥ ـ كتـابة الخرص (ص)(٢٩) ٠
٦ ـ كتـابة المغـانم ٠
٧ ـ كتابة العهود والمواثيق والصلح ٠

وفضـلا عن ذلك فقـد وردنا عن حـذيفة (رضى) أنه قال : قـال النبي (ص) « اكتبوا لي من تلفظ بالاسـلام من النـاس فكتبنا له الفـا وخمسمائة رجل فقلنا نخـاف ونحن الف وخمسمائة ! ! فلقـد رأيتنا ابتلينا حتى ان الرجل ليصلى وحـده وهو خـائف ! ! »(٣٠) ٠ يستنتج من ذلك أنهم كتبوا المسلمين لاغراض احصـائية ٠ ولا مشاحة انهم كانوا يحتاجونها في السلم والحرب ٠

ومن نافلة القول التأكيد على أمانة الكتـاب ومـدى الثقة بهم ٠ لأنهم أصحاب رسول الله (ص) ٠ واذا صـح أن وجـد بينهم من لم يكن أمينا فسرعان ما يتضـح أمره ٠ فوردنا عن أنس (رضى) خادم النبي (ص) أنه كان رجل نصرانيا فاسلم وقرأ البقرة وآل عمران فكان يكتب للنبي (ص) ، ثم عاد الى نصرانيته ٠ فكان يقول ما يدري محمد الا ما كتبت له ، فأماته الله فدفنوه فأصبح وقـد لفظته الأرض ، ثم أعمقوا له ثلاث مرات فيصبح وقد لفظته الأرض ، فعلموا أنه ليس من عمل الناس فتركوه(٣١) ٠ وتبدو هـذه الرواية قليلة الاهمية تماما بجـانب قوله تعـالى « لا يأتيه الباطـل من بين

---

(٢٨) وتشمل الرسـائل الى الملوك والرسـائل فيما بينـه وبين العرب ٠
(٢٩) الخـارص : هـو الحـزر والمقـدر للثمر وغيره ٠
(٣٠) راجع صحيح البخـاري ، والتجريد الصريح ، ج٢ ص ٢٦ ٠
(٣١) التجـريد الصريح ، ج٢ ص ٥٤ ٠

يـديه ولا من خلفـه »(٣٢) وقوله تعـالى « انا نحن نزلنـا الذكر وانا له لحافظون »(٣٣) ٠

ويروق لي وانا أتحـدث عن التخصص في الكتـابه ـ وقـد لا اكون موفقا كل التوفيق ـ أن أقول ، آن من الكتـاب من القيت عليه مهمة تعليم القراءة والكتابة التي صورت لنا المصـادر ، أن الأسـلام كان حفيـا بهـا في بواكير محنته مع الشرك والضلال ٠ وكيف آن النبي (ص) قبل من اسرى بدر تعليم أبناء المسلمين القراءة والكتـابة(٣٤) ٠ كفداء لأسرهم ان هـذا يعكس دون أدنى ريب الوجـه الثقافي والحضـارى الصـاعد في شريعـة الاسـلام الخـالدة ٠

فكان مصعب بن عمير قـد نزل ـ عند مقدمه الى المدينة ـ على اسعد بن زرارة فكـان يطوف به عـلى دور الانصـار يقرئهم القـرآن ويدعوهم الى الله عز وجل(٣٥) ٠ واستعمل النبي (ص) عمرو بن حزم بن زيد على نجران وهو ابن سبع عشرة سـنة ليفقههم في الدين ويعلمهم القرآن ويأخـذ صدقاتهم وكتب له كتابا فيه الفرائض والصـدقات والديات ٠٠٠ وكتـاب عمرو بن حزم مشهور يحتج به العلماء(٣٦) ٠

---

(٣٢) سـورة فصلت / الايـة (٤٢) ٠
(٣٣) سـورة الحجر / الاية (٩) ٠
(٣٤) الطبقـات ، ج٢ ق١ ص ١٤ (طبعـــة ليـدن / ١٣٢٥ هـ) الـروض الانف ، ج٢ ص ٩٢ ٠ التراتيب الادارية ، ج١ ص ٤٨ ٠
(٣٥) الاسـتبصار ، ص ٥٧ ٠
وكان مع مصعب بن عمـير عبد الله بن ام مكتـوم ٠ ونزل في رواية بـدار القـراء وهي دار مخـرمة بن نوفـل ٠ انظـر ٠ الطبقـات الكبرى ، ج٤ ص ١٥٠ وفي سنن ابي داود عن عبادة بن الصامت قال : علمت ناساً من اهل الصفة والكتـابة والقـرآن ٠
(٣٦) ن ٠ م السـابق ، ص ٧٤ ٠

وتجدر الاشارة هنا الى اولئك الذين كانوا يدونون احاديث النبي (ص) أو خطبه • وفي حديث مسند الى ابي هريرة انه لما خطب النبي (ص) في فتح مكة ، قام اليه رجل من اليمن يقال له أبو شاة وطلب ان يكتبوا له الخطبة فقال (ص) « اكتبوا لابي شاة »(٣٧) • وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يكتب الاحاديث • وكان لعلي (رض) صحيفة فيها العقل وفكاك الأسير والا يقتل مسلم بكافر • وتسمى الصادقة • كما ورد عنه (ص) انه قال « قيدوا العلم بالكتاب »(٣٨) ومع ذلك ، فهذا ما يمكن ان نسميه اهتماماً عاماً بالكتابة • لكنه يقع في اطار ما نسميه التخصص وقد يعتبر نوعاً من الانواع السبعة التي ثبتناها فيما فات •

ولكي تتضح تلك الانواع المتخصصة بالكتابة أرى من الضروري ايراد استعراض سريع للكتاب *

ابان بن سعيد الاموي(٣٩)

ابو الوليد ابان بن سعيد بن أصيحة بن العاص الاموي • أسلم بين الحديبية وخيبر وحسن اسلامه • واستعمله النبي (ص) على بعض سراياه ، منها سرية الى نجد ، ثم ولاه البحرين برها وبحرها • بعد أن عزل عنها العلاء بن الحضرمي سنة تسع للهجرة • فكان يأخذ منها ـ البحرين ـ الصدقات ، والجزية على من لم يسلموا ولم يزل عليها حتى توفي النبي (ص)•

---

(٣٧) جامع بيان العلم وفضله ، ج١ ص ٨٤ •

(٣٨) ن • م ص ٨٥ وما بعدها •

* في الواقع ان هذا البحث اولي تجمعت له مادة مهمة ارجو منه تعالى ان تتاح لي الفرصة لنشره مع تحليل جديد ودقيق •

(٣٩) انظر ترجمته في : الاستيعاب ، ج١ ص ٤٦ • معجم بني امية ، ص ٣ •

اعتبره البلاذري(٤٠) والطبري(٤١) من كتاب النبي ، غير أنهما لم يبينا لنا نوع الكتابة التي تولاها . وقال المسعودي(٤٢) : « وربما كتب بين يديه(ص)» استشهد في يوم أجنادين بأرض الشام في خلافة الصديق (رض) أو في اليرموك والاول هو الراجح على ما يبدو .

الارقم بن ابي الارقم

ابو عبد الله الارقم بن أبي الارقم(٤٣) بن أسد بن عمرو بن مخزوم القرشي المخزومي ، من المهاجرين الأولين ، قديم الاسلام ، قيل انه سابع سبعة وقيل بل اسلم بعد عشرة أنفس . وفي داره كان النبي (ص) مستخفياً من قريش بمكة يدعو الناس الى كلمة الله ، طيلة المدة التي كانت الدعوة فيها سرية .

وكان ممن كتب للنبي (ص) . كما وصلت الينا نصوص مكاتيب كتبها بين يديه(٤٤) (ص) . ويتوهم البعض ، فيحسبه والد عبد الله بن الارقم الزهري . والارقم والد عبد الله بن الارقم هو : الارقم بن يغوث الزهري . أما صاحبنا فهو مخزومي . أسلم في داره كبار الصحابة في ابتداء الاسلام . واختلف في تاريخ وفاته ، فقيل انه توفي يوم وفاة الصديق ابي بكر (رض). وقيل بل كانت وفاته بالمدينة سنة ٥٥ هـ وهو ابن بضع وثمانين سنة(٤٥) .

---

(٤٠) فتوح البلدان ، ص ٦٦٣ .

(٤١) تاريخ الامم والملوك ، ج٢ ص ٤٢١ . وانظر ان شئت تاريخ الخميس ج٢ ص ١٨١ . والتراتيب الادارية ، ج١ ص ١١٥ .

(٤٢) التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٦ .

(٤٣) اسم ابي الارقم هو عبد مناف .

(٤٤) انظر : تاريخ الخميس ، ج٢ ص ١٨١ . ومجموعة الوثائق الاسلامية ، ص ١٠٤ ، ص ١٠٦ ، ص ٢٠٣ ، ص ٢٣٢ .

(٤٥) الاستيعاب ، ج١ ص ٩٧ فما بعدها .

أبي بن كعب الانصاري(٤٦)

ابو المنذر أبي بن كعب بن قيس بن عبيد زيد بن معاوية الانصاري الخزرجي . حدث عنه الكثيرون .

ومر بنا قبلا ، أنه أول من كتب للنبي (ص) ، وكان اذا غاب أبي لأمر ما كتب له زيد بن ثابت(٤٧) . فكان مؤتمناً على الوحي ، وسيد القراء ، وأول من كتب له من الانصار . والى جانب كتابة الوحي فانه كتب الرسائل(٤٨).

وهو من الذين جمعوا القرآن الكريم على عهد النبي (ص) وكلهم من الانصار : معاذ بن جبل وأبي كعب وزيد بن ثابت وأبو زيد وأبو الدرداء وأبو الدرداء وسعد بن عبيد(٤٩) .

وقال (ص) : « اقرأكم أبي » . وقال له مرة : ان الله أمرني ان اقرأ عليك « لم يكن الذين كفروا »(٥٠) قال : وسماني ؟! قال نعم . فبكى أبي سروراً

---

(٤٦) انظر ترجمته في : المعارف ، ص ٢٦١ ، الاستيعاب ، ج١ ص ٢٨ . مرآة الجنان ، ج١ ص ٧٥ ، ص ٧٧ - ٧٨ . تذكرة الحفاظ ، ج١ ص١٦ . سير اعلام النبلاء ، ج ١ ص ٢٨٠ .

(٤٧) فتوح البلدان ، ص ٦٦٢ . تاريخ الامم والملوك ، ج٢ ص ٤٢١ الاستيعاب ، ج١ ص ٢٩ تاريخ الخميس ، ج٢ ص ١٨١ . وقيل ان شرحبيل بن حسنه كان اول كاتب . وقيل بل ابي بالمدينة وعبد الله ابن سعد بمكة . التراتيب الادارية ، ج١ ص١٢٨ .

(٤٨) مجموعة الوثائق الاسلامية ، الصفحات ، ٢٣ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٢٢٨ ، ٢٥٣ ، ٩٧ ، ١٩٠ ، ٢٠١ .

(٤٩) انظر : المحبر ، ص ٢٨٦ . وقد جعلهم بعض المؤرخين اربعة فقط كما فعل اليافعي فاستثنى منهم ابا الدرداء وسعد بن عبيد . انظر : مرآة الجنان ، ج١ ص ٧٥ .

(٥٠) وفي الاستبصار انه (ص) قرا عليه : « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما تجمعون » بالتاء . يونس/٥٨ .

واستصغاراً لنفسه عن تأهله لهذه النعمة العظيمة والمنزلة الكريمة . وقال له (ص) : « ليهنك العلم أبا المنذر » . (٥١)

هناك اختلاف في سنة وفاته فذكر سنة ١٩ هـ كما ذكر سنة ٢٢ هـ وقيل في خلافة عثمان (رض) . وقد كلفه مع اثني عشر رجلا من المهاجرين والانصار لجمع القرآن . غير أن الذهبي ناقش هذه الرواية ، ورجح ان وفاته كانت سنة ٢٢ هـ (٥٢) .

ثابت بن قيس الخزرجي(٥٣)

أبو محمد وقيل أبو عبد الرحمن ثابت بن قيس بن شماس بن زهير ابن مالك الخزرجي . كان خطيب الانصار ويقال له خطيب(٥٤) رسول الله (ص) . وكان من نجباء الصحابة . شهد احد وبيعة الرضوان وما تلاها من المشاهد . واخوته لامه عبد الله بن رواحة وعمرة بنت رواحة وهو زوج جميلة بنت عبد الله بن أبي سلول .

آخى النبي (ص) بينه وبين عمار بن ياسر ، وقيل بل المؤاخاة بين عمار وحذيفة . وكان جهير الصوت خطيباً بليغاً . قال عند مقدم النبي(ص) الى المدينة « « نمنعك ما نمنع به أنفسنا وأولادنا »(٥٥) وقال عنه (ص) :

---

(٥١) الاستيعاب ، ج١ ص ٢٨ .

(٥٢) سير اعلام النبلاء ، ج١ ص ٢٨٧ .

(٥٣) ترجمته في : الاستيعاب ، ج١ ص ١٩٣ . الاستبصار ، ص ١١٧-١١٨ سير اعلام النبلاء ، ج١ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ الاصابة ، ج١ ص ١٩٧ .

(٥٤) الاستيعاب ، ج١ ص ١٩٣ .

(٥٥) سير اعلام النبلاء ، ج١ ص ٢٢٤ .

« نعم الرجل ثابت بن قيس بن شماس » . وعندما نزلت الآية الكريمة : « لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي(٥٦) » جعل يبكي . فطمأنه (ص) . وكان ممن كتب(٥٧) للنبي (ص) . ووردت بعض نصوص المكاتيب (الرسائل) التي كتبها بين يديه (ص) .

جهيم بن الصلت(٥٨)

هو جهيم بن الصلت بن المطلب (ويقال مخرمة) بن عبد مناف المطلبي . أسلم بعد الفتح . قال البلاذري : كان يعلم الخط في الجاهلية ، فجاء الاسلام وهو يكتب . فكتب للنبي(ص)(٥٩) . وعندما انتهى النبي(ص الى تبوك أتاه يحنه بن رؤبة(٦٠) ، فصالحه النبي (ص) وكتب له كتاباً وفي آخره : كتب جهيم بن الصلت(٦١) . وكان جهيم بن الصلت والزبير بن العوام يكتبان أموال الصدقات(٦٢) ، وكيفية تقسيمها على ما جاء في القرآن الكريم .

ابو عبد الله حذيفة بن حسيل أو حسيل (واليمان لقب له) بن جابر

(٥٦) سورة الحجرات ، الاية (٢) .
(٥٧) ترجمته في : الاستيعاب ، ج١ ص٣٠ . الاصابة ، ج١ ص ٢٥٧ .
(٥٨) ترجمته في : الاستيعاب ، ج١ ص ٢٥٧ .
الاستبصار ، ص ٢٣٣ .
(٥٩) فتوح البلدان ، ص ٦٦٣ .
(٦٠) سيرة ابن هشام ، ج٤ ص ٩٥٢ .
(٦١) مجموعة الوثائق ، ص٥٥ ، ص٨١ .
(٦٢) التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٥ . نور الابصار ، ص ٤٨ .
.(٦٣) ترجمته في : المعارف ، ص ٢٦٣ . الاستيعاب ج١ ص٢٧٦ . الاصابة ، ج١ ص ٣١٦ . مرآة الجنان ، ج١ ص٧٧ ، ص ١٠٠ .
ص١٠٠ .

ابن عمرو بن ربيعة • أحد الصحابة المشهود لهم • كان يكتب خرص الحجاز(٦٤) • والخارص هو المحزر والمقدر للثمر وغيره • شارك في معارك الاسلام الخالدة • ومنها تحرير العراق في معركة نهاوند سنة ٢١هـ •

استعمله الفاروق (رض) على المدائن • ولم يزل بها حتى مات بعد استشهاد عثمان (رض) وبعد بيعة علي (رض) بأربعين يوماً • وقيل أيضاً ان وفاته كانت سنة ٣٥ هـ • وهو القائل : « لاتقوم الساعة حتى يسود كل قبيلة منافقوها » • وكان أعلم اصحاب رسول الله (ص) بالمنافقين وبأخبار الفتن •

الحصين بن نمير(٦٥)

هناك اشتباه وقع فيه المؤرخون في تحديد من هو هذا الصحابي لتشابه الاسماء • فهناك الحصين بن نسير الانصاري والحصين بن نمير السكوني • وقد ذكر المؤرخون من كتاب النبي (ص) الحصين بن نمير ولم يوضحوا نسبه • قال المسعود كان « الحصين بن نمير والمغيرة بن شعبة يكتبان فيما يعرض حوائجه »(٦٦) • وقال الشيخ الشبلنجي كان « المغيرة بن شعبة والحصين ابن نمير يكتبان المداينات والمعاملات »(٦٧) •

ولقد خلط ابن عساكر بين حصين بن نمير السكوني والحصين بن نمير الانصاري • وكان الاول أميراً ليزيد بن معاوية على قتال أهل مكة وحاصر عبد الله بن الزبير • وكان ابراهيم بن الاشتر قد هاجم هذا الجيش الذي تحت

---

(٦٤) التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٥ • تاريخ الخميس ، ج٢ ص ١٨٢ • نور الابصار ، ص ٤٨ •

(٦٥) انظر : معجم بني امية ، ص ١١٩ • الاصابة ، ج١ ص ٣٣٨ ، مرآة الجنان ، ج١ ص ١٤٢ •

(٦٦) انظر التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٥ • تاريخ الخميس ، ج٢ ص ١٨٢ •

(٦٧) نور الابصار ، ص ٤٨ ، كماذكر ذلك القضاعي في كتاب الانباء وابن حزم في كتاب جوامع السيرة • انظر التراتيب الادارية ، ج١ ص ٢٧٥ •

امرة السكوني سنة (٦٦ - ٦٧هـ) وقتل الأمير وعدد من معاويه وبعث برؤوسهم الى المختار .

وذكر ابن حجر حصين بن نمير الانصاري الذي أغار على تمر الصدقة في غزوة تبوك سنة ٩ هـ . ثم ذكر حصين بن نمير آخر وقال : ما أدري الذي قبله أو غيره ذكره ابن عساكر في تاريخه وقال كان عامل عمر على الاردن .. .. ثم اميرا ليزيد بن معاوية نسبه ابن الكلبي فقال : حصين بن نمير بن فاتك بن لبيد بن جعفر بن الحارث بن سلمة بن سكانه وقال أنه كان شريفاً بحمص وكذا ولده . الى ان يقول : فلا أدري أراد هذا أو أراد الذي قبله . وكأنه أراد الذي قبله(٦٨) .

حنظلة بن الربيع(٦٩)

حنظلة بن الربيع بن صيفي بن رباح بن مخاشن الأسيدي التميمي ابن أخ اكثم بن صيفي الحكيم المشهور . وكان يلقب بحنظلة الكاتب .

كتب بين يدي النبي (ص) في جميع الامور ، اذا غاب واحد من كتابه فهو ينوب عنهم(٧٠) . وهذا يشير على ما يبدو الى امكانيته الفذة من ناحية وانه لم يختص بنوع معين من الكتابة . ومن ناحية اخرى فهو موضع ثقة نظراً لما كان يتولاه من امور الكتابة وبهذا الشكل .

شهد القادسية . وتوفي في خلافة الفاروق (رض) بعد ان فتح الله

---

(٦٨) الاصابة ، ج١ ص ٣٣٨ .

(٦٩) ترجمته في : المعارف ، ص ٢٩٩ - ٣٠٠ . الاستيعاب ، ج١ ص٢٧٨-٧٩ الاصابة ، ج ١ ص ٣٥٩ .

(٧٠) فتوح البلدان ، ص ٦٦٣ . تاريخ الامم والملوك ، ج٢ ص ٤٢١ . التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٦ . الاستيعاب ، ج١ ص ٣٠ . الاصابة ، ج١ ص١١٨ تارنخ الخميس ، ج٢ ص١٨١ .

على المسلمين البلاد . فتفرقوا فيها . فصار حنظلة الكاتب الى الرها(٧١) فمات فيها ورثته امرأة من قومه وقيل زوجته بقصيدة منها البيت الذي نصه :

ان سواد الرأس أودى به　　　حزني على حنظلة الكاتب

وقد وهم الديار بكري فقال استشهد في احد(٧٢) . لان الذي استشهد في أحد انما هو حنظلة بن ابي عامر غسيل الملائكة(٧٣) كما سماه المسلمون آنذ .

خالد بن سعيد بن العاص(٧٥)

أبو سعيد خالد بن سعيد بن العاص بن أمية القرشي الاموي أحد السابقين الأولين .فهو قديم الاسلام . وكان من مهاجرة الحبشة هووأخوه عمرو ، وأقام بالحبشة ، اذ هاجر اليها في الهجرة الثانية وكانت معه امرأته وابناه سعيد وخالد اللذان ولدا بأرض الحبشة .

كان خالد يكتب للنبي (ص) في سائر ما يعرض من اموره هو وحنظلة الكاتب(٧٥) .

---

(٧١) الرها : من مدن الجزيرة بين الموصل والشام ، سميت باسم الذي استحدثها وهو الرها من البلندي بن مالك بن دعر . معجم البلدان ، ج٤ ص٣٤٠ .

(٧٢) تاريخ الخميس ، ج ٢ ص ١٨١ .

(٧٣) انظر : سيرة ابن هشام ، ج٣ ص ٥٩٤ .

(٧٤) انظر ترجمته في : المعارف ، ص ٢٩٦ . الاستيعاب ، ج١ ص ٣٩٨ ــ ٩٩ الاصابة ، ج١ ، ص٤٠٦ . معجم بني امية ، ص ٢٩ ــ ٣٠ . سير اعلام النبلاء ، ج١ ص ١٨٨ .

(٧٥) فتوح البلدان ، ص ٦٦٣ . تاريخ الامم والملوك ، ج٢ ص ٤٢١ . تاريخ الخميس ، ج٢ ص ١٨٢ . التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٥ مجموعة الوثائق ، ص ٤١ ، ص ٤٢ ، ص٢٠٨ ، ص٢٣٢ ، ص٢٣٩ ، ص ٢٤٤ .

قدم على النبي (ص) في يوم خيبر سنة ٧ هـ • وأسهم له النبي (ص) ثم رجع معه الى المدينة وبعثه عاملا على صدقات اليمن • وتوفي النبي(ص) وهو عامله على صنعاء اليمن • وأقره الصديق (رض) أميراً على جيش فتح الشام لتحريرها من الروم • فحاربهم في مرج الصفر(٧٦) فقيل انه قتل به وقيل انه بقي حتى شهد اليرموك •

روي عن أم خالد بنت خالد أنها قالت : « كان أبي خامساً في الاسلام وهاجر الى أرض الحبشة ، واقام بها بضع عشرة سنة وولدت أنا بها وكان ابي أول من كتب بسم الله الرحمن الرحيم » •

وجاء في الاستيعاب أنه استشهد يوم أجنادين اما في الاصابة فقال أنه استشهد في مرج الصفر •

خالد بن الوليد (٧٧)

أبو سليمان خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي المخزومي • أحد أشراف قريش في الجاهلية واليه كانت القبة والأعنه(٧٨) • ذكره ابن عبد البر(٨٩) • مع الذين كتبوا للنبي (ص) •

اختلف في تحديد وقت اسلامه وهجرته ، فقيل هاجر خالد بعد

---

(٧٦) مرج الصفر : مرج قبل دمشق من بلاد الشام بين الكسوة وغباغب • معجم البلدان ، ج ٤ ص ١٠٨ •

(٧٧) ترجمته في : المعارف ، ص ٢٦٧ • الاستيعاب ، ج١ ص ٤٠٥ ــ ٤٠٨ • الاصابة ، ج١ ص ٤١٢ ــ ٤١٤ •

(٧٨) القبة والاعنة : كانوا يضربون قبة في الجاهلية ثم يجمعون اليها ما يجهزون به الجيش • واما الاعنة فهي قيادة الجيش ومن كانت له الاعنة كانت له الرئاسة على فرسان قريش في الحروب •

(٧٩) الاستيعاب ، ج١ ص ٣٠ • تاريخ الخميس ، ج٢ ص١٨٢ • سيرة الرسول للعاملي ، ص ٤١ •

الحديبية ، وقيل بل كان اسلامه بين الحديبية وخيبر . وذهب بعضهم الى القول ان اسلامه كان سنة ثمان للهجرة مع عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة ، ولما رآهم النبي (ص) قال : « رمتكم مكة بأفلاذ كبدها »(٨٠) . حسن اسلامه وولاه (ص) أعنة الخيل وسماه سيفاً من سيوف الله . وشهد فتح مكة مسلماً . وبعثه (ص) الى بيت العزى ـ وكان مما تعظمه قريش وكنانة ومضر بنخلة ـ فهدمها وجعل يقول :

كفرانك اليوم لا سبحانك   اني رأيت الله قد أهانك

وقال بعضهم : لا يصح لخالد مشهد مع الرسول (ص) قبل الفتح .

ومضى أميراً على الجيوش التي ذهبت للقضاء على المرتدين ولما حضرته الوفاة قال : شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في جسدي موضع شبر الا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية ثم ها أنذا أموت كما يموت البعير . فكان (رض) يطمع بالشهادة في سبيل الله . وكانت وفاته بحمص وقيل بل توفي في المدينة سنة ٢١ أو ٢٢ في خلافة عمر الفاروق (رض) .

الزبير بن العوام(٨١)

الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى القرشي الاسدي . حواري(٨٢) رسول الله (ص) وابن عمته صفية . وأول من سل سيفاً في سبيل الله .

كان الزبير بن العوام وجهيم بن الصلت يكتبان للنبي (ص) في أموال

---

(٨٠) ويروى انه قال ذلك (ص) في احدى المعارك مع قريش .

(٨١) ترجمته في : المعارف ، ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ . الاستيعاب ، ج١ ص ٥٦٠ . مرآة الجنان ، ج١ ص ٩٨ . سير اعلام النبلاء ، ج١ ص ٢٧ ـ ٤٥ . الاصابة ، ج١ ص ٥٢٦ ـ ٥٢٨ .

(٨٢) الحواري : ذكر في معانيه كثيراً من الالفاظ : كالناصر والخاصة والمستخلص والخليل . انظر مصادر تخريج ترجمته ، الحاشية (٨١) .

الصدقات(٨٣) . ويقومان بتصنيفها وتوزيعها على ما ورد في الآية الكريمة « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم والغارمين وفي الرقاب وفي سبيل الله وابن السبيل »(٨٤) .

أبلى الزبير بلاء عظيماً في معارك الاسلام الخالدة ، وفي اليرموك على وجه التحديد . وقال عنه النبي (ص) : « لكل نبي حواري وحواريي الزبير » . وهو من العشرة المبشرين بالجنة .

استشهد سنة ٣٦هـ . في وقعة الجمل : قتله ابن جرموز بوادي السباع(٨٥) ، منصرفاً تاركاً للقتال طالبا للنجاة من الفتن . فأخذ ابن جرموز سيفه بعد أن قتله وأخبر علياً (رض) فبشره بالنار . لما ورد عنه (ص) انه قال : « بشر قاتل ابن صفية بالنار » . فقال ابن جرموز متهكماً : يا ويلنا ان قاتلناكم ويا ويلنا ان قاتلنا معكم فنحن في النار(٨٦) .

وكان الامام علي (رض) يقول : « والله اني لأرجو أن اكون انا وطلحة والزبير من أهل هذه الآية : ونزعنا ما في صدورهم من غل اخواناً على سرر متقابلين »(٨٧) .

زيد بن ثابت الانصاري(٨٨)

وهو زيد بن ثابت بن الضحاك الانصاري الخزرجي . كاتب الوحي للنبي

---

(٨٣) انظر : التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٥ . تاريخ الخميس ، ج٢ ص ١٨١ .

(٨٤) سورة التوبة ، الاية (٦٠) .

(٨٥) وادي السباع : على سبعة فراسخ من البصرة او حوالي ٤٢ كم انظر : معجم البلدان .

(٨٦) مرآة الجنان ، ج١ ص ٩٨ .

(٨٧) سورة الحجر ، الاية (٤٧) .

(٨٨) ترجمته في : المحبر ، ص ٣٧٧ ، ص ٢٨٦ . المعارف ، ص ٢٦٠ . الاستيعاب ، ج١ ص ٥٣٢ – ٣٤ . الاستبصار ص ٧١ – ٧٢ . مرآة الجنان ، ج١ ص ١٢١ فما بعدها . تذكرة الحفاظ ، ج١ ص٣٠ . سير اعلام النبلاء ، ج١ ص٣٤٩ . الاصابة ، ج١ ص ٥٤٣ .

(ص) • قتل ابوه في يوم بعاث(٨٩) •

وعندما قدم النبي صلى الله عليه وسلم مهاجراً الى المدينة • كان زيد صبياً ذكيا نجيبا وعمره احدى عشرة سنة ، فأسلم • وأمره (ص) أن يتعلم خط يهود فأجاد الكتابة وحفظ القرآن الكريم وأتقنه • وكان مع أبي يكتبان الى جانب الوحي ، كتب النبي (ص) وما يقطع(٩٠) • كما كتب زيد مغانم(٩١) النبي قبل أن يتولاها معيقيب بن فاطمة الدوسي • ثم كتب الكتب الى الملوك وأجاب عنها بحضرة النبي (ص) وكان يترجم من الفارسية والرومية والقبطية والحبشية • وكان قد تعلمها في المدينة من أهل هذه الألسن • وروي عن النبي (ص) أنه قال : « يا زيد تعلم كتابة يهود فاني ما آمنهم على كتابي »(٩٢) • وكانت ترد للنبي (ص) كتب بالسريانية فأمر زيداً فتعلمها •

روي عنه بسند انه قال : كتب الى جانب النبي (ص) فغشيته السكينة فوقعت فخذه على فخذي فما وجدت شيئاً أثقل منها • ثم سرى عنه فقال لي اكتب : فكتبت في كتف « لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون »(٩٣) فقام عمرو بن ام مكتوم فقال كيف بمن لا يستطيع ، فما انقضى كلامه حتى غشيت رسول لله (ص) السكينة ثم سري عنه فقال اكتب : غير أولى

---

(٨٩) يوم بُعاث : اليوم الذي كانت فيه الحرب بين الاوس والخزرج قبل هجرة النبي (ص) الى المدينة بخمس سنين • وبعاث اسم موضع من نواحي المدينة تابع لبني النظير ، تاريخ الخميس ، ج١ ص ٢٩٧ •

(٩٠) فتوح البلدان ص ٦٦٢ •

(٩١) تاريخ الامم والملوك ، ج٢ ص ٤٢١ والتنبيه والاشراف ، ص ٢٤٦ • ومصادر تخريج ترجمته •

(٩٢) فتوح البلدان ، ص ٦٦٤ : تاريخ الخميس ، ج١ ص ٤٦٤ •

(٩٣) النساء الاية (٩٥) •

الضرر »(٩٤) .

وكان النبي (ص) يخاطب الصحابة قائلا : أفرضكم زيد(٩٥) . وحكى صاحب السيرة الحلبية أن معاوية وزيد بن ثابت كانا ملازمين لكتابة الوحي وغيره لا عمل لهما غير ذلك . وقال ابن حجر في الاصابة ـ نقلا عن المدائني ـ ان زيداً كان يكتب الوحي وكان معاوية يكتب للنبي (ص) فيما بينه وبين العرب . وقد المعت الى شيء من هذا القبيل في صدر هذا المقال .

على ان ابن عبد البر أوضح(٩٦) ان زيداً كان ألزم الصحابة لكتابة الوحي مع أنه كان يكتب كثيراً من الرسائل . وسبقت الاشارة الى ان أبي بن كعب كان أول من كتب للنبي (ص) ، فاذا لم يكن حاضراً دعي زيد بن ثابت . وكانا يتناولان الكتابة في الوحي ، كما كتبا كتبه الى الناس وما يقطع(٩٧) .

وعد ابن حبيب(٩٨) زيد بن ثابت من الذين جمعوا القرآن على عهد النبي (ص) . وناقش ابن عبد البر ذلك مبيناً الطريقة التي جمع فيها زيد القرآن من العسب والرقاع وصدور الرجال . فلو كان قد جمع القرآن على عهد النبي (ص) لأملاه من صدره(٩٩) .

على انه انتدب في زمن الصديق (رض) لجمع القرآن . ثم عينه عثمان (رض) لكتابة المصحف وثوقاً بحفظه ودينه وأمانته وحسن كتابته وكتب بعد النبي (ص) لابي بكر الصديق وعمر الفاروق رضي الله عنهما

---

(٩٤) التجريد الصريح / ج٢ ص ١٧ .

(٩٥) الاستيعاب ، ج١ ص ٢٩ .

(٩٦) الاستيعاب ، ج١ ص ٢٩ ـ ٣٠ .

(٩٧) ن . م السابق ، ج١ ص ٣٠ وتاريخ الامم والملوك ، ج٢ ص ٢٤١ .

(٩٨) المحبر ، ص ٢٨٦ .

(٩٩) الاستيعاب ، ج١ ص ٥٣٣ . وقد كتبت بحثاً عن تاريخ جمع القرآن لا يزال مخطوطاً . ناقشت فيه معظم الروايات . وتثبت منها .

كما كتب لهما معيقيب الدوسي معه(١٠٠) .

وكان زيد عالماً بالفرائض وله القراءة . فقرأ عليه القرآن جماعة منهم ابن عباس وابو عبد الرحمن السلمي ، وحدث عنه ابنه خارجة وأنس بن مالك وابن عمر ومروان وعبيد بن السباق وعطاء بن يسار وغيرهم . وكان ابن عباس يأتي بابه وينتظر خروجه ليسمع منه العلم (١٠١) . فاذا ركب أخذ بركابه فيقول ما هذا يا ابن عباس ؟ ! فيقول هكذا أمرنا ان نفعل بعلمائنا . وكان عمر (رض) ، يستخلفه على المدينة اذا حج ونال شرف العلم والصحبة للنبي (ص) .

وقد اختلف في وفاته فقيل سنة ٤٥ هـ وقيل سنة ٥٤ هـ وقيل سنة ٥٥هـ. كما قيل غير ذلك(١٠٢) .

شر حبيل بن حسنة(١٠٣)

قال القاضي الرامهرمزي : هو شر حبيل بن عبد الله بن المطاع بن عمرو من كنده وامه حسنة مولاة معمر بن حبيب الجمحي . واخبرنا أبو خليفة عن الجهم عن الجمحي قال : هو شر حبيل بن عبد الله بن المطاع وحسنة امه من بطن حمير وكان سفيان بن معمر بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح تزوجها بعد عبد الله بن المطاع وتبنى ابنها في الجاهلية .

وقال ابن هشام هو شر حبيل بن عبد الله أحد بني الغوث بن مر أخي تميم بن مر ، وقال موسى بن عقبة ، عن ابن شهاب هو شرحبيل

---

(١٠٠) الاستيعاب ، ج١ ص ٥٣٣ . الاصابة ، ج١ ص ٥٤٣ .

(١٠١) مرآة الجنان ، ج١ ص ١٢١ ـ ١٢٢ .

(١٠٢) راجع ان شئت مضان ترجمته المذكورة في الحاشية رقم (٨٨) .

(١٠٣) ترجمته في : المعارف ، ص ٣٢٥ . المحدث الفاصل ، ص ٢٦٩ . الاستيعاب ، ج٢ ص ١٣٧ ـ ١٣٨ . مرآة الجنان ، ج١ ص ٧٥ . سير اعلام النبلاء ، ج١ ص ٢٣٨ . الاصابة ، ج٢ ص ١٤١ ـ ١٤٢ .

ابن عبد الله من بني جمح وامه حسنة •

على حين نرى ان ابن اسحق اكد على ان ام شر حبيل وهي حسنة امرأة عدولية كان ولاؤها لمعمر بن حبيب الجمحي ، حالفه وتبناه وزوجه من حسنة وقد كان لها من غيره شرحبيل ، فولدت له جابراً وجنادة ابني سفيان ، فلما قدموا من الحبشة نزلوا على قومهم من بني زريق في ربعهم ونزل شر حبيل مع أخويه لامه ، ثم هلك سفيان وابناه في خلافة عمر بن الخطاب (رض) فتحول شر حبيل بن حسنة الى بني زهرة فحالفهم(١٠٤) •

وكان ممن كتب للنبي (ص) (١٠٥) • وهناك من ذهب الى أنه أول كاتب للنبي (ص) كما في المواهب(١٠٦) • وكان شر حبيل يكتب التوقيعات الى الملوك بأمر النبي(١٠٧) (ص) • ويبدو أنه كان مختصاً بكتابة الرسائل ، فلم تشر المصادر التي وقفت عليها الى مهمة كتابية غيرها • وكان من مهاجرة الحبشة مصدراً في وجوه قريش ، ثم أصبح أميراً مجاهداً في تحرير الشام • كما ولاه الفاروق (رض) ربع أرباع الشام وكانت وفاته شهيداً في طاعون عمواس سنة ١٨هـ وهو ابن سبع وستين سنة(١٠٨) •

---

(١٠٤) انظر المراجع المذكورة اعلاه في الحاشية (١٠٣) •

(١٠٥) انظر : فتوح البلدان ، ص ٦٦٣ • التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٦ • الاستيعاب ، ج١ ص ٣٠ • تاريخ الخميس ، ج٢ ص ١٨٢ • مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٥٥ ص ٦٦ •

(١٠٦) انظر : التراتيب الادارية ، ج١ ص ١٢٨ • وقد مر معنا ان اول كاتب للنبي (ص) ابي بن كعب بالمدينة وعبد الله بن سعد بن ابي سرح بمكة •

(١٠٧) انظر : نور الابصار ، ص ٤٨ •

(١٠٨) تراجع مضان ترجمته المذكورة سلفاً في الحاشية (١٠٣) اعلاه •

عـامر بن فهيرة(١١٠)

هو مولى ابي بكر الصديق (رض) وأحد السابقين . وكان ممن يعذب في الله ... وأوضح ابن اسحاق، أنه كان مولوداً من الأزد للطفيل بن عبد الله ابن سخبره ، فاشتراه الصديق (رض) وأعتقه فأ سلم وحسن اسلامه .

وهو من الذين كتبوا للنبي (ص) قبل الهجرة(١١١) . وكان له دور مهم في هجرة النبي (ص) مع أنه كان راعياً لأغنام – وهذا شأن المجتمع الاسلامي – فكان يريحها ليحتلب منها النبي (ص) والصديق (رض) ما يشاؤون مدة لبثهم في غار ثور ، مختفين عن أعين المشركين ، ثم يسير بغنمه ليعفي على آثار عبد الله بن أبي بكر الذي كان يواصل النبي (ص) باخبار قريش ، وآثار اخته ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر التي كانت تأتي بالطعام للنبي (ص) وصاحبه .

وكانت وفاته سنة ٤هـ عند بئر معونة ، وكان النبي (ص) قد بعث أربعين رجلا في السنة المذكورة الى أهل نجد للدعوة الى الاسلام ، عندما قدم اليه ابو براء عامر بن مالك بن جعفر بن ملاعب الأسنة وهو في المدينة . فعرض عليه الاسلام ، فلم يسلم . وقال للنبي (ص) : أنا جار لهم ... فذهب عدد من خيار المسلمين وأميرهم المنذر بن عمرو ومنهم عامر بن فهيرة ، فساروا حتى نزلوا ببئر معونة وهي أرض بين بني عامر وحرة بني سليم فغدروا بهم(١١٢) رحمهم الله . وكان مما كتبه عامر عهداً من النبي (ص) لمالك

(١١٠) ترجمته في : سيرة ابن هشام ، ج٣ ص ٦٧٨ – ٧٩ . الاستيعاب ، ج٣ ص ٧ . الاصابة ، ج٢ ص ٢٤٧ .
(١١١) انظر : تاريخ الخميس ، ج٢ ص ١٨١ . سيرة الرسول : ص٤١ . مجموعة الوثائق السياسية ، ص ١٢ .
(١١٢) ما اوردته ملخصاً راجعه ان شئت في سيرة ابن هشام ، ج٣ ص٦٧٨ فما بعدها .

ابن سراقة بن جشعم في رقعة من أديم(١١٣) • وفي بعض الروايات ان الذي كتب ذلك العهد هو أبو بكر الصديق(١١٤) •

عبد الله بن الارقم(١١٥)

هو عبد الله بن الأرقم بن عبد يغوث الزهري • أسلم عام الفتح وكتب للنبي (ص) ثم لابي بكر الصديق (رض) واستكتبه عمر الفاروق (رض) • وكان يجيب الملوك عن النبي(١١٦) (ص) • وبلغ من أمانته عنده أن يكتب الى بعض الملوك ، فيكتب ويأمره أن يطينه ويختمه وما يقرأه ثقة به • وقال ابن اسحاق : كان اذا غاب زيد بن ثابت وعبد الله بن الارقم واحتاج النبي (ص) أن يكتب الى بعض أمراء الاجناد أو الملوك او الى انسان بقطيعة أمر من حضر ان يكتب له(١١٧) • على ان المسعودي اشار الى ان عبد الله بن الارقم ••• والعلاء بن عقبة كانا يكتبان بين الناس المداينات وسائر العقود والمعاملات(١١٨)•

ويلوح لي ان عبد الله بن الأرقم كان من المواظبين على كتابة الرسائل فقد « ورد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب ، فقال من يجيب عني ،فقال عبد الله بن الأرقم : أنا ، فأجاب عنه واتى به اليه فأعجبه وأنفذه وكان عمر (رض) حاضراً فأعجبه ذلك من عبد الله بن الأرقم فلم يزل ذلك له في نفسه ، يقول أصاب ما أراده رسول الله صلى الله عليه وسلم »(١١٩)•

---

(١١٣) التجريد الصريح ، ج٢ ص ٦٩ • التراتيب الادارية ، ج١ ص ١٢٣ •

(١١٤) نور الابصار ، ص ٤٨ •

(١١٥) ترجمته في : الاستيعاب ، ج٢ ص ٢٥١ • الاصابة ، ج٢ ص ٢٦٥ تاريخ الخميس ، ج٢ ص ١٨٢ •

(١١٦) الاستيعاب ، ج٢ ص ٢٥١ فما بعد و ج١ ص ٣٠ • سيرة الرسول ، ص٤١

(١١٧) الاستيعاب ، ج٢ ص٢٥٢ • الاصابة ، ص ٢٦٥ •

(١١٨) التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٥ •

(١١٩) الاستيعاب ، ج٢ ص ٢٥٢ •

فلما ولي عمر (رض) استعمله على بيت المال في خلافته . واستمر في خلافة عثمان (رض) سنتين حتى استعفاه من ذلك فأعفاه . وكانت وفاته في خلافة عثمان (رض) .

عبد الله بن رواحة(١٢٠)

أبو عمرو وأبو محمد عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرىء القيس الانصاري الخزرجي البدري . كان نقيباً في بيعة العقبة الثانية . وكان شاعراً ... وهو أخو أبي الدرداء لامه . شهد بدراً والعقبة .

ويعتبر من كتاب الانصار المشهورين كتب للنبي (ص) واستخلفه على المدينة في غزوة بدر الموعد . وبعثه على سرية ، كما بعثه خارصاً على خيبر . وقال ابن سعد كان يكتب للنبي (ص) (١٢١) .

واستشهد في غزوة مؤتة سنة ٨ هـ . بعد صاحبيه زيد بن حارثة وجعفر ابن ابي طالب صاحب الهجرتين وذو الجناحين . وكان ابن رواحة قوي الايمان راسخه ، وهو القائل : (١٢٢)

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الاقدام ان لاقينا
ان العدى قد بغوا علينا اذا أرادوا فتنة أبينا

وكان احد شعراء النبي (ص) الذين كانوا ينافحون عنه وفيه وفي صاحبيه حسان بن ثابت وكعب بن مالك نزلت « الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ،

---

(١٢٠) ترجمته في : سيرة ابن هشام ، ج٣ ص ٣٨٠ فما بعد . الاستبصار ص ١٠٨ مرآة الجنان ، ج١ ص ١٣ ـ ١٥ . سير اعلام النبلاء ج١ ص ١٦٠ فما بعد : الاصابة ، ج٢ ص ٢٩٨ .

(١٢١) انظر : الاصابة ، ج٢ ص ٢٩٨ . تاريخ الخميس ، ج٢ ص ١٨٢ سيرة الرسول ، ص ٤١ .

(١٢٢) مرآة الجنان ، ج١ ص ١٤ .

ذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا »(١٢٣) • ومن شعر عبد الله بن رواحة قوله :

لكني أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذات فرغ(١٢٤)تقذف الزبدا
أو طعنة بيدي حران مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتي يقال اذا مروا على جدثي ... أرشده الله من غاز وقد رشدا(١٢٥)

فتأمل صلابة ورسوخ الايمان في أصحاب النبي الكرام صلى الله عليه وسلم ورضي عن أصحابه نجوماً في سماوات التضحية والاخلاص لله وحده •

عبد الله بن سعد(١٢٦)

عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري من بني عامر بن لؤي بن غالب• أسلم وكتب للنبي (ص) • قال الطبري : هو أول من كتب للنبي (ص) من قريش في مكة • ثم ارتد ولحق بالمشركين • وكان يقول كنت أصرف محمداً حيث أريد • كان يملي عزيز حكيم فأقول أو عليم حكيم فيقول نعم(١٢٧) • ونزل فيه قوله تعالى : «ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي الي ولم يوح اليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل

(١٢٣) الشعراء ، الاية (٢٢٧) •

(١٢٤) ذات فراغ : واسعة •
الزبدا : هنا الدم •

(١٢٥) سيرة ابن هشام ، ج٣ ص ٨٣٠ •

(١٢٦) ترجمته في : المعارف ، ٣٠٠ ــ ٣٠١ • الاستيعاب ، ج٢ ص ٣٨١ • مرآة الجنان ، ج١ ص ١٠٠ • سير اعلام النبلاء ،ج٣ ص ٢٣ • الاصابة ، ج٢ ص ٣٠٩ •

(١٢٧) فتوح البلدان ، ص ٦٦٢ • تاريخ الامم والملوك ، ج٢ ص ٤٢١ • التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٦ • تاريخ الخميس ، ج٢ ص ١٨٢ • سيرة الرسول ، ص ٤١ •

الله »(١٢٨) . أمر النبي (ص) بقتله يوم الفتح ... فاستأمن له عثمان (رض) من النبي (ص) وكان اخوه من الرضاعة .

ثم حسن اسلامه وله رواية وحديث . ولاه الفاروق (رض) الصعيد ، كما ولي مصر لعثمان (رض) وقيل شهد صفين . والذي يبدو أنه اعتزل الفتنة ، وانزوى الى الرملة ، لم يبايع علياً ولا معاوية وهو الذي فتح افريقيا وقتل جر جير صاحبها . وغزا ذات الصواري ثم قاد غزوة الأساود . وكانت وفاته سنة ٥٩ هـ . والارجح في خلافة علي (رض) .

عبد الله بن سعد الاموي(١٢٩)

هو عبد الله بن سعيد بن أحيحة بن العاص بن امية الاموي . له صحبة . وكان اسمه الحكم فسماه النبي (ص) عبد الله واستعمله على سوق المدينة .

ولما اسلم أمره النبي (ص) ان يعلم الكتابة بالمدينة(١٣٠) ، وكان كاتباً قبل اسلامه . روى عنه ابن أخيه سعيد بن عمرو بن سعيد . وذكر ابن سعد أنه استشهد في غزوة مؤته سنة ثمان للهجرة . وذكر أبو مخنف أنه خرج مع اخوته خالد وعمرو وابان الى الشام مجاهداً . وقال غيره انه استشهد في بدر وقيل انه استشهد في اليمامة . غير انه نسب اليه أنه قال يوم مرج الصفر(١٣١) :

من فارس كره الكماة يعيرني رمحاً اذا نزلوا بمرج الصفر

فان صح هذا فيكون قد استشهد في مؤتة بأرض الشام .

---

(١٢٨) سورة الانعام / الاية (٩٣) .

(١٢٩) انظر ترجمته في : معجم بني امية ، ص ٨١ (نقلا عن تاريخ دمشق لابن عساكر . المخطوط : الورقة (١١٩ ا ـ ١٨٠ ب) .

(١٣٠) التراتيب الادارية ، ج١ ص ٤٨ . واحال الى الاصابة والاستيعاب ونسب قريش .

(١٣١) عن مرج الصفر انظر الحاشية (٧٦) اعلاه .

العلاء بن الحضرمي (١٣٢)

العلاء بن عبد الله بن عباد بن اكبر بن ربيعة . كان من حلفاء بني أمية ومن سادة المهاجرين . ولاه النبي (ص) البحرين ثم وليها لابي بكر وعمر (رض). وتروي المصادر أن الفاروق (رض) بعثه اميراً على البصرة فمات قبل ان يصل اليه .

ونقل الذهبي (١٣٣) عن محمد بن سيرين أن العلاء كتب للنبي (ص) وقال المسعودي (١٣٤) « ربما كتب بين يديه » . وعده البلاذري والطبري من كتاب النبي (ص) (١٣٥) .

ومن فضائله ما رواه أبو هريرة قال : رأيت ثلاثة أشياء في العلاء لا أزال أحبه أبداً . قطع البحر على فرسه بوادارين ، وقدم يريد البحرين فدعا الله بالدهناء فنبع لهم ماء فارتووا ، ونسي رجل منهم بعض متاعه فرد فلقيه ولم يجد الماء . ومات ونحن على غير ماء فأبدى الله سحابة فمطرنا فغسلناه وحفرنا له بسيوفنا ودفناه ولم نلحد له . وكانت وفاته سنة ٢١ هـ (١٣٦) .

محمد بن مسلمة (١٣٧)

أبو عبد الرحمن محمد بن مسلمة بن سلمة من بني حارثة بن الحارث ابن الخزرج حليف لبني عبد الأشهل .

---

(١٣٢) ترجمته في : المعارف ، ص ٢٨٣ ــ ٨٤ . مرآة الجنان ، ج١ ص٧٧
(١٣٣) سير اعلام النبلاء ، ج١ ص ١٩٠ . وتاريخ الخميس ، ج٢ ص١٨٢ .
(١٣٤) التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٦ .
(١٣٥) فتوح البلدان ، ص ٦٦٣ . تاريخ الامم والملوك ، ج٢ ص٤٢١ . وتاريخ الخميس : ج٢ ص ١٨٢ .
(١٣٦) سير اعلام النبلاء ، ج١ ص ١٩٠ .
(١٣٧) ترجمته في : المعارف ، ص ٢٦٩ . الاستيعاب ، ج١ ص ٣٠ . الاستبصار ، ص ٢٤١ ــ ٤٢ . مرآة الجنان ، ج١ ص ١٢٠ .

وكان يقال له فارس رسول الله (ص) • وكان من كتاب النبي ايضاً(١٣٨)• واستخلفه في غزوة (قرقرة الكدر) على المدينة وشهد مع النبي (ص) بدراً والمشاهد كلها • ولم يشهد الجمل ولا صفين • ولا حارب بل اعتزل الفتنة واتخذ سيفاً من خشب وجعله في جفن : وذكر أن النبي (ص) أمره بذلك وأقام بالربذة •

ومن مآثره أنه عندما شبب كعب بن الأشرف اليهودي بنساء المسلمين آذاهم ذلك • فقال النبي (ص) من لي بابن الاشرف قال محمد بن مسلمة : أنا لك به يا رسول الله • أقتله ؟ قال افعل ان قدرت على ذلك • فمكث ثلاثاً لا يأكل ولا يشرب الا ما تعلق به نفسه ، الى أن استدعاه النبي (ص) وسأله فقال له : لا أدري أفي لك يا رسول الله أم لا !! فقال له انما عليك الجهد(١٣٩) • فتأمل وفاء واخلاص أصحاب رسول الله (ص) • وكانت وفاته في سنة ٤٣ أو ٤٦هـ في المدينة •

معاوية بن ابي سفيان(١٤٠)

معاوية بن أبي سفيان ابن صخر بن حرب بن امية الخليفة الاموي أسلم قبل ابيه في عمرة القضاء • ولم يظهر اسلامه الا يوم الفتح سنة ٨ هـ وهو أخو ام حبيبة (رض) وابن عم النبي (ص) •

روى عن النبي (ص) وعن ابي بكر وعمر وام حبيبة رضي الله تعالى عنهم ، وروى الحديث عن غيرهم • كما روى عنه خلق من الصحابة والتابعين

---

(١٣٨) الاستيعاب ، ج١ ص ٣٠ ؛ تاريخ الخميس ، ج٢ ص ١٨١ • سيرة الرسول ، ص١ ٤ •

(١٣٩) الاستبصار ، ص ٢٤٢ •

(١٤٠) ترجمته في : الاستيعاب ، ج٣ ص ٣٧٥ — ٧٨ • مرآة الجنان ، ج١ ص ١٣٠ • سير أعلام النبلاء ، ج٣ ص ٧٩ فما بعد • الاصابة ، ج٤ ص ٩٢ • مهجم بني امية ، ص ١٦٧ — ٦٩ •

منـهم ابن عبـاس وأبو سـعيد الخدري وابو ذر الغفاري وجرير بن عبـد الله البجـلي وغيرهم •

تولى كتابة الرسـائل فيما بـين النبي (ص) وعـرب البـادية • وعن ابن عباس انه كان كاتبـا للوحي(١٤١) • قـال البلاذري : كتب له بعد اسلامه عـام الفتح •وقـال المسـعودي : كتب له معاوية قبل وفـاته بأشـهر(١٤٢) • وقـال أبو نعيم الحافظ : كان معاوية من الكتبـة الحسـبة الفصحة • وقال الخطيب البغدادي : واستكتبه رسول الله (ص) (١٤٣) •

وتجمع الروايـات على ان معاوية كتب الرسـائل والوحي • وكان هو وزيد بن ثابت ملازمين للكتابة بين يدي النبي (ص) في الوحي وغيره • وذهب بعضهم الى القول بانه لم يكن لهما عمل غير ذلك (١٤٤) •

وقد ولاه الفاروق (رض) الشام بعد أخيـه يزيد ، وكان اذا رآه يقـول كسرى العرب • وقال (رض) : تعجبون من دهـاء هرقـل وكسرى وتدعون معاوية !(١٤٥) • غير أنني أتحفظ كثيراً في قبـول رواية كهذه منسـوبة الى الفـاروق • على ان دهـاء معـاوية لا يخفى على متصفح لتاريخه واليـاً وأميراً وخليفة •

---

(١٤١) فتـوح البـلدان ، ص ٦٦٣ • تـاريخ الامم والملوك ، ج٢ ص٤٢١ • الاسـتيعاب ، ج١ ص٣٠ وج٣ ص ٣٧٥ فما بعد • معجم بني اميـة ، ص ١٦٧ ــ ٦٨ ــ سـير اعلام النبلاء ، ج٣ ص ٨١ • مجموعة الوثـائق السـياسية ، ص ١٦٩ ص ١٩١ ، ص ٢٣٣ • سـيرة الرسـول للعاملي ، ص ٤٢ •

(١٤٢) التنبيـه والاشراف ، ص ٢٤٦ •

(١٤٣) تـاريخ الخميس ، ج٢ ص ١٨٢ •

(١٤٤) سـيرة الرسـول ، ص ٤٢ ومجموعة الوثائق ، ص ٨٩ ، ص ١٢٨ • ونـور الابصـار ص ٤٨ •

(١٤٥) معجم بني اميـة ، ص ١٦٨ ــ ٦٩ •

وكانت وفاته بالشام سنة ٦٠ هـ • ودامت خلافته تسع عشرة سنة وأربعة أشهر •

معيقيب بن ابي فاطمة(١٤٦)

هو معيقب بن أبي فاطمة الدوسي بن عدثان بن عبد الله الازدي كان حليفاً لبني أسد • هاجر الى الحبشة وشهد بدراً •

كتب للنبي (ص) ويبدو أنه كان مختصاً بكتابة مغانم النبي (ص) ، وكان عليها قبله زيد بن ثابت(١٤٧) • وهو صاحب خاتم النبي (ص) • كما كتب بعد النبي (ص) للصديق والفاروق رضي الله تعالى عنهما •

وكانت وفاته سنة ٤٠ هـ •

المغيرة بن شعبة الثقفي(١٤٨)

أبو عبد الله المغيرة بن شعبة الثقفي • شهد بيعة الرضوان واليمامة وفتوح الشام واليرموك •

وكان حازماً ذا رأي ودهاء كبير • ذكره المؤرخون كواحد من كتاب النبي (ص)(١٤٩) • فذهب بعضهم الى القول انه كان يكتب مع الحصين بن نمير فيما يعرض من حوائجه (ص) • والذي يظهر انه كان يكتب الرسائل في

---

(١٤٦) ترجمته في : المعارف ، ص ٣١٦ • سيرة ابن هشام ، ج٣ ص٨١٩ الاستيعاب ، ج١ ص ٥٣٣ • مرآة الجنان ، ج١ ص ١٠٧ •

(١٤٧) التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٥ ــ ٤٦ : تاريخ الخميس ، ج٢ ص ١٨٠ الاستيعاب ، ج١ ص ٥٣٣ ، ج١ ، ٣٠ •

(١٤٨) ترجمته في : المعارف ، ص ٢٩٤ ــ ٩٥ • مرآة الجنان ، ج١ ص١٢٤

(١٤٩) التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٥ ، الاستيعاب ، ج١ ص ٣٠ • الاصابة ، ج٢ ص ٢٦٥ • تاريخ الخميس ، ج٢ ص ١٨١ • سيرة الرسول ، ص ٤١ •

الغالب(١٥٠) • وقال الشبلنجي(١٥١) انه مع الحصين كانا يكتبان المداينات والمعاملات •

وكانت وفاته بالكوفة وهو أمير عليها سنة (٥٠هـ) بالطاعون •

يزيد بن ابي سفيان(١٥٢)

يقال له يزيد الخير بن ابي سفيان بن حرب بن امية الاموي • هو أخو معاوية من أبيه وأخو ام المؤمنين ام حبيبة (رض) •

كان من العقلاء الألباء والشجعان المذكورين • اسلم يوم الفتح وحسن اسلامه • وشهد حنيناً وأسهم له النبي (ص) من غنائمها • كتب للنبي (ص) في مراسلاته ، واستعمله على صدقات بني فراس(١٥٣) •

توفي في طاعون عمواس سنة ١٨ هـ • وكان قد استعمل أخاه معاوية • الذي أقره الفاروق (رض) احتراماً ليزيد وتنفيذاً لتوليته ، لمكانته عنده • وقيل ان وفاته كانت سنة ١٩ هـ •

ومن الذين ورد ذكرهم من الكتاب : العلاء بن عقبة ، وكان يكتب في المدانيات بين الناس وسائر العقود والمعاملات(١٥٤) • وعمرو بن العاص(١٥٥)

---

(١٥٠) انظر : مجموعة الوثائق السياسية ، ص ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١١٥ ، ١٢٩ ، ١٨٢ ، ٢٢١ •

(١٥١) نور الابصار ، ص ٤٨ •

(١٥٢) ترجمته في : الاستيعاب ، ج٣ ص ٣٧٩ ، ص ٦١٢ • مرآة الجنان ، ج١ ص٧٤ ، سير اعلام النبلاء ، ج١ ص٢٣٧ — ٣٨ • الاصابة ، ج٣ ص٦١٩ •

(١٥٣) الاستيعاب ، ج٣ ص ٣٧٩ • سيرة الرسول ، ص ٤١ •

(١٥٤) انظر : التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٥ : تاريخ الخميس ، ج٢ ص١٨١ مجموعة الوثائق السياسية ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ ، ٢٣٠ • العقد الفريد ، ج٢ ص ١٤٤ •

(١٥٥) استيعاب ، ج١ ، ص ٣٠ •

وعبد الله بن عبد الله بن أبي سلول(١٥٥) • واضاف الديار بكري اسماء آخرين(١٥٦) هم : طلحة بن عبيد الله وسعد بن ابي وقاص وحويطب ابن عبد اعلزي العامري وأبو سلمة بن عبد الاسد وعبد الله بن زيد بن عبد ربه• وحاطب بن عمرو بن حنظلة • وزيد(١٥٧) بن أرقم •

ولاحظت كتاباً يتضمن معاهدة بين النبي (ص) مع نصارى نجران كتبه عبد الله بن ابي بكر(١٥٨) ، وكتاباً آخر كتبه قيس بن شماس (١٥٩) وربما كان هذا وهماً لان الذي كتب للنبي (ص) هو ثابت بن قيس بن شماس كما مر معنا في هذه الدراسة •

وأخيراً ليعفو القارىء ما قد يعثر عليه من لبس أو غموض ، وأرجو ان أوضح أن هذه الدراسة أولية أسأله تعالى ان يقيض لي التبسط بها مستقبلا • والله من وراء القصد ومنه استمد العون والتوفيق •

د• شاكر محمود عبد المنعم

بغداد ـ العراق



---

(١٥٦) تاريخ الخميس ، ج٢ ص ١٨١ ـ ١٨٢ •

(١٥٧) العقد الفريد ، ج٢ ص ١٤٤ •

(١٥٨) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ١١١ ـ ١١٢ •

(١٥٩) ن • م السابق ، ص ١٨٥ •

مصـــادر البـحث

القـــرآن الكريم :

ابـن حـبيب ، ابو جعفر محمد بن حبيب الهاشمي البغدادي (ت ٢٤٥) ، المحـبر (رواية أبي الحسن السـكري) ، تصحيح الدكتورة ايلزة ليختن شتيتر ، حيـدر آبـاد/ ١٣٦١ .

ابـن حجـر ، شهاب الدين احمد بن على بن محمد العسقلاني (ت ٨٥٢) ، الاصـــابة في تمييز الصحابة ، القـاهرة/ ١٣٥٨/١٩٣٩ .

.. .. .. ، انبـاء الغمر في أنبـاء العمر ، ٣ أجزاء ، تحقيق الدكتـور حسن حبشي ، القاهرة / ١٣٨٩/١٣٦٩ - ١٣٩٢/١٩٧٢ .

ابـن سـعد ، محمد بن سـعد (ت ٢٣٠) ، كتـاب الطبقات الكبرى ، ليـدن / ١٣٢١ .

ابن عبد البر ، ابو عمر يوسف بن عبد الله النمري القرطبي (ت ٤٦٣) ، الاستيعاب في اسماء الاصحاب ، القـاهرة/ ٣٥٨/١٩٣٩

.. .. .. ، جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايتـه ، جزءان ، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان،المدينة المنورة/٣٨٨/١٩٦٨

ابن قتيبـــة ، أبو محمد عبد الله بن مسـلم (ت ٢٧٦) ، المعـارف ، تحقيق ثروت عكاشة ، القاهرة/١٩٦٠ .

ابـن قـدامة ، موفق الدين عبد الله بن قـدامة المقـدسي (ت ٦٢٠) ، الاستبصار في نسب الصحابة من الانصـار ، تحقيق الاسـتاذ علي نويهض ، دار الفكر ، بيروت/١٩٧٢ .

ابن هشـــام ، أبو محمـد عبد المـلك بن هشـام الحميـدي (ت ٢١٨) ، سـيرة النبي (ص) ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القـاهرة/ ١٣٨٣ .

البلاذري ، ابو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩) ،
فتوح البلدان ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس
الطباع ، دار النشر للجامعيين /١٣٧٧/١٩٥٧ ٠

حاجي خليفة ، مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي (ت ١٠٦٧) ،
كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون ، ط ٣ ، طهران
١٣٨٧/١٩٦٧ ٠

الحيدر ابادي ، الدكتور محمد حميد الله ،
مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي ، والخلافة الراشدة ،
القاهرة/١٣٧٦/١٩٥٦ ٠

الديار بكري ، الشيخ حسين محمد بن الحسن (ت ٩٨٢) ،
تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس /القاهرة/١٢٨٣

الذهبي ، شمس الدين ابو عبد الله (ت٧٤٨) ٠
تذكرة الحفاظ ، ط ٧ ؛ حيدر اباد/١٣٧٥/١٩٥٥ ٠

٠٠ ٠٠ ٠٠ ، سير اعلام النبلاء ، ج١ ، تحقيق صلاح الدين المنجد
القاهرة/ ١٩٥٦ ٠ و ج٣ تحقيق محمد اسعد طلس ،
القاهرة/ ١٩٦٢ ٠

الرامهرمزي ، القاضي الحسن بن عبد الرحمن (ت ٣٦٠) ،
المحدث الفاصل بين الراوي والواعي ، تحقيق الدكتور
محمد عجاج نويهض ، دار الفكر /بيروت/١٣٩١/١٩٧١

الزمخشري ، جار الله محمود بن محمد (ت ٣٥٨) ،
كتاب خصائص العشرة الكرام البررة ، تحقيق بهيجة الحسني؛
بغداد/ ١٣٨٨/١٩٦٨ ٠

الشبلنجي ، الشيخ سيد الشبلنجي المدعو بمؤمن ،
نور الابصار في مناقب آل بيت النبي المختار ، القاهرة/
١٣٨٠ - ١٩٦٠ .

الطبري ، محمد بن جرير (ت ٣١٠) ،
تاريخ الامم والملوك ، القاهرة/١٩٣٩ .

العاملي ، محسن الامين ،
سيرة الرسول (عن طبقات بن سعد وسيرة ابن هشام
وسيرة ابن سيد الناس والسيرة الحلبية) ، بيروت / ؟

عبد البديع ، الدكتور لطفي ،
فهرس المخطوطات المصورة ، ج٢ القاهرة/١٩٥٦ .

الغساني ، ابو العباس اسماعيل بن رسول (ت ٨٠٣) .
العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك ،
(مخطوط) نسخة دار الكتب المصرية رقم ٢١٨٩ تاريخ
ميكروفيلم وعنها نسخة مصورة بالفوتوستات في المجمع
العلمي العراقي . ونسخة في مكتبتي .

الكتاني ، محمد بن عبد الحي ،
التراتيب الادارية ، بيروت / ؟

المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٥) ؛
التنبيه والاشراف ، بيروت ، ١٣٨٨/١٩٦٨ .

المنجد ، الدكتور صلاح الدين ،
معجم بني امية (استخرجه من تاريخ دمشق (لابن عساكر)،
دار الكتاب ، لبنان/ ١٩٧٠

اليـــــافعي ، عبد الله بن سعد بن سليمان (ت ٧٦٨) ،
مرآة الجنـان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حـوادث الزمان ، حيدر آبـاد/ ١٣٣٧ .

ياقـــــوت ، ابو عبد الله ياقوت الحموي الرومي (ت ٦٢٦) ،
معجم البـلدان ، تحقيق محمد أمين الخـانجي ، القـاهرة/ ١٩٠٦/١٣٢٣ .



تعقيب على بحث
(الجـــامع عنصر وظيفي)

بســم الله الرحمن الرحــــيم

السيد الاستاذ الدكتور / حسين امين

الامين العــام لاتحــاد المؤرخين العرب

ورئيس تحرير مجلة المؤرخ العربى •

تحيــة طيبــة صــادقة وبعــد :

لقــد ملأت نفسي بهجــة وسعادة تلك المجلة الوليــدة العمــلاقة التى اضافت الى حقل الدراســات التاريخيــة جــديدا ، وانني لعلى ثقة من انها سوف تثري الفكر التاريخى العربى بالمزيد من الافكار والابحاث ومن هنا ، ومن احســاسى بالفخر بهــذه المجلة القيمــة فانني ابعث الى ســيادتكم شخصيا ، والى هيئة تحرير المجلة كل تحية وتقدير ، واسمحوا لنا ان نرســل لسيادتكم بهــذا التعليق البسيط على مقــالة الدكتور : خــالص الاشعب والمنشورة في العــدد الثــانى بعنوان « الجامــع عنصر وظيفى ، عمارى ، ومورفولوجى » يقول الدكتور الاشعب في صفحة ٤٢ : تقــع الابنية الدينية في المدينــة عموما تحت عــدة أنواع منها الجوامــع (لصــلاة الظهيرة في الجمع) ، المســاجد (لاقامة الصلوات الاخرى) ، المــدارس (الدينيــة) المقامات والاضرحة • ثم قام بعــد ذلك بالتفرقــة بين هــذه الانواع بنــاء على التقسيم الادارى لدوائر الاوقاف في بعض البــلاد العربيــة فجعــل الجامــع ينقسم الى ثــلاث درجــات اهمها واكبرها ما يقــام فيــه صــلاة الجمعة ولعله يخــدم المدينــة كلها ولذلك فان عــدد مستخدميه لا يقــل عن خمســة افراد ، وفيــه تقــام صــلاة العيدين ، والعديد من المناسبات

الاخرى حتى يصل الى القول « اما جوامع الدرجة الثالثة (المساجد) فتمثل في الواقع مراكز صغيرة للعبادة او مراكز ذات اهمية دينية خاصة ، وتخدم السكان المجاورين فقط ويستخدم في مثل هذه المساجد عادة الامام فقط » ، ومن هنا فبعد ان فرق الكاتب في بداية المقال بين الجامع والمسجد فقد عاد وادرج المسجد كنوع من انواع الجامع وجعله النوع الاقل اهمية ولعمرى من اين جاءت الافكار التى تعتبر المسجد من اقل الانواع في بيوت العبادة او التى تفرق فتجعل الجامع لاقامة صلاة الجمع والمسجد للصلوات الاخرى .

ان القرآن الكريم لم يستخدم على الاطلاق كلمة جامع كمرادف لكلمة مسجد على الحرمين الشريفين في مكة والقدس حين قال في سورة الاسراء « سبحان الذى اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصا » « ولقد اورد القرآن الكريم اسم المسجد الحرام في سورة البقرة وحدها اكثر من خمس مرات ولم يستخدم مرادفا لها مثلا « الجامع الحرام » واذا قلنا ان للمسجد الحرام صفة خاصة فاننا نجد ان كلمة مسجد قد ترددت في القرآن الكريم في كل من سورة « الانفال » ، « التوبة » ، « الاسراء » ، « الكهف » ، « الحج » ، « الجن » .

ولم يرد في القرآن الكريم مرادف لكلمة مسجد الا كلمة « بيت » والمقصود هنا هو بيت الله حيث قال في سورة آل عمران ٩٦ « ان اول بيت وضع للناس للذى بيكة مباركاً ، وهدى للعلمين » وقال ايضا « فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا ، ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » الآية ٩٧ وقال في سورة الانفال « وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصديقة » الآية ٣٥ وقال جل علاه على

لسان ابراهيم الخليل « ربنا انى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة » هذا بالاضافة الى الآيتين ٢٦ و ٢٩ في سورة الحج و ٣٦ في سورة النور والتى اطلقت كلمة بيت على ما يقصد به المكان الذى يعبد فيه الله « المسجد » •

ولننتقل الان الى العوامل التى جعلت اللغة الحالية في العربية تستخدم كلمة الجامع كمرادف لكلمة مسجد ، لقد وردت كلمة جامع في منجد اللغة معرفا لها بانها كلمة تطلق على معابد المسلمين ولست اتفق ايضا مع هذه التسمية وذلك لان كلمة جامع انما هى صفة للمسجد وليست مرادفا لها فعندما حوت المدينة العربية اكثر من مسجد او قل ضمت عددا كبيرا من المساجد اطلق لقب المسجد الجامع على اكبر هذه المساجد وهو المسجد الذى عادة ما كان يضم بين المصلين الحاكم العام للمدينة وفي هذا المسجد اقيمت معظم الاحتفالات الدينية دون ان يعنى ذلك عدم قيام هذه الاحتفالات في بعض المساجد الاخرى ، حتى صلاة الحاكم أو الخليفة لم يكن من الضرورى قيامها في المسجد الجامع لان التاريخ يحدثنا بان الخليفة عبد الرحمن الناصر حينما ضايقه كلام القاضى سعيد بن المنذر في خطبة الجمعة بمسجد الزهراء تركه وانصرف الى الصلاة بمسجد قرطبة • بعد أن كان قد ترك المسجد الجامع في قرطبة وذهب للصلاة في مسجد الزهراء •

اذن بدأت كلمة الجامع كصفة تطلق على المسجد الكبير ثم نتيجة للاختصار والسهولة في الكلام استخدمت كلمة « جامع » للدلالة على المسجد

بصرف النظر عن قيمته الدينية او عن المساحه المكانيــة التى يشغلها هــذا الجــامع فقيل مثلا الجامع الازهر وهنا اضيفت الى كلمة الجامع صفة اخرى وهى نسبة الجامع الى السيدة فاطمة الزهراء وهنا اصبح من المستحيل او قل من الصعب لغويا القول « بالمسجد الجامع للزهراء » فعرف تاريخيا بالجــامع الازهر واعتقد ان الاختصــار لاسماء المســاجد الجامعة في الكثير من المدن العربيــة هو الــذى اشــاع استخدام كلمــة جــامع نوعا ما فقيل مثــلا « جامع قرطبة » اختصــارا لكلمة « المسجد الجامع لقرطبة » .

ولم اجد ايضــا ما يؤيد القول بان المســاجد هى اماكن صغيرة للعبادة في القرى وليس بها الا مستخدم واحــد فهناك مسجد الحسين رضى الله عنه بالقــاهرة يضم العشرات من العاملين ويقــام به من الاحتفــالات الدينيــة مالا يقــام في الجامع الازهر مثــلا ، والامر كذلك في مسجد السيدة زينب مثــلا : كمــا انه يوجــد الكثير من المســاجد الصغيرة جــدا في الاقاليم والقرى ويطلق عليها لقب جامع .

من هنا اريد ان اوضــح ان التسمية لا تعنى على الاطلاق الاشــارة الى المكانة الدينيــة ، ولا المســاحة ولا نوعيــة البنــاء بل انهما كلمتان يدلان على مكان اقامة الصــلاة يشاركهما في ذلك كلمتا « مصلى » و « زاوية » وان كان لكل منهما نوع من الخصوصية .

في موضــع آخر يقول الدكتور الاشعب « لقــد اكــد القرآن الكريم والحديث الشريف على مركزية الجوامع وذلك، لعدم ورود ما يشجع على بناء الجوامع داخل المقابر والتى غالبا ما تقع عند اطراف المدينة العربية »(*) .

ولقــد حاولت استخراج كل الآيــات التى وردت في القرآن الكريم عن

(*) المقال المذكور ص ٤٤ .

المسجد او المساجد أو بيوت الله فلم اجد فيها ما ينهى المسلمون عن بناء مساجدهم في أى مكان كان ، أو يأمرهم أو يؤكد لهم بناءها في آخر • ولقد جاءت المساجد دائما في مركز المدينة العربية نتيجة لمكانتها الروحية في نفوس المسلمين ومن هنا حرص الحاكم الاسلامى عند قيامه بتأسيس مدينة ما أن يكون أول شيء هو القصر الذى يقيم فيه ، والمسجد الجامع الذى يضم المسلمين حوله ، بل انه من المعروف قديما أنه كان لكل قبيلة مضاربها ، ومسجدها الخاص بها •

ولست أتفق مع الكاتب في تلك التسمية الجديدة التى اطلقها على المساجد • وفي قوله : الا أن تطور وسائل النقل ، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية ــ قد حول هذه الجوامع الى « جوامع متروبوليتانية » حيث قد بدأت تجذب العابدين ليس من المناطق المجاورة فحسب ولكن من المناطق البعيدة(١) •

فلست أعرف استخداما لكلمة « بوليتان » الا للشركة صاحبة امتياز استغلال خطوط قطارات الانفاق في مدينة مدريد والمسماة « متروبوليتان » •

واخيرا فلقد لجأ الكاتب الى استخدام كلمات أوروبية في مقاله مع وجود المقابل السهل في اللغة العربية على سبيل المثال كلمة :

مورفولوجية : وهى تعنى ببساطة التركيب • أو التخطيط بالنسبة للمدن • فلقد كان من السهل عليه قول « لقد تأثر تركيب المدينة العربية » بدلا من قوله « لقد تأثرت مورفولوجية المدينة العربية » •

وفي موضع آخر من الصعب الفهم كيف أن القبلة بانت رمزا للشعور بالوحدة بالمشاعر الروحية والتوجيه الفيزياوى للمدن العربية •

وفي النهاية فانني أمل مراجعة المقالات قبل الطبع حيث ان المقال السابق ملىء بالعشرات من الاخطاء المطبعية ..

وشكرا جزيلا ،،،

محمد عبد الحميد عيسى
الدراسات العليا في التاريخ
جامعة الاوتونوما ـ بمدريد





نشاطات اتحاد المؤرخين العرب

انبثقت الامانة لاتحاد المؤرخين العرب بعد الاجتماع الأول الذي عقده المؤرخون العرب في مايس (مايو) عام ١٩٧٤ وقرروا قيام منظمة اتحاد المؤرخين العرب وأن تكون بغداد المقر الدائم لها وانتخبوا بالاجماع ايضا الدكتور حسين امين امينا عاما لها ، وبدعم من حكومة الثورة في العراق رسخت الاسس الاولى لتكويناته وشق طريقه من اجل تطوير الدراسات التاريخية وتوحيد جهود المؤرخين العرب في المجالين القومي والعلمي وبذل الامين العام جهدا كبيرا وكرس لها من فكره ووقته غير اليسير متابعا احتياجاتها مشجعا المؤرخين والباحثين الذين يقدمون ابسط خدمة لها كما وأنه يواصل قصارى جهده في سبيل تطوير منهاجها الذي يرمي الى رفع المستوى الثقافي لكل العاملين في الحقول التاريخية ، وكان على اتصال مباشر وغير مباشر مع المؤسسات الثقافية ومع بعض الشخصيات العلمية العالمية والعربية المتعاطفة مع قطرنا الناهض والمثمنة لمنجزات حكومتنا الثورية ومع العاملين في حقل الحضارة العربية ومع اولئك الذين كتبوا مواضيع في التراث العربي وقدموا بحوثا قيمة ، ان تلك النشاطات من الاهداف الرئيسة التي وضعها الاتحاد امامه لتكوين صلات ثقافية متينة بين مؤرخي العرب والعالم ولتثبيت المفاهيم والمبادىء الاساسية لكبار علماء العالم وايمانا منه بالحضارة العربية ودورها الكبير في بناء المجتمع الانساني وتطويره وازدهاره في شتى حقول المعرفة والعلم والعمران واعتزازا منه بتراثنا الخالد ومدى اهميته العظيمة في حياة الامة العربية باعتباره ابرز وجه لنشاط وفاعلية الشعب العربي ومساهمته

في تخليد تراث الانسانية . فقد قام الاتحاد بعقد واقتراح ندوات ومؤتمرات عالمية وعربية شارك في قسم منها الامين العـام للاتحاد الدكتور حسين امين مشـاركة فعلية وفي قسمها الآخر ارسل وفودا لتمثيل الاتحـاد هناك لغرض بحث ومناقشـة ما يدور على ألسنة الباحثين الحـاضرين في تلك الندوات ، كما قام الاتحاد بنشاطات اخرى وفيما يلي اهم النشاطات والندوات والمؤتمرات التي قام بها الاتحـاد منذ ولادته وحتى الوقت الحـاضر :

١ ـ ندوة احيـاء ذكرى الرازي التى عقدت في النصف الثـاني من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٧٦ في جامعة عين شمس بالقاهرة .

٢ ـ اجتماعات الاتحـادات العربية الدورية التى عقدت في مقر الجامعة العربيـة لتنسيق الخطط والبرامـج الاعلاميـة .

٣ ـ مؤتمر الحضـارة العربية الذى عقد في الاسكندرية بجمهورية مصر العربية وسـاهم الاتحـاد بمنحة ماليـة للهيئة التحضيرية للمؤتمر ليمكنهـا من اداء مهمتها القوميـة والعلميـة .

٤ ـ اقامة موسـم ثقـافي في تونس وليبيا والجزائر تلقى فيـه مواضيع مختلفة منها (سمات وملامح الحكم الوطني التقـدمي في العـراق بقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي) و (القضية الكردية وتمرد الملا مصطفى وما هي الدوافع الاساسية التى ادت الى تمرده) .

٥ ـ اقامة ندوة عالميـة يحضرها رؤسـاء الجمعيات التاريخية في ارجاء العـالم العربي وكبار الباحثين والمؤرخين العرب والاجـانب وقادة السياسة والفكر في الوطن العربي موضوعها « الوحـدة العربية »

سياسيا واجتماعيا وثقافيا وذلك هو الهدف الرئيسي الذى نادى به حزب البعث العربي الاشتراكي وأن تكون المناقشة بأسلوب موضوعي وبروح علمية بناءة تخدم الغرضين القومي والعلمي •

٦ ــ مؤتمر الدراسات التاريخية لشرق الجزيرة العربية لبحث ومناقشة عروبة الخليج العربي والذى سيعقد في دولة قطر وفي العاصمة الدوحة يحضره قادة الفكر في الوطن العربي والعالمي وذلك في ٢١/٣/١٩٧٧ • وبرعاية سمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثان امير دولة قطر •

٧ ــ اقترح اقامة مهرجان عربي كبير في اسبانيا لمدة اسبوعين في ربوع غرناطة ومعالم اشبيلية وبين آثار قرطبة حواضر العرب الزاهية ، تساهم الدول العربية والاسلامية بهذا المشروع الكبير ذى الأثر الكبير في تعريف اوربا والعالم بمآثرنا الخالدة وتاريخنا المجيد وذلك في صيف ١٩٧٨ •

٨ ــ اقترح عقد حلقة ودراسة حول تنسيق مناهج تدريس التاريخ في مراحل التعليم المختلفة في الوطن العربي •

٩ ــ الاتصالات التى قام بها الامين العام لاتحاد المؤرخين مع المسؤولين بقصد توضيح اهداف الاتحاد وخططه المستقبلة ودعوته للمسؤولين لدعم الاتحاد واسناده معنويا وماديا لتمكينه من تحقيق اهدافه في المجالين القومي والعلمي •

١٠ ــ نجحت الامانة العامة في عقد المكتب الدائم كما ينص قانون الاتحاد في الجمهورية العربية الليبية وفي مدينة بنغازى في ١٨/١٠/١٩٧٥ وفي مدينة الدوحة بدولة قطر في ١٨/٣/١٩٧٧ وكان برنامجه ينص

على تشجيع وتعضيد البحث العلمي الذي يقدمه المؤرخون والباحثون العرب .

١١ ـ قدمت الامانة العامة مساعدات مالية للجمعيات التاريخية في الوطن العربي .

١٢ ـ قام الاتحاد بشراء الكثير من الكتب من المؤرخين وايداع نسخة منها في مكتبة الاتحاد وتوزيع ما تبقى منها على الجمعيات التاريخية والمؤسسات الثقافية في ارجاء العالم العربي .

١٣ ـ قدم الاتحاد مساعدات ثقافية للمدرسة العربية في غرناطة .

١٤ ـ اتاح الاتحاد فرصة للاعضاء لحضور المؤتمرات العربية والعالمية والمشاركة فيها .

١٥ ـ استضاف الاتحاد عددا من الاساتذة الباحثين العرب والاجانب من المعنيين في التراث العربي والاسلامي .

١٦ ـ أصبحت سلطنة عمان والمملكة العربية السعودية ممثلتان كعضو في اتحاد المؤرخين العرب .

١٧ ـ تنفيذاً لأهداف الاتحاد نجحت الامانة العامة باقامة مؤتمر الدراسات التاريخية لشرقي الجزيرة العربية والذي يحضره المؤرخون العرب والاجانب والذي سيبحث ويناقش مواضيع تاريخية مهمة .

وبالاضافة الى ما ذكر فقد شرع اتحاد المؤرخين العرب بتدوين

الفكر العربي الذى تجود به اذهان المؤرخين وبمواضيع مختلفة بمطبوعاته التى قام بطبعها منذ ولادته كمجلة المؤرخ العربي التي تشتمل على بحوث قيمة ومختلفة ومنها المتناول بين ايدينا ، وطبع كتاب عروبة الاحواز وأسس الاتحاد مكتبة تظم كثيرا من المصادر والمراجع القديمة منها والحديثة لتكون ملتقى الباحثين والمؤرخين ودعمها ماديآ لتستطيع اقتناء العدد الكافي من الكتب ، وهناك امور مهمة انتهجها الاتحاد هي الدعوات التي وجهها الى بعض الشخصيات العالمية والعربية لزيارة العراق لغرض اطلاعها على معالم وادى الرافدين الحضارية والاثرية وعلى منجزات حكومة الثورة التي قام بانجازها حزبنا القائد حزب البعث العربي الاشتراكي منذ تسلمه قيادة السلطة • وأخيرا عسى ان يستلهم القارىء أو الباحث ما يروق له من البحوث المنشورة في هذا العدد الذى بين يديه •

بهجت كيطان بشير

سكرتير اتحاد المؤرخين العرب



23. SHA Aurel. 6.2, "Manu ad ferrum;" above, note 17.

24. And many others; see my articale forthcoming.

25. E.g. Amm. 15.8.5, the soldiers scuta genibus illidentes (quod est Prosperities indicium); 16.12.43 and above, nn. 8f.

26. A Study of History, which I know best in its abridgement (1947). See e.g. P.122, on Mercia, "exposed to a frontier stimulus from the unsubdued Celts;" 342, Assyria; etc.

27. Euseb., Orat. ad Const. 9.13, of the Tetrarchs; other examples in Art Bull. 46 (1964) 452f.



rich villa owner of Durostorum has trousers as part of his wardrobe, in A. Frova, Pittura romana in Bulgaria (1943) 17 and fig. 9, dated to the fourth century, ibid.29; and D. Levi, Antioch Mosaic Pavements (1947) 336. bracae in Rome by Severan times. For the skaramangion, see F. Cumont, Byzantion 2 (1925) 18.-192. Compare the Illyrian hat worn by the Tetrarchs in the statues on San Marco, Venice, and in the mosaic of Piazza Armerina, G.V. Gentili, La villa Erculia di Piazza Armerina (1959) 70, "official Tetrarchic uniform;" or again, the Celtic "cruciform fibula ...., the insignia common to all chlamydati," to be seen, for instance, in the famous Madrid missorium, J. Heurgon, Le tresor de Tenes 1958) 24f. and Pl. 7, 1 and 3;11,1.

18. Arr., Tact. 35, calls them Scythian; but Lucian, How to Write Hist. 29, hesitates between a Parthian and an Iberian origin. Modern scholars likewise hesitate: see C.V. Trever, Iranica antiqua 4 (1964) 162-70, choosing Sarmatia, and other reff. in MacMullen, Art Bull. 46 (1064) 444 n. 44f.

19. Amm. 20.4.18. The "dragons" had paraded with Constantius into Rome in 357, Amm. 16.10.7.

20. Vita Const. 4.7; cf. Orat. ad Const. 5.16 (Migne, Patrol. graeca 20.1337).

21. Herod. 4.7.3; cf. J.P. Wild, Textile Manufacture in the Northern Roman Provinces (1970) 131f., gold thread of the third century or later.

22. See my Soldier and Civilian (1963) Chap. VII.

9. Veget., Mil. 3.16, drungos, hoc est globos; cf. 3.19, globis, quos dicunt droungos; Joh. Chrys., Ep. 14.2 (Migne, patrol. graeca 52.614); and drungarii by tne sixth century.

9. Pauly-Wissowa, Real-Encyclopadie s.v. Spatha (F. Lammert, 1929); Tac.. Ann. 12.35; Veget., Mil. 2.15, gladios quos spathas vocant. (

10. Ox. Lat. Dict. s.v.; Corp. Inscr. Lat. 5.536; 7.1002; 13,1081,

11. Arr.. Tact. 4.4, "Called kostophoroi," "fighting in the Alan or Sarmatian fashion." Cf. E. Cabba in La Persia cit: 68.

12. B. Rubin, Historia 4 (1955) 273-78; MacMullen, Art Bull. 46 (1964) 440.

13. Amm. 16.10.8.

14. A. Alfoldi, Mitt. deutsch. arch. Inst., rom. Abt. 50 (1934) 54.

15. Amm. 15.8.15; cf. 16.12.13,

16. Amm. 14.10.16; cf. 17.1.13,

17. L. Matzulewitsch, Byzantinische Antike (1929) 95ff. For the penetration of troustrs from Iranian, "Scythian," or Sarmation lands, see Herodian 5.3.12. Elagabalus trousered "in barbarian mode;" Scriptores hist. Aug. (=SHA), Vita Alex. 40.11. the emperor "wore white bracae not scarlet as they used to be before;" in Roxolani=Sarmatian fashion (if. Arr., Tact. 34) a

NOTES

1. 113 B.C. : Plut., Mor. 283F; cf. Livy 22.57.6 (216) for a precedent

2. La Persia e il mondo greco-romano....1965 (Quaderno 76, Accad. naz. dei Lincei, 1866).

3. For military control of trade, aside from Hadrian's Wall, see Inscr. Lat. selectae 775, burgus cui nomen Commercium, qua causa et factus est; MacMullen, Soldier and Civilian (1963) 58f. Notice also loan words in German tongues, picked up in camp canabae, e.g. 'kaufen' from caupo, H. Rosenfeld, Rhein. Mus. 95 (1952) 201. On the sense of technological superiority that forbade export of certain items to "basbarians," cf. Dig. 39.4.11 (Paulus); Cod. Just. 4.41.1 (370-375) and 2 (455-57); Procop., Bell. Pers. 1.19.24; Cod. Theod. 4.13.8 (381); 7.16.3 (420): 9.40.24 (419: trans. Pharr).

4. Ant. class 32 (1963) 552-61.

5. Diz. epigrafico (=DE) s.v. Leugae (De Ruggiero, 1953). On braccatus first as a term of contempt, Thesaurus ling. Lat. s.v.

6. J. Carcopino, Etapes de l'imperialisme romain (1961) 232f., citing other points of advantage shown by Gallic tarming; specifically on the vallus, see R. Legros, Latomus 30 (1971) 699.

7. Tac., Germ.6, acies per cuneis componitur; the first ksown cuseus is of Frisii, under Alexander Severus; thereafter a term in common use (DE s/v.; Cod. Theod. 5.6.1.347).

origin beyond the borders". as I have tried to use it without overtones of judgement on the inferiority of a way of life, then its application must be traced in a geographical sense, slowly moving forward with the Roman advance, lingering for a generatios within the army as the Frisii or the Rhaeti are encountered, are absorbed, and are Romanized by the early and more vigorous Principate. In time this vigor waned. The tide turned.Features of life once thrust back by a frontier that had truly "Roman" meaning, now reappear even on the inner side, partly by revival, parrtly by intrusion. From the third century on, an unbroken cultural spectrum strelhes from Italy to Denmark and the Caucasus. Somewhere near its middle point, confusion of cultural loyalties anticipates the confounding of political sense. That was detected by a contemporary of the great Gothic in 376. How many Goths entered? Ammianus (31.4.4f). true Roman, quotes Vergil to us: "Whoever would know, would learn how many are the grains of sand tossed by the winds of the Libyan desert:" And how were they received by the Romans? ?Their advent, he says, "was cause for more delight than alarm. Adroit praise exalted the good fortune of the emperor .... With tumultuous and insistent enthusiasm, turbido insistentium studio, the ruin of the Roman world was ushered in." There was barbarian influence with a vengeance.

the northern edge. As Rome altered even their internal organization by compacting them, so they by their mere presence (to say nothing of their onslaughts in the 200's) altered the empire most profoundly, first, by attracting to their neighborhood a vast concentration of men, money, and political leadership; second, by producing conditions in which their own traits of life could — indeed, to some extent must — flourish. From these two aspects of borbarian influence flowed consequences too many, too complex, even to list. The least Romanized provinses gained predominanre, grew wealthy, when other regions were poor, assumed a patron capacity, and thereby set their mark on arts and manners. I may instance the linear quality of the Panticipaem dish or the frostality of the well known Madrid missorium, likewise in silver relief, likewise from the fourth century, likewise depicting an emperor. Lisear and frontal is the art of the period in its very essence. Or I may instance the half-educated, uncouth, often savage note struck in the behavior of the leadears of society, "raging like wild dogs," or the like phrase.

Intangible phenomena of this sort carry us far beyond the visible, manifest signs of cultural change to a level of interpretation clearly subjective. Nothing about their source can be decisively proven. Yet one can see, I think, a chain of relationhip unbroken that joins so little a thing as the silver in Garacalla's cloak to so fateful an event as the placing of a new capital at Byzantium, with all that entailed for future centuries.

One can see, too, a train of cause and effect hidden in the histosy of that ambiguous term barbari If it is to mean "of an

corners of the past — Athens, Alexrandria, Carthage, Rome — we do not see history any longer made withis their walls but rather at obscurer cities like York, whose palace formed the setting for Caracalla's accession. The bulk of new, vast imperial residences from Trier to Constainople lay inevitably along the tier of onrthern provinces.24 Here were born, lived, and worked the great figures of late antiquity. Different ways prevailed here, needing self conscious explanation by contemporary writers who addressed themselves to an audienece lying in the inner, older, peaceful empise.[25] A different degree of prestige, of energy, of the power to shape events prevailed here, too. In the century and a half or more leading up to the settlement of the Goths in the lower Danube provinces, the edge of the Roman empire became, so to speak, its center. Barbarian influences along this edge therefore transecend in their historical importance the limitations on their territorial settings.

Violent contact along this edge produced profound effects on the outer barbarians. It compacted some of them into larger and therefore more viable units. One such called itself "Everybody" the Alemanni. Another called itself "The March Men." Marcommani call to mind Arnold Toynbee, who has seen so deeply into the stimulus developing at the point of conflict between two peoples[92] But the stimulus of cours worked in both directions. It is the less familiar direction, from outside inward, that provides my topic, and leads on to an interprttation of greoter difficulty.

It seems clear to me that the chief cause of the chief changes in the later empire was the threat offered by the barbarians along

with his role as champion of all that he thought purest and oldest in the classical heritage. The contrast was resolved within the man. In the delicate shading if cultural varieties across the face of the empire, it was inner colors that Julian sought to preserve, although himself obliged to live among the peripheral shades that blended into outer barbarism.

It must be conceded that the data presented thus far - equipment uniform, and so on - indeed prove barbarian influence, but only in limited contexts. Their contexts are all in some sense militray, either by reason of place — neor the borders — or by reason of role, where the emperor appears amidst his troops or as a conqueror. On the silver plate from south Russia, he is triumphans. In his very palace, he remains the empire's commander in chief, surrounded by castrenses, even his civilian agents wearing the army cingulum, and so forth.(22) Militarization of late Rome is a well known phenomenon. No person reflected it more clearly than the person whose fate hung on his army's will, the emperor. And an emperor like Tacitus, so briefly on the throne, so civilian, so thoroughly Roman a failure, demonstrated the truth about this to his cost.

On the other hand, consider such successes as Caracalla, bearing a nickname and clad is variuos items that derived from the camp. Consider Aurelian, called "Hand on-hilt" by his men, or the Tetrarchs, shown in the famous porphyry group at Venice literally, each one grasping their swords and wearing the round hats of their Pannonian countrymen.[23] Tneir point of origin is instructive. Fomr Caracalla on to the battle of Hadrianople, if we look at the four

official, settings, in camps and palaces. The triumphant thrust of Frisii, Rhaeti, Roxolani, or Sarmatae is most easily detected in the body of the empire through this kind of tangible or visible evidence. That such evidense demonstrates barbarization on a significant scale and strongly suggests an accompaniment of invisble influences, is clear. Nevertheless, there is an unsatisfactory, shallow quality to the survey so far. An historian should be able to rise above trousers to the higher implications of cultsral transfer.

To attack problems of a greater degree of difficulty, then, I may recall what was said earlier about the word "Roman" as opposed to "barbasian." While it may be defined in various ways for any any chosen period, and while it each definition is permissible if it is explict, I think the word by itself alone is too ambiguous to be useful in interpretation. The shading of differences shifts too subtly and gradually from Italy to a hundred miles beyond the frontier, making the empier's circuit walls purely political, (military, or symbolic, but culturally meaningless. We can speak only of degrees of approximation to life as it was lived in Italy in, for example, the reign of Hadrian. In that sense I use the term "Roman" in my title.

For historians, this semantic cloudiness in itself, however, holds great meaning. It reminds us of the immensity of the pax Romana, the immensity of its tolerance. In the tableau of Julian's accession, such overt features as the torque placed on his head or the serpent banners waving above his army contrast most sharply, most curiously,

From the same Sarmatians -- at least, from the area of south Russia and northern Iran – derived the use of banners of right fabric and hollow construction which the wind could inflate.[18] They were called serpents, dracones, thier bearers draconarii; and it was very suitably a dracinarius who donated his gold neak-band to fit out Julian for coronation ceremonies.[19]

Eusebius tells us, "I myself have sometimes Stood near the entranse of the imperial palace and observed a noticeable array of barbarians in attendance, differing from each other in costume and decoration....All of them in turn would present to the emperor those gifts which thier own nation held in most esteem, some offerisg....barbaric garments embroidered with gold ond frowers."[20] What is especially interesting is to find Eusebius earlier describing Constantine as clad in exactly these same garmests "embroidered with gold and flowers." We san go back to Caracalla in "the costume of the Germans, in the kind of cloak they wear, decorated with silver." Better to go forward to the whole fourth century and thereafter into Byzantine times, when gold and silver thread belonged to ruler and great officials as almost a sign of their rank.[21]

I have thus far dealt with hats, pants, brooches; with banners, spears, swords, shields; with actions protrayed in our sources, of a cavalry charge or a coronation; thus, with things one could see. I have traced them in a series moving from west to east from the mouth of the Rhine to the Sea of Azov. And shown their presence in what should be purely Roman, at least formal and

ritural. He could expect to be applauded by his supporters not in any way that Augustus could have recognized but by their "striking their shields against their knees with a terrible clash;"[15] and in his very treaties with their borthers opposed to him, he would conclude an armistice according to barbarian fashion."[16]

Who in such ceremonies was truly Roman? Was it Julian, surrounded by wild tribesmen of exotic speech and origin, his uniform distinguished by their own insignia of rule, his reign begun by their rites of coronation?

When it is the emperor that is involved, dress assumes historic significance, as much felt by his subjects as if today the head of some western democracy were to appear on state occosions in a costume taken from the Orient. That would excite comment. A silver dish from panticipaeum illustrates the point. It bears a picture in relife of a diademed ruler, to be identified as Constantius. Shown triumphans, he is nevertheless in the Sarfatian mode astride a horse, wearing riding trousers and the riding coat that later was taken over as the Byzantine skaramangion.[17] We have no way of knowing who made this picture, or for whom. It cannot have been produced in a spirit of caricature – at worst, it merely anticipated a development that was accomplished by the next century. But the symbolism of dress was sensed and alien modes still resisted as late as Honorius' reign (Cod. Theod. 14.10.2f.,A.D. 399). Ht forbade trousers to be worn in the capital, meaning Rome. Doubtless in Constantinople change had already passed beyond the reach of legislation.

"wedges" and cuneus developed into a term of general use.[7] Similarly another formation began its history as a Celtic word, drungus.[8] The long Germanic sword was nick-named "spatula" (spathe, Latin epatha) and spread by the second century from auxiliaries to the regular army, producing units of spatharii;[9] the heavy spear of the Gauls, Celtic gaesum, enters Latin as a word to be used in literary works by the late Republic, giving a name to its native users in the army, the gaesati of Rhaetia from Augustus on:[10] light spear troops were specially recruited from Celts and Sarmatians;[11] and fully armored mounted aschers worked their way from China into the Middle East and thence into Roman service by the second century, providing a spectacular sight in parades and spectacular victories from the later third century onward.[12] They entered Rome in the train of Constantius in 357, "masked, breast-plated, girt with iron belts, whom you might take not for men but for statues polished by Praxiteles.[13]

Tre history of this entire development is as rich as it is familiar. So also is the derived history of the army's effect on other institutions. At all periods and especially in the lattr empire the army occupied a prominent position in the state, providing a means by which people from outside could indirectly produce changes in what should have been the innermost fastnesses of conservatism. Julian was probably not the first emperor,(14) and certainly emblematic of future practices, to be lifted to the throne litrally on a shield crowned by a gold neckband, wholly according to Germanic warrior

deep within the longest settled parts of Gaul, are we to consider this a proof of barbarization? If the custom of wearing trousers penetrated from Gallia braccata into Italy, have the Romans descended -- as we ourselves, then -- to a cruder fashion?[5] And what are we to say about the mowing machine native to Remi, certainly a more advanced device than could be found at the heart of the empire?[6] In raising these questions, we must also raise the degree of difficulty in our discussion; for obviously the Gauls by the third century cannot be called barbari even if we were unwilling to call them Roman. Yet their peripheral civilization assersts its own personality at the expense of the central. A serious problem of method begins to appear. We cannot very well contrast the two cultures, Roman and alien, without agreeing on the definition of the former.

But to return to points of contact between the two: besides the peaceable points through immigration and commerce, there was a third, the military. Aliens made their deepest impress bearing arms. Enrolled in contingents sent by client states during the second century B.C., as irregular troops in the later Republic, as auxilia under the Principate, and as elite as well as regular soldiers under the Dominate, they gradually worked their way upward in the defense system of the empire. In the process they profoundly affected the nature of equipment tactics, and terminology. Attak by cavalry formation in wedge-shape was so peculiarly Germanic that some of Rome's Germanic mounted units as such came to be called

to them," in the Black Sea region, are warned that to do so is a capital crime.[5]

Second, note the intrusive settlements of alien tribes en masse or at least in substantial numbers admitted to districts sparsely inhabited and therefore militarily weak. I have described archeological evidence elswhere. While some is foond as far south as Auvergne the vast bulk lies close to the Rhine and Danube; association with camps and forts is usually close.

What strikes us about both large-scale immigration and the exchange of goods at trading stations is the manifest preeminence of the empire, which during its height drew in nothing to speake of that it could not equal or surpass from its own capabilities, until. in its decline, its northwestern border regions sank close to the level of the intruders. Not before then, from the third century on, can we see barbarian pottery, grave-ornaments, or burial customs able to maintain themselves or even, to inspire imitation within the frontier. And such intrusive enclaves are properly viewed as presursors to the great invasions hera;ded in 376.

The later empire, however, saw in its north and northwestern provinces a more subtle and pervasive rapprochement to a middle ground with barbarian culture. For reasons not easy so to determine, a sort of revival of pre-conqcest days appears in art, costume, and so forth. Before leaving these provinces we should note the fact and bear in mind its implications. If good, government - built highways bore milestones marking leugae, the Celtic unit of distance,

purposes. From the African peoples that filled the vacuom left by the Punic wars, as from the native tribes and kingdoms left bare in Spain by the Punic retreat, Rome borrowed on;y mercenary support from the Gauls, during the Republic, Rome likewise borrowed only troops – plus the two captives to be used in human sacrifice at a time of national hysteria.[1] Since in the same ritual two Greeks as well were buried alive in the Forum Boarium, the Romans were demonstrating a fine inddifference to levels of culture as late as the days of Marius; nor is it clear in this incident just whom we should call " barbarian " – probably the senators themselves.

The period of the Republic, then, and the areas to the south and west of Italy we may in this rapid survey dismiss without further attention; likewise the east, whose more ancient peoples the Romans could hardly call inferior and whose impact on Rome was invistigated ten years ago in yet another inttrnational meeting of scholars..[2] It is the period of the empire and the whole range of peoples from Scotland to south Russia that will repay study.

Among the influences they exerted, the simplest to describe are the material, uncovered by archeologists. We may imagine the various contexts in which objects of import might be found: first, the trading posts at carefully controlled points along the frontier, in which were received only raw materials to be manufactured into more refined articles by a superior technology. Rome's consciousness of superiority shows in many decrees. Exportation of iron, grain, or arms was forbidden. Skills, too: "Those persons who have betrayed to the barbarians the art of building ships, that was hitherto unknown

BARBARIAN INFLUENCE ON ROME

BEFORE THE GREAT INVASIONS

Professor T. R. S. Broughton, to whom Roman studies owe so much, suggested my topic. In addressing myself to it, I would like to invoke the rules of another kind of international meeting, the modern Olympic games, where ice-skaters, gymnasts, or divers are judged not by failure or success but according to the degree of difficulty of what they attemp.

For the topic turns upside down the conventional way of looking at " Le rayonnement des civilisations greeque et romaine sur les cultures peripheriques" -- on which an earlier international congress concentrated. What emerged more clearly from that joint effort of classical archeologists in 1963 was the extent and depth of contact between the Mediterranean world and its neighbors. Yet so much contact, despite the predominance of the Greeks and the Romans, cannot have been a one-way street. It would be reasonabie a priori to suppose that Greeks and Romans adopted some features of life as it was lived beyond their broders.

I may most conveniently treat the evidence in an Olympic fashion, according to degree of difficulty. Relatively easy is the marking off of periods and areas that hold little of use for my



BARBARIAN INFLUENCE ON ROME BEFORE THE GREAT INVASIONS



RAMSAY MacMULLEN
U. S. A.